دولة النزارية أجداد أغاخان

كما أسسها
الحسن الصباح (زعيم الاسماعيلية فى فارس)

تأليف

دكتور

طه أحمد شرف

الطبعة الأولى

١٣٦٩هـ — ١٩٥٠م

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا : تليفون ٥١٣٩٤

مطبعة الشبكشى بالأزهر بمصر

دولة النزارية أجداد أغاخان

كما أسسها

الحسن الصباح (زعيم الاسماعيلية فى فارس)

تأليف

دكتور

طه أحمد شرف

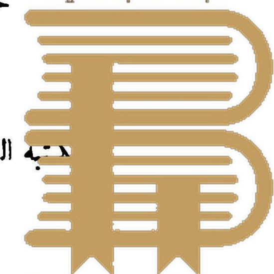
ليسانسيه فى الآداب ، دبلوم معهد التربية العالى للمعلمين

ماجستير فى الآداب ، دكتوراه فى الآداب

مدرس التاريخ بالمعهد العالى للمعلمين والحلمية الثانوية

الطبعة الأولى

١٣٦٩هـ — ١٩٥٠م



يطلب من

مكتبة النهضة المصرية ومن المكتبات الشهيرة

مطبعة الشبكشى بالأزهر ـ القاهرة

الإهداء

إلى سعادة أستاذنا الكبير الدكتور حسن إبراهيم حسن بك

« أرشدتنى إلى بحث تاريخ الإسماعيلية فى الحياة السياسية ، وغمرتنى بنصحك وتوجيهك ، فتقبل كتابى « دولة النزارية - أجداد أغا خان - كما أسسها الحسن الصباح » كثمرة من ثمار نصحك وإرشادك . وستتلوه أبحاث أخرى ، أرجو أن أُلِمَّ فيها بتاريخ هذه الجماعة، منذ أقدم العصور إلى اليوم ، إلماماً تاماً .

طه أحمد شرف

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو نعم المعين

مقدمة

ينتمى الإسماعيلية إلى إسماعيل بن جعفر الصادق (+ ١٤٥ هـ) ، الذى استمر أتباعه من بعده يبذلون جهودهم رخيصة فى سبيل إقامة دولة علوية ، وقد نجحوا فى ذلك سنة ٢٩٦ هـ ، حيث أقاموا الدولة الفاطمية ، وبقى الإسماعيلية وحدة لا تنفصم ، تحت زعامة الفاطميين ، وكانت الدعوة الفاطمية وقتئذ تسمى « الدعوة القديمة » .

غير أنه بموت الخليفة المستنصر الفاطمى سنة ٤٨٧ هـ ، انشق إسماعيلية فارس والشام على « الدعوة القديمة » ، وانتموا إلى نزار بن المستنصر ، وقالوا إن أباه عيَّنه فى الإمامة والخلافة بعـــده ، وعابوا على بيت بدر الجمالى - وزير المستنصر - تدخله فى شئون دعوتهم ، واستطاع الزعيم الفارسى « الحسن الصباح » أن يكوِّن دولة نزارية لها كيانها الخاص ، وأن ينشىء دعوة عرفت فى التاريخ باسم « الدعوة الجديدة » ، وعرف أنصارها بالإسماعيلية النزارية أو « الإسماعيلية الشرقيين » ، وبقيت دولة النزارية كما وضع أساسها الحسن الصباح ، وأخذت تغالب الدهر ، منذ سنة ٤٨٨ هـ ، حتى سقطت فى سنة ٦٥٤ هـ ، على يد هولاكو المغولى .

ولم تمت الدعـوة النزارية بموت دولتها فى سـنة ٦٥٤ هـ ، وظل أنصارها يعملون فى الخفاء ، حتى بعثوا اليوم باسم الأغاخانية - أتباع أغا خان - أو الخوجات ، وهؤلاء هم النزارية المحدثون .

وأما أنصار الدعوة القديمة ، فاولوا طاعتهم للمستعلى ، الابن الأصغر للمستنصر . وسموا « المستعلية » ، ولما مات الخليفة الآمر سنة ٥٢٤ هـ ، ووليه الخليفة الحافظ ، اعترف إسماعيلية مصر له بالرياسة ، فسميت دعوتهم « الدعوة الحافظية » ، واعترف إسماعيلية اليمن بالإمام الطيب بن الآمر ، فسموا الطيِّبيَّة ، وتطورت الأحوال بهؤلاء ، وانتشروا فى اليمن والهند وغيرهما ، ويسمون اليوم « البهرة » . أما « الحافظية » ، فماتت دعوتهم بسقوط دولة الفاطميين فى سنة ٥٦٧ هـ .

من ذلك ترى أن جماعة الإسماعيلية لهم تاريخ طويل ، يبدأ بظهور الدولة العباسية ، ويستمر إلى اليوم . وقد رأيت أن أوالى البحث فى تاريخ هذه الطائفة ، فقسمته قسمين : قسما خاصا بالدعوة القديمة ، وآخر خاصا بالدعوة الجديدة .

أما « الدعوة القديمة » فإن تاريخها طويل متشعب ، لذلك قصرت على تاريخها فى دور « استتار الأئمة » كتابا أسميته « تاريخ الإسماعيلية حتى قيام الدولة الفاطمية » ، وقصرت على بحث تاريخ الدعوة فى الدور الفاطمى كتابا آخر ، أسميته « الفاطميون وزعامة العالم الإسماعيلى » ، ورأيت أن للإسماعيلية فى اليمن والشام تاريخا مجيدا ، فكتبت فيه كتابين أسميت أولهما : « إسماعيلية الشام من أقدم العصور إلى اليوم » ، وأسميت ثانيهما « إسماعيلية اليمن من أقدم العصور إلى اليوم » ، ولم يقف بحثى فى تاريخ « الدعوة القديمة » عند ذلك الحد . فقد ألفت كتابين على هامش تاريخ الفاطميين ، أسميت الأول « تأسيس الدولة الفاطمية كما وضعه أبو عبد الله الشيعى » ، وأسميت الثانى « المشكلات الكبرى فى تاريخ الفاطميين » .

وأما الدعوة الجديدة ، فقد ألفت فى تاريخها كتابين: أولهما، «دولة النزارية ، كما أسسها الحسن الصباح » ، وهو الكتاب الذى بأيدينا ، وثانيهما « أئمة النزارية أجداد أغاخان» ، والكتاب الأول أساس طيب للكتاب الثانى ، إذ لا نستطيع الإلمام بتاريخ أئمة النزارية ، إلا إذا عرفنا الأسس التى وضعها الصباح ، لتكوين دولتهم المنشودة .

وأرجو أن يتم إخراج هذه الكتب فى أقرب وقت مستطاع ، حتى ينجلى « تاريخ الإسماعيلية من أقدم العصور إلى اليوم » . والله الموفق وهو نعم الولىّ .

٢٨ شـوال سنة ١٣٦٩ هـ
١١ أغسطس سنة ١٩٥٠ م

طه أحمد شرف

تصدير الكتاب

بقلم

سعادة الدكتور حسن ابراهيم حسن بك مدير جامعة محمد على الكبير

الإسماعيلية أهمية خاصة فى البلاد الإسلامية ؛ فقد امتد تاريخهم منذ قيام الدولة العباسية ، واستمر هذا التاريخ إلى اليوم . ولا أشك فى أن تاريخ هذه الطائفة يحتاج الى دراسة تحليلية تعتمد على المراجع الأساسية ، التى لا توجد أحياناً إلا مخطوطة .

وقد وجهت نظر بعض تلاميذى إلى أهمية بحث تاريخ هذه الجماعة من الناحية السياسية خاصة والتعمق فى دراسة مخطوطاتها . وفى مقدمة هؤلاء ، الدكتور طه أحمد شرف ، لأنه — فى نظرى — أجدر من يضطلع بهذه المهمة العلمية ، فى هذه الناحية من نواحى التاريخ الإسلامى ، فأشرت عليه بأن يبين كيف تكونت هذه الجماعة فى العصر العباسى الأول ، وأن يتتبع الجهود التى بذلوها فى سبيل إقامة الدولة الفاطمية ، وكيف نظم الفاطميون هذا المجتمع الإسماعيلى الكبير ، وأن يلم بتاريخ النزارية ، أجداد أغا خان ، وبتاريخ المستعلية ، أئمة « البهرة » ، وغير هؤلاء وأولئك من طوائف الإسماعيلية ، وقد ألم الدكتور طه أحمد شرف بكل ناحية من هذه النواحى إلماماً يدعو إلى الإعجاب .

واليوم يعرض حضرته بحثاً ممتعاً عن « دولة النزارية أجداد أغا خان ، كما أسسها الحسن الصباح ، زعيم الإسماعيلية فى فارس » فى أسلوب تاريخى ، يقوم على النقد والتحليل ؛ فصور البيئة التى نشأ فيها هذا الزعيم ، وأوضح تأثير

هـــذه البيئة فى تفكيره وعقائده ، وبحث حالة العـالم الإسلامى السنى والشيعى ، وبيّن كيف مهدت الأحوال لظهور شخصية إسماعيلية قوية تأتلق نجمها فى عالم الدعوة الإسماعيلية.

وقد تناول الدكتور طه احمد شرف بالتفصيل رحلة الحسن الصباح إلى مصر ، وصور موقفه من رجال الحكم فيها ، كما صور النزاع الذى قام بينه وبين بدر الجمالى ، وزير المستنصر ، بسبب ميل هذا الوزير إلى حفيده أبى القاسم أحمد بن المستنصر ، الذى تلقب المستعلى فيما بعد ، وعمله على إقصاء نزار ، أكبر أولاد الخليفة ، عن الجلوس على العرش بعد أبيه. وكان من أثر ذلك أن فكر الحسن الصباح فى الخروج على الدولة الفاطمية بعد وفاة المستنصر ، واعتلاء ابنه المستعلى العرش من بعده .

وقد حلل المؤلف العوامل التى ساعدت الحسن الصباح على الاستقلال بدولته الناشئة ، وبيّن الوسائل التى تذرع بها لتنظيم مجتمعه النزارى ، والطرق التى سار عليها فى نشر الدعوة لنزار بن المستنصر ، والطريقة التى سلكها فى تربية «الفداوية» الذين ذاعت شهرتهم فيما بعد ، كما بحث موقف الحسن الصباح ، وموقف دولته من السلاجقة والعباسيين ، وتناول فى شىء من التفصيل صراعه مع السلطان ملكشاه السلجوقى وخلفائه ، فى فارس وخراسان والشام ، وبحث عوامل نجاحه ، وما طرأ على هــــذا الصراع من تطور ، ثم خلص من ذلك كله إلى عرض سريع لتاريخ أئمة النزارية ، أجداد أغا خان ، وتحليل شخصية الحسن الصباح تحليلا دقيقا ، وذيل هـذا الكتاب ببعض الملاحق التى حوت كثيراً من النصوص الهـــامة .

وبعد ، فإن هذا الكتاب مقدمة لكتب أخرى ، بحث فيها الدكتور طه أحمد شرف تاريخ الإسماعيلية فى مختلف العصور ، وكشف فيها عن كثير من المسائل ، التى لا تزال غامضة مبهمة فى تاريخ الحضارة الإسلامية عامة ، وحضارة الشيعة الإسماعيلية بوجه خاص .

وأرجو أن يلقى هذا الكتاب من الذيوع والرواج ما يتفق مع أهمية موضوعه ، ويتفق مع ما بذله المؤلف فى سبيل إخراجه من جهود متصلة ، وما أضاف إلى هذه الناحية التاريخية من حقائق ، تفيد العلم فائدة محققة . فله منا كل ثناء وإعجاب ، ولكتابه كل تقدير وتشجيع .

١٧ شوال سنة ١٣٦٩
أول أغسطس سنة ١٩٥٠

حسن ابراهيم حسن

الباب الأول

حالة العالم الإسلامى قبيل ظهور الحسن الصباح

١ — العالم السنى :

كانت زعامة العالم الإسلامى السنى فى يد العباسيين ، وقد كانوا جديرين بهذه الزعامة فى العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) ، أما فى العصر العباسى الثانى (٢٣٢ — ٣٣٤ هـ) ، وما تبعه من عصور ، فقد أخذ الضعف يدب فى جسم دولتهم ، ولم يعد العباسيون يتمتعون بذلك السلطان المطلق الذى كانوا يتمتعون به من قبل . واستبدت بهم عناصر لا تمت إلى عنصرهم العربى الهاشمى بصلة : استبد بهم الفرس ، ثم طغى عليهم نفوذ الترك ، فكان منهم الوزير والقائد ، بل السلطان ، ومنهم حكام الأقاليم وموظفو القصور الخلافية . ولم يلبث هؤلاء أن أخذوا يعزلون من يشاءون من الخلفاء ، ويولون من يشاءون . وأصبح الخليفة معهم ، كما قال الشاعر :

خليفـــة فى قفص بين وصيف وبغـا
يقـول ما قالا له كما تقـول الببغـا

بل لقد وصف الخليفة العباسى ، المعتمد على الله (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ)

نفسه خير وصف، وأبان سوء حالة الخلفاء العباسيين، واستبداد الأمراء الأتراك بهم، فقال يتحسر:

ألیس من العجائب أن مثلی ... یری ما قل ممتنعاً علیه
وتحمل باسمه الدنیا جمیعاً ... وما من ذاك شیء فی یدیه
إلیه تحمل الأموال طرا ... ویمنع بعض ما یجبی إلیه

على أنه فى عصر إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ) لم يعد للخليفة العباسى السنى أى شىء من الاحترام، فاستبد أمراء الأمراء به، حتى لم يعد للخليفة مع أميره شىء من النفوذ.

ولم يلبث الخلفاء العباسيون أن وقعوا تحت تأثير بنى بويه الشيعيين، وظلوا تحت نفوذهم أكثر من قرن (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ). ونحن نعلم أن هؤلاء البويهيين كانوا يعطفون على الشيعيين، رغم خوفهم السياسى من الفاطميين، مما ساعد على نجاح الدعوة الإسماعيلية فى بلاد فارس، ومهد السبيل لظهور الحسن الصباح وجماعته، إذ لم يكن للعباسيين مع البويهيين الشيعيين رياسة على المسلمين. اللهم إلا تلك الرياسة الرمزية الدينية فقط، وبعبارة أخرى «إن الدولة والملك قد انتقل [كل ذلك] فى آخر أيام المتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ = ٩٤٠ — ٩٤٤ م)، وأول أيام المستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ = ٩٤٤ — ٩٤٥ م)، من آل العباس إلى آل بويه. والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية إنما هو أمر دينى اعتقادى، لاملكى دنيوى ... فالقائم من ولد العباس الآن (فى عهد البيرونى)، هو رئيس الإسلام، لا ملك»[1].

---

(١) البيرونى: الآثار الباقية عن القرون الخالية، (ليبزج، سنة ١٩٢٣ م) ص ١٣٢

على أن العباسيين تعرضوا لخطر جسيم آخر ، نراه فى تفكك وحدة العالم الإسلامى ، فقد استقلت دويلات كثيرة عن الدولة العباسية ، مما أوهن من شأن الخـــلافة السنية ، وأهم هذه الدول المستقلة ، الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ ه) ، والدولة السامانية (٢٦١ — ٢٨٩ ه) التى انضم أحد ملوكها إلى عبيد الله المهدى ، وتبادل معه الرسائل [١] ، ثم الدولة الغزنوية (٣٥١ — ٥٨٢ ه) ، وكذلك بنو بويه . ولا ننس دولة الطولونيين (٢٥٤ — ٢٩٢ ه) ، ثم دولة الإخشيديين (٣٢٣ — ٣٥٨ ه) ، والدولة الفاطمية ، فى بلاد المغرب أولا ، ثم فى مصر ثانياً (٢٩٦ — ٥٦٧ ه) ، والأمويون فى الأندلس (١٣٨ — ٤٢٢ ه) . كان هذا كله خطراً على كيان الدولة العباسية . التى أصبحت عرضة لضربات الضاربين وعبث العابثين .

ولم يلبث البويهيون فى بغداد أن دالت دولتهم ، وحل السلاجقة محلهم ، منذ سنة ٤٤٧ ه ، فتعرض العباسيون لخطر جسيم كاد يودى بدولتهم ونفوذهم ، فثار عليهم أبو الحارث البساسيرى ، وكثير من أمراء العراق ، وعاون الفاطميون هؤلاء الثوار معاونة جدية ، وأرسلوا إليهم الأموال والرجال ، وجعلوا من داعيهم المقدام ، المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى (٤٧٠ ه) سفيراً ، بين الثوار وبينهم . وبفضل هذه الجهود وتلك المؤازرة ، انهزم طغرلبك فى موقعة سنجار سنة ٤٤٩ ه ، وتبع ذلك دخول الثوار مدينة بغداد فى سنة ٤٥٠ ه ، والقبض على الخليفة القائم

---

(١) هو نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ — ٣٣١ ه) . انظر كتاب عبيد الله المهدى للمؤلف بالاشتراك مع أستاذه الدكتور حسن ابراهيم حسن .

العباسى ، ثم خطبتهم على منابر بغداد عاما كاملا ، للخليفة الفاطمى المستنصر .

إلا أنه سرعان ما استرد طغرلبك السلجوقى نفوذه ، ففك سراح الخليفة العباسى القائم ، وأجلسه على العرش ، وقضى على الثوار . ومازال السلاجقة يعملون بعد ذلك على الاستبداد بجميع شئون العالم الإسلامى السنى ، ويقللون من نفوذ الخليفة العباسى ، الذى لقى على أيديهم من العنت أكثر مما لقيه على أيدى «أمراء الأمراء» والبويهيين أنفسهم. هذا بالإضافة إلى طمع البيزنطيين والصليبيين فى ممتلكاتهم . وانشقاق أمراء السلاجقة على أنفسهم ، فكان ضعف الزعامة العباسية ، وتفكك السلاجقة ، من العوامل التى ساعدت الحسن الصباح على النجاح .

وقد أوضح فون همر(١) الظروف التى أحاطت بنشأة الحسن فقال : إن عصره كان عصراً مضطربا : قامت فيه أسر وزالت فيه أخرى؛ ففى طبرستان وحلب وديار بكر، اختفت دول وحل محلها دول أخرى. وقام السلاجقة لحلوا محل البويهيين، وامتد نفوذهم فى سوريا وكرمان وآسيا الصغرى، فى الوقت الذى لم يكن فيه للخليفة العباسى نفوذ أو سلطان ، وكان النزاع الدينى قائماً على قدم وساق: فالسنيون والشيعيون والحنابلة فى نزاع مستمر .. وأخذ الدعاة الإسماعيلية الذين كانت مصر توفدهم إلى الشرق ، يدعون الناس لمذهبهم ، وينتشرون فى جميع أرجاء آسيا ، ويعملون على إشعال الثورات . لذلك لاندهش إذا ماوجد هؤلاء الإسماعيلية فى الحسن الصباح مناصرا ومدافعاً.

---

(١) Von Hammer : Hist. de l'Order des Assassins, p. 75

وكان السلاجقة سنيين مغرقين فى سنيتهم ، فاضطهدوا غير المسلمين ، كما اضطهدوا كثيراً من الشيعيين . وكان للاضطهاد الذى نال الشيعيين أثره فى تكاتف هؤلاء وإغراقهم فى نشر الدعوة السرية . أضف إلى ذلك أن مدارس الدعوة بالقاهرة ، كانت تغذى بلاد فارس وغيرها من بلاد السنيين ، بطائفة كبيرة من الدعاة الجريئين الأقوياء ، الذين استطاعوا أن يجذبوا الحسن الصباح إليهم .

وكذلك كان لبعد فارس عن مركز الخلافة العباسية ، ولانتشار التشيع والشعوبية ، ولكثرة الدعاة الإسماعيلية فى هذه الجهات السنية ، أثره فى خلق شخصية فذة ، تستغل الظروف ، وتنجح فى تكوين دولة وسط الدولة العباسية المتداعية ، تلك الشخصية الجريئة تراها فى الحسن الصباح . حقا لقد كانت بلاد فارس ، منذ القديم ، محطا للثورات والثوار ؛ فهذا أبو مسلم الخراسانى، يرفع علم الثورة على الأمويين ، ويقضى على دولتهم ، ثم يعمل جاهدا على قلب الدولة العباسية ، فيقضى عليه ، على يد المنصور . وهذا المقنع الخراسانى ، يثور فى عهد المهدى ، ويلقى حتفه بعد أن أفنى الألوف من المسلمين. ناهيك عن بابك الخرّمى ، وما أحدثه من اضطراب فى هذه البلاد السنية ، فى عهد المأمون والمعتصم . كما لا ننس تلك الحركات الهدامة التى قام الزنادقة بها هناك ، فى أشكال وصور مختلفة ، وكلها ترمى إلى شىء واحد، هو قلب الدين والدولة معا . واستمرت تلك الأحداث مستعرة لا تخمد إلا فى الظاهر . فاستغل خلفاء مصر الفاطميون هذه

(١) طه شرف : الزندقة والزنادقة (مخطوط) ، ورقة ١٩١ — ١٩٧ .

الحال المضطربة ، فى تلك الأقطار السنية ، فغذوها بأساليب الدعوة السرية المنظمة ، حتى أصبحت على وشك القيام بثورات كاسحة . وخير مثال لذلك ، ثورات الإسماعيلية فى تلك البلاد فى عهد السلطان محمود الغزنوى ، ومناداتهم بالإمام المستنصر الفاطمى .

غير أن السلاجقة تمكنوا قبيل ظهور الحسن الصباح ، من القبض على ناصية الحال، فكان لا بد لأنصار الدعوة الإسماعيلية، من الإمعان فى الدعوة السرية ، ثم التكالب حول شخصية يثقون بها . وقد وجدوها فى الحسن الصباح . والخلاصة أن الحسن الصباح لم يكن أول من ثار على الدولة السنية فى بلاد فارس ، وإنما كان واحدا من أفذاذ هؤلاء الثوار ، الذين نالوا كثيراً من النجاح ضد العباسيين ، فى الناحيتين الدينية والسياسية .

وتعتبر الدولة السلجوقية مسئولة إلى حد كبير عن نتائج إهمالها شئون الأخبار والبريد فى البلاد السنية ، إذ سن السلطان ألب أرسلان (٤٥٤ — ٤٦٥ ﻫ = ١٠٦٢ — ١٠٧٢ م) سنة جديدة ، تتلخص فى عدم وجود أصحاب أخبار فى الدولة ، فقد كان هذا السلطان يتهم هؤلاء بأنهم إنما ينقلون مايريدون لا غير . فتمكن الإسماعيلية بفضل هذا الإهمال الواضح ، من إحكام أمورهم فى البلاد السنية ، ونجح الحسن الصباح أيما نجاح فى تستره وفى نشر دعواه . وبعبارة أخرى ، كان لإهمال السلاجقة السنيين واجباتهم فى استطلاع أحوال الرعايا ، أثره الكبير فى النجاح الذى ناله الحسن الصباح وجماعته .

أوضح البندارى (١) ذلك فقال : « وكان منهم رجل من أهل الرى وساح فى العالم ، وكانت صناعته الكتابة (٢) يخفى أمره ، حتى ظهر ، وقام من الفتنة كل قيامة ، واستولى فى مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة ، وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعة ، وخفيت عن الناس أحوالهم ، ودامت ، حتى استتبت على استتار ، بسبب أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار . وكان الرسم فى أيام الديلم(٣) ومن قبلهم من الملوك ، أنهم لم يخلوا جانبا من صاحب خبر وبريد ، فلم يخف عندهم أخبار الأقاصى والأدانى ، وحال الطائع والعاصى ، حتى ولى فى الدولة السلجقية ألب أرسلان محمد بن داود ، ففاوضه نظام الملك فى هذا الأمر ، فأجابه أن لا حاجة بنا إلى صاحب خبر ؛ فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء ، فإذا نقل إلينا صاحب الخبر ، وكان له غرض ، أخرج الصديق فى صورة العدو والعدو فى صورة الصديق . فأسقط الناس هذا الرسم لأجل ما وقع له من الوهم ، فلم يشعر إلا بظهور القوم ، وقد استحكمت قواعدهم ، واستوثقت معاقدهم ، وأخافوا السبل ، وأجالوا على الأكابر الأجل » (٤) .

كما تعرض العالم السنى لخطر هجوم الصليبيين ، الذى مزق وحدة الشرقين

---

(١) الأصفهانى : كتاب تاريخ دولة آل سلجوق . ص ٦٢ — ٦٣ .

(٢) المقصود هو الحسن الصباح .

(٣) المقصود هم البويهيون .

(٤) قتلوهم .

الأدنى والأوسط شر ممزق . وهكذا كان العالم السنى يموج بالاضطراب فى الداخل والخارج معا ، فكان هذا كله من أكبر دواعى نجاح الحسن الصباح - على ما سنرى .

٢ — العالم الإسماعيلى :

استطاع الفاطميون ، فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، أن يحتفظوا بوحدة العالم الإسماعيلى ، فى كل من فارس واليمن ومصر ، بل وبلاد المغرب كذلك ، غير أنه سرعان ما دالت دولتهم فى بلاد المغرب ، منذ سنة ٤٤٣ هـ ، فزال نفوذهم أمام تعصب السنيين المغاربة ، وأصبحت أسرة زيرى بن مناد الصنهاجى من ألد أعدائهم ، بعد أن كانوا من أكبر أعوانهم. ولم يبق للمذهب الإسماعيلى ، ولا للدعوة الإسماعلية تبعا لذلك، شيء من النفوذ فى تلك البلاد .

وكذلك ما لبثت دولة القرامطة فى البحرين أن زالت ، بعد أن أخذ الضعف يدب فى جسمها ، وتكاثف عليها جيرانها السنيون ، وما زالوا بالقرامطة ، ينتزعون منهم البلاد شبرا شبرا ، حتى استسلموا تحت وابل من ضربات السنيين المتلاحقة ، وانهزموا فى موقعة الخندق ، شمالى الأحساء ، فى سنة ٤٧٠ هـ . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد للقرامطة فى بلاد البحرين وجود سياسى يؤبه له . وبذلك فقد الفاطميون قطرين كبيرين ، أو بعبارة أخرى « بحرين » (١) كبيرين من بحار الدعوة الإسماعيلية : هما بلاد المغرب ، وبلاد البحرين .

AHMAD FAR

(١) البحر أو الجزيرة عند الإسماعيلية = الأقليم الكبير الذى يكون لهم ولمذهبهم فيه نفوذ

غير أن الدعوة الإسماعيلية لم تلبث أن استعادت قوتها ، فخلق الفاطميون لهم فى بلاد اليمن دولة كبرى ، حمل لواءها جماعة الصليحيين ، الذين مكنوا للفاطميين فى بلاد اليمن ، ودانوا لهم بالطاعة ، وحملوا إليهم الأموال والطرف والهدايا ، واتخذوا لهم من القاهرة ومدارس الدعوة بها ، كعبة يؤمها دعاتهم وكبار مفكريهم ، فنقلوا إلى بلاد اليمن كل ما وصلت إليه عبقرية الدعاة الإسماعيلية الأوائل . لذلك كانت دولة الصليحيين مستودعا هاما من مستودعات المذهب الإسماعيلى .

ولم يقف نفوذ الفاطميين عند بلاد اليمن وحدها ، فقد أخذ الصليحيون على عاتقهم أن يمدوا نفوذ سادتهم الفاطميين فى بلاد الحجاز وعمان والهند ، فكانوا سفراءهم ودعاتهم وولاتهم فى بلاد الحجاز ، يشيدون بفضلهم من فوق منابر البلاد المقدسة ، لذلك نرى على بن محمد الصليحى (٤٥٩ ﻫ) يخطب للمستنصر في بلاد الحجاز ، ويسمو بالمذهب الإسماعيلى والمذاهب العلوية هناك ، وينحو باللائمة على العباسيين ، ويرميهم بالعبث وإهمال شئون الدين . وكذلك اتخذ المستنصر من الملك الصليحى ، أحمد المكرم ، (٤٥٩ــــ٤٨٠ ﻫ) ومن زوجته الملكة السيدة أروى الصليحية نوابا له فى بلاد الهند وعمان ، فأضحى اختيار الدعاة وتعيينهم فى هذين القطرين (عمان والهند) مقصوراً على الصليحيين . ومن ثم احتفظ الفاطميون بنفوذهم فيهما قويا ، وأصبحت زعامة اليمن على هذين «البحرين» سياسة تقليدية ، فدان العمانيون الإسماعيلية ، وإخوانهم إسماعيلية الهند ، لليمن ثم لمصر بالطاعة . وهكذا كان نفوذ الفاطميين

قويا فى اليمن وملحقاتها ، فى الوقت الذى ظهر فيه الحسن الصباح فى أواخر القرن الخامس الهجرى .

أما فى بلاد فارس وخراسان ، فقد أثمرت الدعوة الإسماعيلية فيهما خير الثمار ، وأنجبت أفذاذ الدعاة العلماء ، الذين ساهموا إلى حد كبير فى تلك النهضة العامة ، التى زخر بها القرنان الرابع والخامس الهجريان ، فكان من دعاة الإسماعيلية جماعة من كبار الفلاسفة . ويكفى أن نعلم بأن النسفى والسجستانى (٣٣١) الإسماعيليين، وغيرهما من الدعاة ، كانوا من كبار الفلاسفة ، وممن حملوا مشعل النقد فى هذه البلاد . وكانت لهم مناظرات قيمة مع فلاسفة عصرهم . ويكفى أن نعلم أيضاً أن هذه المدرسة الإسماعيلية الفكرية ، كانت تساهم مع المدارس السنية فى الرد على أهل الزيغ والإلحاد . وقد أولى هؤلاء الدعاة الإسماعيلية فى تلك المدرسة ، موضوع النبوة والإمامة عنايتهم منذ مستهل القرن الرابع[١] .

ويكفى الدعوة الإسماعيلية بفارس فخراً ، أنها أنجبت نابغة الدعاة أحمد حميد الدين الكرمانى (٤١١ هـ) ، صاحب المؤلفات الفلسفية العميقة ، فقد كان له فى موضوع فلسفة النبوة والإمامة صولات وجولات ، فرد على الفلاسفة السنيين والدعاة الدرزية الغلاة [٢] . ولا غرو « فهو الملقب بحجة العراقين ، كبير الدعاة الإسماعيلية بجزيرة العراق ، فى عهد

(١) انظر كتابنا « الفاطميون وزعامة العالم الإسماعيلى »

(٢) Hamdani : A Compendiuem of the Ismaili Authors (Isl. Cul. 1937) p. 214.

الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وصاحب التأليفات العديده فى الإشادة بالمذهب الإسماعيلى ، وإثبات إمامة الحاكم ، والرد على مخالفى المذهب»[١].

وقد بذل الكرمانى جهوداً كبرى فى سبيل الوقوف فى وجه دعاة الإسماعيلية الغلاة ، كالدرزية . ولم يشأ أن يعترف لهم بألوهية الحاكم ، فكان على رأس جماعة الإسماعيلية المعتدلين ، الذين رغبوا فى الإبقاء على الدولة ، ومجاراة عقائد الرعية السنية [٢] . ومن أهم مؤلفاته فى هذا الموضوع ، كتاب « مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله ، أمير المؤمنين » ، وكتاب « المصابيح فى إثبات الإمامة » ، وغرضه من كتابته أن يثبت اتفاق مبادىء المذهب الإسماعيلى مع مبادىء السنة [٣] .

ويظهر أن الدعوة الفاطمية فى مصر قد عراها شىء من الضعف ، فاعتمد الخليفة الحاكم فى النهوض بها ، على جهود دعاته الفرس ، وبخاصة داعيه النشيط أحمد حميد الدين الكرمانى ، الذى استعان به لتنظيم الدعوة فى مصر . ولا يبعد أن تكون دار الحكمة بالقاهرة من صنع يديه هو ، الأمر الذى يدل على نهوض الدعوة ورقيها فى فارس ، حتى أصبح الخلفاء الفاطميون ، يعتمدون على جهود دعاتهم الفرس ، فى النهوض بالدعوة فى مصر نفسها . يقول الداعى إدريس[٤] : « ثم إن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله

---

(١) رسائل فلسفية لأبى بكر الرازى (جمع ونشر الأستاذ بول كراوس) : ص ٧

(٢) انظر كتابنا « المشكلات الكبرى فى تاريخ الفاطميين » .

(٣) Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J. R. A. S. 1933), p. 372.

(٤) رسائل فلسفية للرازى (جمع ونشر الأستاذ بول كراوس) : ص ٨ — ٩ .

ـ سلام الله عليه ـ بعد أن أعرض عن أهل دعوته ، وأغلق عنهم أبواب رحمته ، جزاء بما كسبت أيديهم ، وعملا بمقتضى الحكمة فيهم ، ليمتحنهم بذلك ، فيتميز المؤمنون بالإخلاص ، ويبقى المنـــافقون فى الحيرة والانتكاص ، نظر إليهم نظرة أنعشتهم بها من الخمول ، وأفاض عليهم من فضله وكرمه المأمول ، وفتح عليهم أبواب علومه وحكمته ، وأسجل لهم سجال رحمته ، ونصب ختكين (١) الضيف فى الدعوة ، لهداية أولى الشك والارتياب ، إفادة من هداه الله بقدر الاستحقاق والاستيجاب ، ولقبه بالصادق والداعى ، حميد الدين أحمد بن عبد الله ، وهو أساس الدعوة التى عليه عمادها ، وبه علا ذكرها وشأنها ، واستقام منارها ، وبه استكانت المشكلات ، وانفرجت المعضلات » .

ومن الغريب أن جهود الكرمانى فى مصر لم تكلل بالنجاح ، فلم يتم له التغلب على دعاة الدرزية ، الذين علا مركزهم فى مصر والشام ، وعاونهم الحاكم معاونة فعالة ، ونال أنصارهم ممن يؤلهون الحاكم شيئا غير قليل من النجاح . ولا يهمنا هنا أن نتتبع حركات هؤلاء الدرزية ، وإنما يهمنا أن نقول : إن هؤلاء الدعاة جميعاً كانوا من الفرس ، وإن حركة المدرسة الدرزية ، والمدرسة الحميدية الكرمانية ، حركات خارجية وفدت على مصر ، وإن بلاد الفرس كانت مصدراً خصباً لهذه الحركات الإصلاحية ، وتلك الحركات الهدامة .

NABIL - BADR

(١) وكان قد تولى الادارة فى دمشق حينا من الزمن .

على أن مدرسة الكرمانى أنجبت مدرسة أخرى ، كان بطلها الأول ، الداعى الفارسى ، المؤيد فى الدين ، هبة الله الشيرازى (٤٧٠ هـ) . وكانت بلاد فارس الجنوبية الغربية ، منطقة النفوذ الحيوى لتلك المدرسة ، حتى كان الإسماعيلية هناك يكونون مجتمعا إسماعيليا خالصا ، فكانوا يرجعون فى أمورهم إلى داعيهم الأكبر ، أو بعبارة أخرى «كانوا يتخذون المؤيد أبا لهم وأخا وصاحبا ، واتخذه الكل سرا ومفزعا فى كل شىء »[1] .

وكان من برامج الإسماعيلية هناك ، من قديم ، التأثير فى البويهيين ، حتى كان المؤيد نفسه يقول : « إن هذا الأمر الذى أتولاه[2] ، ما أنا أبدعته ، ولا فى أيامى أحدثته ، فإنه قديم نقضت عليه السنون ، واندرج فى معرفته ومشاهدته الملوك . ولو علم أنه يوقع ملكا ، أو يحدث فسادا ، لما نامت عيون فحول بنى بويه عن إحالته وتغييره ، وقصر باعه وقص أظافره ، ولما كان أكثرهم يؤثره دينا لنفسه »[3].

والحق أن المدرسة الإسماعيلية المؤيدية ، أخذت على عاتقها فى القرن الخامس الهجرى ، جذب ملوك بنى بويه وأمرائهم ، وبخاصة الملك أبا كاليجار ، إلى الفاطميين ، فإن هذا السلطان ، وقد أدرك تقرب العباسيين من السلاجقة ، عزم على تغيير سياسة البويهيين التقليدية ، التى كانت تحتم عليهم النفور من الفاطميين ، خوفا على نفوذهم . ومن ثم اتخذ من الداعى

---

(١) المؤيد : السيرة المؤيدية (مخطوط) : ورقة ١٣ .

(١) أى الدعوة الاسماعيلية .

(٣) المؤيد : السيرة المؤيدية (مخطوط) ، ورقة ١٥ .

الإسماعيلي المؤيد الشيرازى ، واسطة بينه وبين الخليفة الفاطمى المستنصر . يدل على ذلك ماورد فى رسالته إلى المؤيد ، وهو فى مصر سنة ٤٤٠ ، حيث يقول له : « ولا شك أنك تتذكر ما كنت تبذله عند كونك بحضرتنا ، من التوصل إلى تمهيد المودة بيننا ، وبين تلك الجهة المحروسة ، أى الخلافة الفاطمية فى مصر ، والتطرق إلى أن يأتينا منها فى الفينة بعد الفينة الكتب والرسائل ، التى يتحكم بها الوداد ، وبمكانها يبدو خلوص الاعتقاد (١) » .

ولو لم يكن لتلك المدرسة المؤيدية من عمل سوى جذب البويهيين إلى الفاطميين ، لعد هذا فخرا دونه أى فخر ; ولا غرو فقد انزعج العباسيون من جراء نجاح المؤيد ومدرسته ، فحاولوا القبض عليه ، وهددوا البويهيين بالسلاجقة ، وكانوا يقولون للبويهيين : « إنه إن كانت دعوة تعزى إليهم (٢) فى الأزمان المتقدمة ، فلقد كانت فى الخفاء والستر ، مثل حبيبات الصدور ، ومكنونات القلوب ، وإن أحدا ماجسر على مثل ما جسر عليه هذا الرجل (٣) الفاعل الصانع ، من الوقوف فى بعض مواقف إظهاره وإشهاره ، والتجرد لرفع معالم ذكرهم ، بالصلاة والخطبة ، وإزالة أسامينا بالكلية ، وأنه إذا سومح فى بابه ، وأهمل الاستيثاق منه ، وتسليمه فى يد صاحبنا ، أى سفير العباسيين عند البويهيين ، فقد أخرجتمونا من عهدة

---

(١) المؤيد : السيرة المؤيدية (مخطوط) : ورقة ١١٥ .

(٢) أى إلى الإسماعيلية : أتباع الفاطميين

(٣) أى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، داعى الفاطميين فى فارس .

الأيمان والعهود بيننا وبينكم ، وأحوجتمونا إلى استنصار من ينصرنا عليكم ، يعني التركمانية(١) » . وهكذا لم يخرج المؤيد من شيراز إلى مصر ، حتى كان قد ربط بين البويهيين والفاطميين .

ومما تجدر ملاحظته ، أن مصر ظلت كعبة الدعاة يحجون إليها ، لينعموا بمشاهدة إمامهم بالقاهرة ، فكما أن الكرماني قصد القاهرة في عهد الحاكم ، وكما أن القاهرة كانت مستقرا لدعاة الدرزية الغلاة ، كذلك فتحت القاهرة ومدارسها أبوابها المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي . ونعتقد أنه ماقصد إلى مصر إلا ليربط أواصر المودة بين الشرق والغرب ، أو بالأحرى بين الفاطميين والبويهيين من جهة ، وينظم شئون الدعوة في تلك البلاد من جهة أخرى ، كما نظمها الكرماني من قبل .

على أن المؤيد الذي كان يمثل الناحية الروحية من الدعوة الإسماعيلية ، أفاد الدولة الفاطمية فائدة تذكر ، فقد استطاع بلباقته أن يوحد بين بلاد العراق ومصر حيناً من الزمن ، وأن يثير أمراء العراق على طغرلبك السلجوقي والعباسيين ، فينضوي هؤلاء الأمراء جميعاً تحت راية أبي الحارث البساسيري ، باذلين جهودهم رخيصة في سبيل القضاء على الدولة العباسية ، وإحلال الدولة الفاطمية محلها . وقد استطاع المؤيد ـ سفير مصر عند هؤلاء الثوار ـ أن يكون جبهة قوية أوقعت الهزيمة بالسلاجقة في سنجار ـ على ما رأينا ـ تلك الموقعة التي قيل فيها : وهي الوقعة المشهورة التي ظفر فيها البساسيري ، وقال فيها الشاعر :

---

(١) أي السلاجقة . المؤيد : السيرة المؤيدية : ورقة ٩٥ ــ ٩٦ .

عجبت لمدعى الآفاق ملكا   وغايته ببغداد الركود
ومن مستخلف بالهون يرضى   يزاد عن الحياض ولا يزود
وأعجب منهما سيف بمصر   تقام به بسنجار الحدود(١)

واستطاع أيضا أن يثير بعض التركمانية السلاجقة على طغرلبك، حتى لقد ثار عليه أخوه، وكاد يوقع به الهزيمة، وبفضل جهود هذا الداعى الإسماعيلى، استطاع البساسيرى ومن معه من العرب، الظفر بالخليفة العباسى، فأسقطوه من فوق عرشه، وخطبوا المستنصر الفاطمى فى العراق عاما كاملا (٤٥٠ — ٤٥١ هـ). ولو ظلت الحالة المالية عند الفاطميين قوية سليمة، ووالى الفاطميون إرسال المدد إلى البساسيرى ومن معه، ولو أطاع الفاطميون الداعى المؤيد الشيرازى، وأمدوا إبراهيم بن ينال، أخا طغرلبك، بالمال والرجال، لو حدث هذا كله، لتغير وجه التاريخ فى العالم الإسلامى عامة، وفى بلاد العراق وفارس خاصة.

وبهذا نرى أن الدعوة الإسماعيلية ورجالها فى فارس، كانوا من أكبر أعوان الدولة الفاطمية، فها هو المؤيد الشيرازى وتلامذة مدرسته، يعملون على جذب البويهيين إلى الدولة الفاطمية، فلما أخفقوا وهالهم زوال البويهيين على يد طغرلبك السلجوقى، بذل الداعى المؤيد ما فوق طاقته، فى سبيل قلب الدولة العباسية، وإحلال الدولة الفاطمية محلها، وعلى

---

(١) ابن منجب الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٤٤ . ومن هذه الأبيات نرى ضعف الخلافة العباسية، فقد رضى خلفاؤها بالذلة والاستكانة، واستلب غيرهم منهم نفوذهم، وعلى عكس ذلك يفخر الشاعر بالخليفة الفاطمى ونشاطه، لأن المستنصر أخذ يدير المعركة الحربية ضد العباسيين فى العراق، وهو باق بمصر.

الرغم من أنه لم يحقق غرضه كاملا ، فإنه استطاع بلباقته ودهائه أن يصد السلطان طغرلبك عن بلاد الشام ومصر، ولا غرو فقد « نفذت كتبه إلى خراسان وبلاد الترك ، يستنفر الناس خفافا وثقالا ، حتى حشد من الحشود الجم الغفير ، والعدد الكثير ، وألقى بين عينيه عزمه ، وجعل مقصده الشام ومصر همه » (١).

ولا نستبعد أن يكون لتلك الرسالة الحكيمة التى بعث بها المؤيد إلى الكندرى وزير طغرلبك ، أثرها فى امتناع هذا السلطان عن غزو مصر، فقد حاول المؤيد أن يستميل طغرلبك إلى الفاطميين، ويقرب شقة الخلاف بين السلاجقة وبينهم ، فأخذ يشيد بالفاطميين ويضع بالعباسيين ، وكان يأمل من وراء ذلك أن يصد هؤلاء السنيين عن الشام ومصر من ناحية ، ويجعلهم يخضعون للمستنصر الفاطمى من ناحية أخرى ، غير أنه إن كان قد أخفق فى جذب طغرلبك إلى سادته الفاطميين ، فقد نجح فى صده عن الشام ومصر .

على أن جهود هذا الداعى الفارسى ، لم تقف عند ذلك الحد ، فقد قدر الفاطميون له صنائعه الكبرى فى كل من فارس والعراق — وأدرك الخليفة المستنصر ، بعد لأى ، أنه أليق الناس لرياسة الدعوة فى مصر ، وبخاصة لما عرف عنه من إخلاص للدعوة والمستنصر نفسه . يدل على تقدير المؤيد للمستنصر ، وتقدير هذا الخليفة له ، تلك الأبيات التى بعث بها للمستنصر ، ورد هذا عليه . يقول المؤيد :

أقسم لو أنك توجتنى بتاج كسرى ملك المشرق .

(١) المؤيد : السيرة المؤيدية ، ورقة ٢٦٧ .

ونلتقى كل أمور الورى ··· من قد مضى منهم ومن قد بقى
وقلت : لا نلتق ساعـــة ··· أجبت : يامولاى أن نلتقى
لأن إبعادك لى ساعة ··· شيب فودى[1] مع المفرق[2]

وقد رد عليه المستنصر بقوله :

يا حجة مشهورة فى الورى ··· وطود علم أعجز المرتقى
شيعتنا قد عدموا رشدهم ··· فى الغرب ياصاح وفى المشرق
فانشر لهم ما شئت من علمنا ··· وكن لهم كالوالد المشفق
إن كنت فى دعوتنا آخرا ··· فقد تجاوزت مدى السبَّق
مثلك لايوجد فيمن مضى ··· من سائر الناس ولا من بقى[3]

كما أوقف المؤيد نفسه وقلمه على الدعوة . فأصبح مصدرا لعلوم المذهب لا ينضب معينه ، ولذلك عمل من جانبه على بث مبادىء المذهب الفاطمى ، ونشرها فى كافة « جزر » الدعوة الإسماعيلية ، وبخاصة فى بلاد اليمن ، فأبقى بجانبه لامَك بن مالك . داعى هذه الجزيرة الإسماعيلية ، وما زال معه يعملان على نقل ما أنتجته قرائح علماء الإسماعيلية الأوائل « فانتقل أدب الدعوة الإسماعيلية إلى اليمن عن طريقهما » . هذا وقد اتخذه المستنصر أداة اتصال بينه وبين المكرم ، ملك الصليحيين ، وغمره بالألقاب الفخمة ، التي تدل على مدى تقدير الفاطميين لهذا الداعى ، انظر المستنصر

(١) الفود : جانب الرأس مما يلى الأذنين . والمفرق وسط الرأس .
(٢) الدكتور محمد كامل حسين : رسالته للدكتوراه ، ورقة ٥٤ .
(٣) سجلات المستنصر ص ٣٠٨ .

يصفه المكرم الصليحى بقوله : « إنه الشيخ الأجل، داعى الدعاة، المؤيد فى الدين، عصمة المؤمنين، صفى أمير المؤمنين ووليه، أبو نصر هبة الله ابن موسى، سلمه الله، وأحسن توفيقه وتسديده »[١].

وقد شعر المؤيد بسمو مركزه فى عالم الدعوة الإسماعيلية وبخطورة الدور الذى قام ويقوم به فيها، فشبه نفسه بسلمان الفارسى، الذى يدعى الإسماعيليه أنه كان اليد اليمنى لعلى بن أبى طالب . فجعل يقول :

لو كنت عاصرت النبى محمدا ما كنت أقصر عن مدى سلمانه
ولقال : أنت من أهل بيتى معلنا قولا يكشف عن وضوح بيانه[٢]

وبعد، فإن المؤيد الشيرازى يعتبر صورة صادقة لأنصار الدعوة الإسماعيلية الخلص من الفرس خاصة، كما أن حركته، والحالة هذه، استمرار لتلك الحركات القومية، التى قام بها أستاذه الكرمانى، وتلك التى قام بها أنصار الحاكم ـ الدرزية ـ وكانوا جميعا ينظرون فى حركاتهم هذه إلى أئمتهم فى مصر، نظرة إجلال وإكبار، ويتخذون القاهرة وقصور الخلفاء كعبة يحجون إليها، وكل هذا يدل على الانسجام التام بين الفاطميين فى مصر وأتباعهم الإسماعيلية فى فارس، ويدل فى الوقت نفسه على أن النهضة الثقافية الإسماعيلية فى بلاد فارس، كانت مزدهرة فى القرنين الرابع

---

(١) سجلات المستنصر ص ٢٢٤

(٢) زهر المعانى للداعى إدريس (ترجمة ونشر الدكتور حسين الهمدانى) فى المجلة الأسيوية الملكية، سنة ١٩٣٢ م، ص ١٢٩ — ١٣٠.

والخامس ، فكان لهذا أثره فى تلك الحركة التى سيقوم بها الحسن الصباح ، فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، وأوائل القرن السادس .

وليس من شك فى أن تأثير المدرسة الحميدية [١] ، والمدرسة المؤيدية [٢] ، كان عظيما فى بلاد فارس الغربية ، مما جعل نشر الحسن الصباح الدعوة فى إقليم قوهستان - غربى فارس - سهلا ميسوراً . غير أن أهم المدارس الإسماعيلية التى كان لها أعظم الأثر فى حياته ، هى المدرسة الناصرية [٣] ، فإن مؤسسها ناصرى خسرو (٤٨٠ هـ) ، زار مصر فى سنة ٤٣٩ هـ ، وحج إلى مكة أربع مرات ، وخرج من مصر فى سنة ٤٤٣ هـ ، ووصل إلى خراسان فى سنة ٤٤٤ هـ . وعلى الرغم من تشكك كثير من المؤرخين فى الدوافع التى دفعت ناصرى خسرو إلى زيارة مصر ، وتشككهم كذلك فى اعتناقه المذهب الإسماعيلى قبل اتجاهه نحو الغرب ، على الرغم من هذا كله . فلسنا نشك فى أن ناصرى خسرو كان إسماعيلى المذهب قبل مجيئه إلى مصر ، وأن الدافع الذى دفعه إلى زيارة تلك البلاد ، هو الرغبة فى الاستزادة من العلم والمعرفة ، وإتمام الإلمام بأصول المذهب الإسماعيلى ، عن طريق مدارس الدعوة بالقاهرة ، وعن طريق أستاذه وإمامه المستنصر الفاطمى .

ونريد أن نقول : إنه لا يبعد أن تكون هيئات الدعوة فى « الجزر » الإسماعيلية المختلفة قد عملت على اكتشاف نوابغ الدعاة ومخلصيهم ، وأخذت

---

(١) نسبة إلى حميد الدين الكرمانى (٤١١ هـ) .

(٢) نسبة إلى المؤيد فى الدين ، هبة الله الشيرازى (٤٧٠ هـ) .

(٣) نسبة إلى ناصرى خسرو ، « حجة » المستنصر فى خراسان (٤٨٠ هـ).

تنتقى أكثرهم لياقة لأن يلى الرياسة، وتبعث بهم إلى مصر لتلقى دروس الدعوة فى الناحيتين العملية والنظرية . وسنرى الحسن الصباح يفد إلى مصر بعد أن رشحته رياسة الدعوة فى خراسان لهذا الأمر .

والذى لا يشك فيه أحد أن أبا معين الدين ، ناصرى خسرو، خرج من مصر فى سنة ٤٤٣ هـ . وهو يعتنق المذهب الإسماعيلى. ويقوى عقيدتنا فى أن ناصرى خسرو، كان إسماعيليا مشهوراً قبل رحلته إلى مصر، أنه لم يعمد وهو فى طريقه إليها إلى الاختلاط بالحاج السنيين ، بل كان يتلافى الاقتراب منهم ، ويسلك طرقا أخرى غير تلك التى كانوا يسلكونها ، ولا بد أنه كان يفعل ذلك حتى لا يفتضح أمره . وثمة شىء آخر، هو أنه اتجه نحو مصر والشام ، وللحجاج فارس وخراسان طرق أخرى غير طريق سورية ومصر، مما يدل على أن ناصرى خسرو كان يقصد مصر وحدها، للاتصال بإسماعيليتها، وبخليفتها المستنصر نفسه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، استقبل الخليفة المستنصر ناصرى خسرو فى القاهرة استقبالا رائعا ، فبم نفسر هذا ؟ أليس فى ذلك العمل الدليل القاطع على اعتناق ناصرى خسرو المذهب الإسماعيلى قبل وفادته إلى مصر ؟

وأما الأثر الذى تركته زيارة هذا الزعيم مصر، فيتضح من أنه بقى فيها مدة طويلة ، (٤٣٩—٤٤٣ هـ) فبم نفسر بقاءه هذه المدة ؟ لا يخالجنا شك فى أن ناصرى خسرو إنما بقى فى مصر هذه المدة ، لارتشاف مبادىء المذهب الإسماعيلى من مناهله الحقيقية ، والتعمق فى أصول هذا المذهب ، وإذن أفاد ناصرى خسرو من بقائه فى مصر فائدة كبرى ، فتضلع فى عقائد

المذهب الإسماعيلي .

وأهم أثر لرحلته أن المستنصر عينه «حجة» على خراسان و«بادخشان» ، في أواسط آسيا ، ووظيفة «الحجة»[1] من أكبر الوظائف بين رجالات الدعوة الإسماعيلية ، حيث يتمتع صاحبها بالنفوذ المطلق في جزيرته أو بحره — ولكنه في الوقت نفسه يتعرض لسخط السنيين . وهكذا عاد ناصري خسرو «إلى خراسان ، وأوقف حياته على الجدل المذهبي ، وبث الدعوة الإسماعيلية للمستنصر ، وهو يعلم أن الوسط الذي يبث الدعاية فيه سني متعصب ... وهو يعلم فوق هذا أن الدعاية للفاطميين ، وعلى رأسهم المستنصر ، في خراسان ، مما يغيظ الخليفة العباسي في بغداد ؛ فإنه ينفس على الفاطميين ما هم فيه من سلطان ، وماهم عليه من قوة ، وإنه ليغضب على كل من يعمل لهم في بلاده ، فإذا غضب الخليفة على شخص لا يملك المقاومة ، فصيره إلى الهلاك ، ويلقى في حياته أشد العذاب ، وأنه ليعلم أن كيد الحاكمين عظيم . ما كان هذا ليرهب ناصرا أو يصرفه عن عقيدته[2]» .

وبهذا نرى أن ناصري خسرو كان بعد عودته من مصر يدعو إلى الخليفة المستنصر في طبرستان ، تلك البلاد التي كانت ملاذ النزارية بعد ذلك . وتبعه جماعة من الطبرستانيين . وقد أثار ذلك عليه عاصفة من حقد السنيين ، فاضطر إلى الفرار إلى نيسابور ، ولكنه لما وجد استحالة بقائه فيها ، قرر الفرار إلى بلاد ما وراء النهر ، في أعالي جيحون.

(١) نيابة الإمامة .

(٢) يحيى الخشاب (دكتور) : رحلة ناصري خسرو ، (رسالة) ورقة ٣ .

وقد بقى لليوم هناك جماعة من الإسماعيلية ، يدينون له بالتقديس ، ويسمون الناصرية . يقول براون [١] : « إنه حين حاول أعداؤه القضاء عليه فى نيسابور ، فر إلى مرتفعات سمجنان Simignan فى أعالى جيحون ، وبقى هناك عشرين سنة ، يأكل العشب ، ويشرب الماء القراح » .

وتذكر بعض المصادر أن الذى عينه على بادخشان هو المستنصر على أن هذا لا يمنع أن يكون المستنصر قد عينه حجة على خراسان وبادخشان معا ، لقربهما من بعضهما البعض ، فلما آستحال عليه البقاء فى خراسان ، فر إلى بادخشان . يقول ناصرى خسرو عن نفسه : بعد أن عوملت خير معاملة بمصر ، عينت داعيا لدعاة خراسان ، وبعد ذلك بقيت مدة فى قصر مولانا المستنصر ، وقد دعا الإمام ذات مرة حججه ودعاته ... وحين نظر مولانا إلى ناحيتى ، امتلأ قلبى نوراً ، وأغمى على ، وقال لى برفق : يا سيد ناصر ! قد عينتك «حجة» لبادخشان . والله يساعدك . فقبلت الأرض فى خشوع ، وأخذت عنه التعاليم ، ثم قصدت بادخشان عن طريق بلخ [٢] .

ويهمنا هنا أن نقول : إن ناصرى خسرو قد مهد السبيل للنزارية ، فلما عهد المستنصر للحسن الصباح برياسة الدعوة فى بلاد خراسان وفارس ، وجد هذا الزعيم الجديد الطريق ممهدة له . ولئن وجدت الدعوة طريقها إلى قلوب أهالى تلك البلاد ، منذ أيام عبيد الله المهدى ، الذى استجاب له خلق كثيرون ، ومنهم بعض أمراء السامانيين ، فإننا نرى هذه

---

(١) Nasiri Khosrow (J. R. A. S. 1905), p. 329

(٢) Schefer : Hist. de l, Asie Centrale, pp. 255 — 6

الدعوة نفسها ، وقد نشطت نشاطا كبيراً فى تلك البلاد فى عهد المستنصر . حقيقة تعرض الإسماعيلية هناك لكثير من الاضطهادات على يد السنيين ، وبخاصة فى عهد السلطان محمود الغزنوى (٣٩٨ — ٤٢٤ هـ) ، غير أن الدعوة لم تلبث أن استعادت نشاطها ، وأعلن الإسماعيليـة هناك الثورة الصريحة على الخلافة العباسية ، ونادوا بإمامة الخليفة المستنصر الفاطمى ، وبخاصة فى بلاد ماوراء النهر ، منتهزين بعد تلك البلاد عن بغداد من جهة ، وانتشار المذاهب الإلحادية فيها من جهة أخرى .

والحق أن الدعاة الإسماعيلية قبل الحسن الصباح ، وجدوا مبتغاهم فى تلك البلاد الشرقية ، وكادوا ينجحون فى إثارة أهلها على العباسيين ، لولا نشاط واليها العباسى . يقول العينى (١) : «إن صاحب ما وراء النهر السنى ، أوقع بجمع كثير من الإسماعيلية ، وذلك أن نفرا منهم قصدوا ماوراء النهر ، ودعوا إلى طاعة المستنصر العلوى ، صاحب مصر ، وتبعهم جمع كثير ، وأظهروا مذاهب أنكرها أهل تلك البلاد ... فأوقع بهم ، وسلمت تلك البلاد منهم » . وإذن كانت هذه البلاد وغيرها من بلاد المشرق ، على قدم الاستعداد للثورة فى سبيل المستنصر ، أو قل فى سبيل نشر الدعوة الإسماعيلية ، الأمر الذى ساعد النزارية على النجاح فيما بعد ، وبعبارة أخرى ، كان هؤلاء مثالا احتذاه الحسن الصباح وخلفاؤه ، فى الثورة على العباسيين والسلاجقة .

من هذه الكلمة السريعة نرى أن بلاد فارس وخراسان كانت تعج بأنصار الدعوة الإسماعيلية ، وأن الظروف جميعها كانت مهيئة لتقبل

---

(١) العينى : عقد الجمان (مخطوط) جـ ٢٠ ورقة ٤٠ .

مبادىء الحسن الصباح ، ونرى أيضا أن الفاطميين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير فى تلك البلاد ، مما يحدونا إلى الاعتقاد بأن عهد المستنصر الفاطمى كان حافلا بجلائل الأعمال ، فقد بذرت فيه بذور دولة النزارية فى فارس وخراسان ، وقامت الدولة الصليحية فى أقصى الجنوب باليمن ، وامتد نفوذ المستنصر وأبنائه من بعده ، فى اليمن والحجاز والبحرين وعمان والهند بفضل دولة الصليحيين. وكذلك راجت الدعوة فى عهد هذا الخليفة، ليس فقط فى بلاد فارس وخراسان ، بل توغلت فى قلب آسيا، حتى وصلت إلى بادخشان وهضبة التبت نفسها، مما يدل على أن جغرافية الدعوة الإسماعيلية فى عهد هذا الخليفة، كانت أكثر اتساعا من جغرافية الدولة بكثير ، وقد ساعد هذا الانتشار الحسن الصباح على النجاح .

الباب الثانى

الحسن الصباح منذ نشأته
حتى إعلانه الاستقلال عن الفاطميين

تطورت حياة الحسن الصباح تطورات عدة ، تدل كلها على حالة التقلقل الدينى ، الذى كان سائداً فى خراسان وفارس فى القرن الخامس الهجرى ؛ فقد نشأ الحسن فى بيت عريق فى التشيع ، ولكنه تعلم فى مدارس السنيين ، وتفقه فى عقائدهم ، ومع ذلك ظل على عقيدته الاثنا عشرية . ويظهر أن صراعا عنيفا بين الإسماعيلية والاثنا عشرية ، كان يسود فارس وخراسان ، ويظهر كذلك أن الغلبة كانت للعنصر العملى منهما وهم الاسماعيلية ، ومن ثم كان انضواء الحسن الصباح الاثنا عشرى تحت لواء الاسماعيلية العمليين ، ثم حمل على كتفيه نشر دعوتهم فى بلاد المشرق ، حيث عين داعيا إسماعيليا .

ولم تكتف رياسة الدعوة الإسماعيلية المحلية فى فارس وخراسان بذلك، بل أعدته للذهاب إلى مصر. وقد نال هناك إعجاب الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ ﻫ) ، فعينه «حجة» على خراسان ، فحل بتعيينه هذا محل ناصرى خسرو ، غير أنه أخذ يدعو للمستنصر بعد عودته ، فلما مات هذا الخليفة لم يشأ أن يعترف لابنه المستعلى (٤٨٧—٤٩٤ ﻫ) بالإمامة أو الخلافة ، ونادى بإمامة نزار بن المستنصر (٤٨٨ ﻫ) ،

وأثارها حربا عاصفة على الفاطميين فى مصر والشام وفارس وخراسان، واستقل بدعوته الجديدة فى كثير من «بحار» الدعوة القديمة.

١ — نشأة الحسن الصباح

ولد الحسن الصباح فى مدينة الرى، سنة ٤٤٤ ﻫ (١٠٥٢ م)، على ما يقوله بعضٌ، أو فى سنة ٤٤٥ ﻫ، على ما يقوله بعض آخر. وهو الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن الحسن بن محمد الصباح، ولا اشك فى أنه ولد فى بيت عريق فى التشيع، ولكن الذى نشك فيه ما يدعيه بعضٌ من أنه ينتمى إلى سلالة ملوك التبابعة. ومهما يكن من شىء فإن جماعة من العلماء يرون أن آباء الحسن الصباح وفدوا على الرى من بلاد العراق. على أن هناك جماعة آخرين يرون أن آباء الحسن وأجداده كانوا من أهالى تلك البلاد التى ولد فيها الحسن، أى أنهم كانوا رازيين.

وسواء لدينا أكان والد الحسن عراقياً أو رازيا، فقد كان يدين بعقائد الاثنا عشرية، الغلاة منهم خاصة، كما كان يدين بالاعتزال والغلو فى التشيع، وكان التشيع والاعتزال يعتبران فى ذلك الحين وصمة وسبة. وقد أخذت الشكوك تحوم حوله، لأن والى بلاد الرى السلجوقى، كان سنيا مغرقا فى سنيته، كما كان شديدا على الملحدين والمبتدعين؛ ومن ثم ألجأته صرامة هذا الوالى، إلى الانكماش والانزواء فى صومعة يتظاهر فيها بالتعبد. وعلى الرغم من هذا كله، لم تنطل تلك الحيل على أهالى الرى، وظلوا على عقيدتهم فى إلحاد على بن محمد، والد الحسن الصباح؛ فكانوا ينظرون إليه على أنه زنديق مرة، وكافر مرة أخرى. وهكذا،

لما ولد الحسن ترعرع فى بيت شيعى ، تحوم حوله الشبهات ، فكان لهذا أثره فى مجرى حياة تلك الشخصية الفذة .

نشأ الحسن الصباح - إذن - اثنا عشريا كأبيه وأهل بيته ، كما نشأ فى جو عاصف ملأه السنيون بالبغض والشك ، ولم يستطع هذا الصبى هو وأبوه أن يؤديا شعائر مذهبهما فى صراحة ويسر ، بل كان لابد لهما من اللجوء إلى التقية التى برع الشيعيون جميعا فيها ، فأرسل الوالد ابنه ، الحسن ، إلى مدينة نيسابور (١) ليأخذ العلم على الموفق النيسابورى ، احد نبغاء العلماء السنيين فى ذلك الحين ، وبخاصة فى التفسير والحديث . ومعنى هـذا أن تعلم الحسن أصول المذاهب السنية لم يكن مقصودا فى ذاته ، وإنمـا كان ذرا للرماد فى العيون . ويدل هذا على مدى ما كان يلاقيه الشيعيون المخلصون لمذهبهم ، من العنت على يد السنيين .

ومن الغريب أنه ورد فى كتاب « ساراجوزاشت سيدنا » الذى تناول سيرة الحسن الصباح ، أن نظام الملك ، وزير السلطان ملكشاه وأبيه ألب أرسلان من قبل ، وعمر الخيام ، (٢) الشاعر الفارسى المشهور ، كانا من زملاء الحسن الصباح فى الدراسة ، وأنهم تناولوا العلم جميعا فى وقت واحد ، على العالم السنى الموفق النيسابورى . وقد أوضح الحسن فى هذا الكتيب ميله إلى العلم وحب الاطلاع ، كما أوضح لنا أنه كان شيعيا اثنا عشريا ، وذكر أنه كان تلميذا للنيسابورى ، فى وقت واحد ، مع

(١) نيسابور : أنظر المصور ، وهى من أشهر مدن خراسان .

(٢) عمر الخيام : من أشهر شعراء الفرس فى القرن الخامس الهجرى .

عمر الخيام ، ونظام الملك ، الذى وزر لطغرلبك ولابنه ألب أرسلان ، ثم للسلطان ملكشاه (+ ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) .

ويبدو أن تلك القصة مفتعلة من أساسها ، وضعت لإظهار نبوغ الحسن ونزعته إلى الزعامة ، فهى تقول : إن الحسن أخذ العهد على رفيقيه بأن يساعد كل من وفق منهم زميليه ، والذى دفع الحسن إلى ذلك ، ما أدركه من نجاح تلامذة الموفق النيسابورى . وقد اهتم نظام الملك بالمسائل السياسية ، ووزر لسلاطين السلاجقة الثلاثة ، واهتم الخيام بالعلم والشعر .

وقد قصد الخيام نظام الملك ، وهو وزير فى عهد ألب أرسلان ، فلما عينه على ولاية نيسابور، رفض ذلك ، وقبل منه معاشا سنويا ضخما طول حياته. أما الحسن الصباح ، فمن قائل : إنه ذهب إلى نظام الملك فى عهد السلطان ألب أرسلان(١) ، ومن قائل : إنه لم يذهب إليه إلا فى عهد السلطان ملكشاه ، لأنه يستطيع أن ينال كل ما يرغب فيه من ملك شاب ، مثل السلطان ملكشاه . على حين لا يستطيع تحقيق هذا من ملك مجرب ، مثل ألب أرسلان . والمهم أن الحسن الصباح حين ذهب إلى نظام الملك ، ذكره بالعَهد الذى قطعه على نفسه ، وقال له : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها (٢) » . فلما عرض عليه نظام الملك أن يوليه على إحدى الولايات الإسلامية ، أبى إلا الدخول

---

(١) المستوفى : تاريخ جوزيدة (الترجمة) ، ج ١ ص ١٨٧

(٢) سورة النحل ، آية ٩١ .

فى خدمة السلطان ، وكان غرضه من ذلك ، قلب نظام الملك . والاستبداد بالوزارة دونه (١) .

ولا نستطيع أن نوافق على صحة هذه القصة ، لاختلاف السن بين الحسن ونظام الملك ، فإن الحسن الصباح ، ولد فى سنة ٤٤٤ هـ أو ٤٤٥ هـ فى الوقت الذى كان فيه نظام الملك قد جاوز الثلاثين بكثير (٢) . والمعروف أن نظام الملك أتم تعليمه فى وقت مبكر . ودخل الحياة السياسية فى وقت مبكر كذلك ، أى فى نفس الوقت الذى ولد الحسن الصباح فيه أو قبله بكثير (٣) .

ولذلك نستطيع أن ننفى من تلك القصة شطرها الأول ، وهو تلمذة الحسن مع نظام الملك والخيام ، ولا ننفى شطرها الثانى . وهو توظف الحسن فى قصر السلطان ملكشاه ، لأنه لا يبعد أن يكون

---

(١) Dozy Essai Sur l'Hist. de l' Islamisme, p. 298.

(٢) Browne ; Lit. Hist. of Persia vol. ii, p. 191

لأنه ولد فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) . ولو فرضنا أن الحسن الصباح ذهب ليتعلم وهو فى الثانية عشرة من عمره ، فانه لا يعقل أن يكون نظام الملك تلميذا وقتئذ ، لأن عمره سيكون ٤٧ سنة تقريبا ، ولا يعقل أن يخضع من كان عمره ٤٧ سنة ، إلى طفل لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره .

(٣) أحمد بن عمر النظامى السمرقندى : كتاب جهار مقاله (ليون سنة ١٩٠٩) ، ص ٢١٧ .

الحسن قد دخل فى خدمة السلطان ملكشاه أو أبيه ، وفعل ما فعل ، كما سنرى (١) .

نستنتج من هذا كله أن الحسن الصباح كان تلميذا مع التلاميذ السنيين ، وموظفا مع الموظفين السنيين كذلك ، غير أنه كان شخصا موهوبا ، لذلك لا نستبعد عليه أن يفكر فى الوزارة نفسها . ويسعى لقلب نظام الملك . ويظهر أن الحسن الصباح اشتغل فى ديوان السلاجقة فى عهد السلطان ألب أرسلان ، ثم فى عهد ابنه السلطان ملكشاه ، وكان غرضه ، كما سبق القول ، أن يصل إلى الوزارة ، ولم يستطع بالطبع أن يحاول تلك المحاولة الجريئة ، فى عهد السلطان المجرب ، ألب أرسلان ، لصغر سنه هو ، ولأنه ، كما يقول فون همر (٢) ، لا يستطيع أن يحقق أمنيته هذه على يد رجل مجرب كألب أرسلان ، وإنما يستطيع تحقيقها كاملة فى عهد ابنه الشاب ، السلطان ملكشاه .

والحق أن نفوذ الحسن الصباح ، فى ديوان السلاجقة كان عظيما حقا ، وبخاصة فى عهد السلطان ملكشاه ، الذى كان يستشيره فى كل شىء ، ويتباحث معه فى جميع الأمور ، كما كان الحسن نفسه يخبره بكل شئون

(١) والغريب حقا أن ترد هذه القصة فى كتاب «ساراجوزشت سيدنا» ، إلا أنه لا يبعد أن تكون مدسوسة على الحسن نفسه : وأن من وضعها خلط بين نظام الملك وبين أنوشروان بن خالد ، وزير السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، الذى ألف كتابا ذكر فيه أنه تعرف فى شبابه ، وتناول العلم مع رجل من الرى ، كان رحالة كاتبا ، ولا يبعد أن يكون هذا الكاتب هو الحسن الصباح ، على ما ذهب العلامة براون إليه ، فى كتابه Lit. Hist.of Persia vol. ii, p.192 ، خصوصا وأن مولد أنوشروان كان فى سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) ، ومن ثم يمكن أن يكون هذا الرجل زميلا للحسن الصباح فى صباه .

(٢) Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 8

الديوان ، وكان بدهائه يلقى كل لوم ، مهما كان صغيرا ، على الوزير نظام الملك . على أن هذه السياسة النفعية الهدامة قادته إلى حتفه بظلفه ، فأثارت عليه حنق الوزير نظام الملك ، الذى أخذ يسعى من جانبه فى إقصاء الحسن الصباح عن ديوان السلاجقة ، حتى طرده منه ، فأزال بطرده ذلك الكابوس المخيف الذى كان يقض عليه مضجعه .

ويعتبر خروج الحسن الصباح من قصر السلطان ملكشاه ، من أكبر الأحداث فى تاريخ هذا الرجل ، بل فى تاريخ الإسماعيلية فى تلك البلاد ، وإذن ما السبب الحقيقى الذى حدا السلطان السلجوقى إلى طرده من ديوانه ؟ تكاد تجمع المصادر على أن طرده يرجع إلى مؤامرة دبرها له نظام الملك ، فإن السلطان ملكشاه ، حين طلب من نظام الملك أن يقدم له تقريرا عن ميزانية دولته ، عجز هذا الوزير عن تقديمه بالسرعة التى كان السلطان يرغب فيها ، وأظهر لمليكه أن هذا التقرير لا يمكن الفراغ منه إلا بعد عامين كاملين ، وهنا يتجلى ذكاء الحسن الصباح ودهاؤه ، فقد تحدى الوزير نظام الملك ، وتعهد للسلطان بانجاز التقرير فى أربعين يوما لاغير ، على أن يجعل السلطان جميع سجلات الدولة وكتّابها تحت يديه .

وقد أتم الحسن التقرير فعلا ورتبه ، فى المدة المعينة ، فبهت نظام الملك لهذا النشاط الفذ ، وخاف على مركزه وهيبته من الضياع ، لذلك أرسل كاتبه إلى كاتب الحسن الصباح ، وتمكن من إرشائه ، وإحضار التقرير . ولما لم تكن الأوراق مرتبة ترتيبا عدديا ، فان نظام الملك ألقى بها فى وجه كاتب الحسن ، مدعيا أنها خرافات ، ولما تناثرت الأوراق أخذ

الكاتب يلتقطها فى غير نظام. فلما حان وقت تقديم السجل، وأدرك الحسن ما حل به، وهو يقدمه إلى السلطان ، تعثر وتلعثم ، فانتهز نظام الملك تلك الفرصة ، وأخذ يرمى الحسن بالإهمال والجهل قائلا : « إذا كان المرء جاهلا ادعى أنه يستطيع إتمام التقرير فى أربعين يوماً ، على حين يعجز العلماء عن إتمامه قبل عامين ، فحنق السلطان على الحسن الصباح ، وكاد يقتله ، لولا حبه له ، وتمكن الحسن أخيرا من الفرار، وتوغل فى الإلحاد . وكان ذلك فى سنة ٤٦٤ هـ = ١٠٧١ م [١] .

على أننا لا نستبعد أن يكون خروج الحسن من قصر السلطان ملكشاه ، إنما كان لإختلافه فى العقيدة مع الوزير السنى نظام الملك ، فهذا الحسن الصباح ، يدين بالمذهب الإسماعيلى ، الذى كان قد اعتنقه قبيل طرده من ديوان السلاجقة ويقال: إنه اعتنق هذا المذهب ولم يتجاوز السابعة عشرة ، وطرد من ديوان السلاجقة ، وعمره تسع عشرة سنة ، وفى ذلك يقول المستوفى[٢] : « إنه لما أصبح الحسن حاجبا للسلطان . اندلع لهيب الحقد والعداء الدينى بينه وبين نظام الملك ، لأن نظام الملك سنى وذلك شيعى» .

وإذا علمنا أن نظام الملك كان يعمل دائما على إقصاء غير السنيين ، من الشيعة وسواهم ، عن وظائف الحكومة ، وكان يفخر دائما بذلك ، إذا علمنا هذا لا نستبعد أن يكون طرد الحسن من ديوان السلاجقة ،

---

(١) المستوفى : تاريخ جوزيدة ، ج ١ ص ٤٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢١٠ .

إنما كان بعد أن تأكد نظام الملك من تضلع هذا الرجل فى عقائد المذهب الإسماعيلى ، ولا يبعد أن يكون نظام الملك قد أوغر قلب السلطان ملكشاه على الحسن بسبب ذلك أيضا . على أن هناك (أمراً) آخر نراه فى تعقب والى خراسان السنى للحسن الصباح ، عقب خروجه من قصر السلطان ، واتهامه إياه بالاتصال بدعاة الفاطميين (١).

والحق أن الحسن الصباح كان داعيا للفاطميين وهو فى قصر السلطان السلجوقى ، وبعبارة أخرى كان الحسن داعيا إسماعيليا ، ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره ، فلما خرج من ديوان السلاجقة ، انكب على الدعوة الإسماعيلية ، فأضحى علما من أعلام دعاتها . ونستطيع إذن أن نقول : إن طرد الحسن الصباح من حكومة السلاجقة ، إنما كان لاشتهاره بالتفانى فى سبيل المذهب الإسماعيلى ، واتصاله بدعاة الفاطميين ، وكذلك لظهوره أمام السلطان السلجوقى بمظهر المهمل، الذى لم يهتم بأوامر رؤسائه ، فكان هذا كله ، من أكبر الدوافع فى طرده من ديوان السلاجقة .

٢ — اعتناق الحسن المذهب الإسماعيلى

نشأ الحسن الصباح اثناعشرى المذهب ، وتضلع فى علوم مذهبه ، وتفنن فى طرق النقاش فيها ، ويظهر أنه وصل إلى أعلى درجات حدود الدعوة الاثناعشرية . ويظهر كذلك أن الصراع كان عنيفا ، فى فارس وخراسان، بين أنصار المذهب الاثناعشرى وأنصار المذهب الإسماعيلى ،

---

(١) ابن خلدون : العبر (مصر سنة ١٢٨٤هـ) ، جـ ٤ ص ٩٤

ولذلك كان الحسن كثير النقاش مع الدعاة الإسماعيلية ، وكان فى قرارة نفسه يعترف لهؤلاء الدعاة بالمقدرة الكلامية والفكرية ، كما كان يعتقد أن الخليفة المستنصر لم يكن غير فيلسوف على رأس جماعة من الفلاسفة ، الأمر الذى يدل على أن الدعـوة الإسماعيلية فى بـلاد فارس ، كانت تميل إلى الناحية العلمية الفلسفية ، وأن الدعاة الإسماعيلية هنالك ، كانوا من العلماء أو الفلاسفة .

وكان تأثير الداعى الإسماعيلى « أمير ضرّاب » فى الحسن الصباح عظيما ، فقد شككه فى عقيدته الاثناعشرية ، وقربه من المذهب الإسماعيلى ، حتى أنه حين مرض الحسن ذات مرة ، ندم على امتناعه عن اعتناق هذا المذهب ، وما أن شفى حتى أخذ فى تعلمه على يد الداعيين الإسماعيليين ، أبى نجم السراج ، الذى أخذ يشرح للحسن عقائد الإسماعيلية شرحا مستفيضا ، حتى امتلأ قلبه بحب المذهب الإسماعيلى ، وعرف أسراره ، ثم الداعى مؤمن Moumin وكان من دعاة عبد الملك بن غطاس [1].

وقد تعمق الحسن الصباح فى معرفة مبادىء المذهب الإسماعيلى ، والإلمام بدقائقه ، حتى طلب من الداعى الإسماعيلى مؤمن أن يأخذ عليه العهد ، ولكن هذا الداعى رفض ذلك ، مدعياً أن مرتبته أقل بكثير من مرتبة تلميذه الحسن ! غير أن الحسن ما زال به ، حتى أخذ عليه العهد .

---

(١) مما يدل على احتدام المناقشة بين الاثناعشرية والاسماعيلية فى شرق المملكة الاسلامية ، ومما يدل أيضا على مقدرة الدعاة الإسماعيلية ، وتفوقهم فى الجدل على أقرانهم الاثنا عشرية ، ولا غرو فقد كان لمدارس القاهرة أثرها فى تخريج جماعات أوقفوا أنفسهم على الجدل والمقارعة والتأثير فى سامعيهم .

وفى سنة ٤٦٤ﻫ (١٠٧١ م) ، وصل رئيس الدعوة الإسماعيلية بالعراق ، عبد الملك بن عطاش ، إلى أصفهان ، فسر بالحسن وأكرمه ، ولا غرو فقد قويت الدعوة فى فارس بانضمام هذا الزعيم الموهوب إليها ، ولذلك اتخذه عبد الملك بن عطاش ـ مساعداً له ، وبعبارة أخرى جعله داعيا للإسماعيلية فى تلك البلاد ، ووثق به ، فأمره بالذهاب بعد ذلك إلى مصر ليحظى بالإمام المستنصر (١) .

ويعتبر اعتناق الحسن الصباح المذهب الإسماعيلى ، (قبل سنة ٤٦٤ﻫ) حدثا كبيراً فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية بالمشرق ، بل فى تاريخ الاثنا عشرية فى تلك البلاد . لأنه باعتناقه هذا المذهب ساعد على إضعاف مذهب الاثنا عشرية هناك ، وفى الوقت نفسه ساعد على رواج المذهب الإسماعيلى ، فقد حمل الحسن على كتفيه مهمة ترويج مذهبه الجديد ، وعينه ابن عطاش ، رئيس الدعوة بالعراق ـ العربى والعجمى ـ داعيا على أصفهان (٢) . ويظهر أن ذلك التعيين حدث قبيل خروج الحسن من وظيفته فى ديوان السلاجقة بأصفهان ، فكان ، والحالة هذه ، داعيا فاطميا ، وموظفا فى قصر السلاجقة السنيين فى الوقت نفسه .

ويظهر أن الحسن الصباح ، ظل يقوم بالدعوة ، منذ أن اعتنق المذهب الإسماعيلى ، فى نحو سنة ٤٦٢ ﻫ ، حتى سنة ٤٦٩ ﻫ (١٠٧٦ م) ، ولم يكن يستقر فى مكان فى تلك الفترة : فبينما تراه فى أصفهان تارة ، إذا بك

---

(١) الجوينى : جهان جوشا ـ ترجمة ديفريمرى فى Essai pp. 65 — 6

(٢) Browne : Lit. Hist. of Persia vol. ii, p. 203

تراه فى بلاد الرى تارة أخرى . وقد تعرض الحسن فى تلك الفترة من حياته لهجات عنيفة . كان يشنها عليه أبو مسلم ، صهر نظام الملك ، الذى كان واليا على الرى .

ويصح الذهاب إلى القول بأن رئيس الدعوة فى المشرق «ابن عطاش» كان يمتحن الحسن ، ويدرس سلوكه ، فلما اتضح له أنه شخص موهوب ، عمل على ترحيله إلى مصر ، لينهل أصول الدعوة من مناهلها الحقة بمدارس القاهرة .

والذى نستطيع استنتاجه من ذلك ، ما ذهبنا إليه من قبل ، وهو أن الحسن الصباح كان فى خدمة السلطان السلجوقى ، ألب أرسلان ، ثم السلطان ملكشاه ، وهو يدين بالمذهب الإسماعيلى ، وأنه كان قبل اعتناقه المذهب الإسماعيلى على شىء كبير من الشهرة المذهبية ، حتى رفض داعى الإسماعيلية Moumin ، مؤمن ، أن يعطيه العهد لسمو مكانته . وشىء آخر جدير بالاعتبار ، هو أن سيلا من دعاة الإسماعيلية ، كان يغمر بلاد فارس وخراسان ، وأن رئيس الدعوة هناك ، كان موطنه بلاد العراق ، وكان يزور البلاد الواقعة تحت نفوذه من آن لآن ، وكان كذلك حلقة الاتصال بين الفاطميين فى مصر وأشياعهم فى خراسان وفارس . كما كان يتمتع بحق تعيين الدعاة الذين يثق بهم ، ثم ينتخب من يراه صالحا جريئا موهوبا ، الذهاب إلى القاهرة ، للتعمق فى أصول المذهب الإسماعيلى هناك .

وأهم من ذلك كله ، ضعف المذهب الاثنا عشرى فى خراسان وفارس أمام المذهب الإسماعيلى . يدل على ذلك اعتناق كثير من

المبرزين فيه المذهب الإسماعيلي ، حيث يستطيع هؤلاء أن يحققوا مآربهم كاملة في ظله ، فلا يبعد والحالة هذه أن يكون اعتناق الحسن الصباح المذهب الإسماعيلي، راجعا إلى رغبته في إشباع ميوله وأطماعه ، إذ يستطيع في ظله ، أن يدعو لنفسه تحت ستار الدعوة للإمام الإسماعيلي، الظاهر أو المستور . وهذا ما نستطيع إدراكه من سلوك الحسن الصباح ، فقد استطاع أن يكون على رأس جماعة تخلص له ، ويدعى لها أنه « حجة » الإمام المستور من أبناء نزار بن المستنصر .

والذى لا يمكن تصديقه ما يدعيه بعض من أن الحسن الصباح كان أستاذاً لناصرى خسرو[1] ، كما لا يمكن تصديق ما ذهب بعض آخر إليه من أن الحسن تلميذ ناصرى خسرو لا أستاذه[2] . فاننا نعلم أن الخليفة المستنصر الفاطمى ، عين ناصرى خسرو حجة على خراسان ، فى سنة ٤٤٣ هـ أى قبل مولد الحسن الصباح بسنة واحدة ، ومن ثم لا يعقل أن يكون الحسن الصباح أستاذا لهذا « الحجة » ، أو حتى تلميذا له . أضف إلى ذلك ، أن مراجعنا الكثيرة تذهب إلى القول بأن الحسن الصباح أخذ أصول المذهب الإسماعيلي عن ابن عطاش[3] ودعاته ، ولا يبعد أن يكون

---

(١) كتاب مستطاب در حقيقت مذهب إسماعيلى ، ص ١٠ .

(٢) حيث يقول براون Lit. Hist. of Persia vol. ii, p. 251 : إن كتاب سارجوازشت سيدنا يؤكد أن الحسن كان تلميذا لناصرى خسرو .

(٣) كان عطاش من كبار علماء المذهب الاسماعيلى ، ألف الكتب الكثيرة فى مناصرة هذا المذهب ، وألف رسالة فى الدعاء له ، أسماها العقيقية (ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ورقة ١٣)

ابن عطاش تلميذا لناصرى خسرو ، فكأن الحسن الصباح أخذ أصول المذهب عن ناصرى خسرو بطريق غير مباشر .

نستنتج من هذا كله أن الدعوة الإسماعيلية كانت رائجة فى خراسان وفارس، عند ظهور الحسن الصباح ، وأن هذا الرجل الفذ ، استغلها خير استغلال ، فى تدعيم نفوذه ، وتقوية شأن جماعته ، وأن الدعوة الشيعية الاثنا عشرية كانت ضعيفة هزيلة هناك ، فلم تستطع الصمود أمام تيار الدعوة الإسماعيلية الجارف ، وأن دخول الحسن المذهب الإسماعيلى ، غير أسلوب حياة هذا الزعيم من النقيض إلى النقيض . فتحمس للمذهب الجديد ، وبدرت منه بوادر هذا التحمس وهو موظف فى قصر السلاجقة ، فأثار بتحمسه سخط السنيين عليه ، وانتباههم إليه ، فما زالوا به يضعون العراقيل فى طريقه ، حتى طردوه ، وكادوا يفتكون به .

ولقد عمل الحسن الصباح بعد اعتناقه المذهب الإسماعيلى ، وإقالته من وظيفته ، على أن يتفانى إلى أقصى حدود التفانى فى الإخلاص للمذهب الإسماعيلى ، فأثار بعمله هذا انتباه رؤساء الدعوة الإسماعيلية فى فارس وخراسان ، وما زال يجد فى نشر الدعوة حتى عملوا على إرساله إلى القاهرة ، ليرتشف أصول المذهب الإسماعيلى ، من مدارسها ودعاتها وأئمتها .

٣ الحسن الصباح فى مصر

عول الحسن الصباح على قصد مصر فى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، فهل كان ذلك بوحى من الخليفة الفاطمى ـ المستنصر ـ نفسه ؟ أو أن رياسة

الدعوة بالمشرق ، هى التى مهدت لهذا الرجل سبيل الوصول إلى مصر ؟ أو أن الحسن الصباح هو الذى رغب فى تلك الرحلة من تلقاء نفسه ؟ يظهر أن عبد الملك بن عطاش ، رئيس الدعوة بالمشرق ، هو الذى مهد للحسن الصباح ، كى يذهب إلى مصر ، ليستزيد من علوم المذهب الإسماعيلى ، ويتلقف شئون الدعوة العملية من ينبوعها الأساسى . ويظهر أيضا أن رياسة الدعوة فى «البحار» المختلفة ، كانت تعنى بتخريج جماعة من أذكياء الدعاة ، ثم تعمل على إرسالهم إلى القاهرة. وقد رأينا أن القاهرة جذبت إليها غير الحسن الصباح كثيرين ، فلقد قصد إليها أحمد حميد الدين الكرمانى ، وكثير من دعاة الدرزية فى عهد الحاكم ؛ وكذلك قصد إليها المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، ثم ناصرى خسرو فى عهد المستنصر ، وكل من هؤلاء الدعاة كان علما من أعلام الدعوة الإسماعيلية . فكان قصد الحسن مصر تنفيذا لسياسة مرسومة ، رسمتها رياسة الدعوة المركزية والمحلية ، ودرج عليها الدعاة منذ القديم .

خرج الحسن الصباح من الرى ميمما نحو مصر فى سنة ٤٦٧ هـ ، وقصد إلى أصفهان ، وظل بها حتى سنة ٤٦٩ م ، بجانب رئيس الدعوة عبد الملك ابن عطاش ، فمهد هذا له الطريق إلى القاهرة ، وكانت خطة سيره آية فى الدقة والإحكام ، حتى لا يقع فى أيدى السنيين ، فتزيى بزى التجار ، ثم خرج من أصفهان فى سنة ٤٦٩ هـ ، ومر بآذربيجان وميافارقين ، ثم الموصل وسنجار والرحبة ، ثم اتجه إلى دمشق فصيدا وصور ثم عكا . ومعنى ذلك أن الحسن قطع المسافة من أصفهان إلى عكا عن طريق البر ، ولكنه ركب

---

(١) انظر المصور .

البحر بعد عكا ، حتى وصل إلى مصر فى سنة ٤٧١ هـ . وقد استطاع أن يتعرف ـ وهو فى طريقه ـ على كثير من الإسماعيلية ، الذين عاونوه خير معاونة ، وكانوا يتصلون به سرا . وهكذا وصل الحسن مصر « فى زى تاجر أو فى زى تجار » (١) .

والذى يلفت النظر حقا ، اهتمام زعماء الدعوة فى مصر بالحسن الصباح . ونعتقد أن ابن عطاش كان على صلة برياسة الدعوة فى مصر ، عن طريق الحمام الزاجل، ولابد أنه أخبرهم عن حقيقة شخص الصباح ، ومدى تفانيه فى نشر الدعوة الإسماعيلية ، ومدى ما لاقاه من اضطهاد على يد السلاجقة. ومن ثم رحب به الخليفة المستنصر نفسه، على الرغم من أنه لم يقابله شخصيا ، كما رحب به داعى الدعاة ، وكثير من رجالات الدعوة المبرزين فى مصر ، وخصصت له الحكومة الفاطمية فى مصر منزلا يعيش به . ولنترك الحسن الصباح نفسه يحدثنا عن ذلك فيقول : « إن مولاه المستنصر ، كان يحسن معاملته ، ويظهر عطفه عليه ، وحبه له ، وذلك على الرغم من أنه لم يقابله شخصيا مرة واحدة . ولم يكن المستنصر يتكلم عن الحسن إلا بكل إجلال وإكبار ، حتى أن موظفى القصر اعتقدوا أنه سيعين وزيراً للمستنصر (٢) » .

وقد استمر الحسن الصباح فى مصر عاما ونصف عام (٤٧١ هـ — ٤٧٢ هـ) ، استطاع أن ينكب فيها على علوم الإسماعيلية ومعارفهم ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ١٨ .

(٢) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 78

وأن يدرس أصول المذهب السرية دراسة وافية ، سواء أكان ذلك في دار الحكمة ، أو في غيرها من مجالس الدعوة ، غير أنه لم يعش قرير العين في القاهرة . فقد قامت المنازعات بينه وبين الوزير العظيم - بدر الجمالي - (٤٨٧ هـ) وأنصاره ، مما أدى إلى الزج به في السجن بمدينة دمياط ، بل لقد رأى الوزير في وجوده بمصر خطراً على كيانه ، ومن ثم عمل على نفيه إلى بلاد المغرب ، غير أن الريح ألقت به على سواحل الشام ، ففر منها إلى بلاده .

وترينا هذه المعاملة القاسية ، مدى ما كان يلاقيه الإسماعيلي المخلص لمذهبه وإمامه من عنت ، على يد رجال الحكومة النفعيين بمصر ، الذين كانوا ينظرون إلى الدعوة الإسماعيلية ورجالها ، نظرة احتقار وامتهان . وكان بدر الجمالي وأبناؤه من بعده من أكثر الناس كراهية للدعوة الإسماعيلية ، ولم نذهب بعيداً ؟ وقد لقي المؤيد الشيرازي من رجال الحكومة وأعوانهم أكثر مما لقيه الحسن الصباح .

وإن خروج الحسن الصباح من مصر على هذا الشكل الروائي المحزن ، ليحدونا إلى بحث عوامل غضب الحكومة الفاطمية على ضيفها المخلص . وقد كفانا الحسن الصباح مؤونة هذا بنفسه ، فأخبرنا أن سبب طرده من مصر ، يرجع إلى أنه كان من أنصار الأمير الإمام نزار بن المستنصر . وقد آلم تحيزه لنزار أمير الجيوش بدر الجمالي وحزبه ، فكان هذا من أسباب الاحتكاك المتصل بين الحسن والوزير العظيم (١) .

(١) Blochet : Le Missianisme, p. 109.

وقد أوضح رشيد الدين، فى كتابه جامع التواريخ، تلك الحال، فقال: حدث فى ذلك الوقت تعيين ولى العهد فى مصر، فاختار المستنصر ابنه نزارا، وكان بدر الجمالى يحبذ تعيين المستعلى. وناصر الحسن الصباح التعيين الأول، فغضب عليه بدر الجمالى، ولم يرض عما كان المستنصر يبديه للحسن من احترام، فعمل على سجنه، ثم طرده من مصر [١].

ويغلو بلوشيه [٢]، فيدعى أن المستعلى، الذى كان تعيينه بعد تعيين نزار، كان على رأس جماعة من الحانقين على الحسن الصباح، ومعهم أمير الجيوش بدر الجمالى، ولكن المستعلى كان فى ذلك الوقت طفلا لم يتجاوز الرابعة من عمره. فلم يكن إذن على رأس جماعة تحنق على نزار وعلى الحسن الصباح، وإنما الذى كان على رأس هذه الجماعة حقا، هو بيت بدر الجمالى، جد المستعلى لأمه.

ألسنا نرى فى سلوك الحسن الصباح شيئا كبيرا من الدهاء؟ فقد مهد الأمور لنفسه، وأظهر التفانى المذهب الإسماعيلى ومبادئه. فظهر أمام الإسماعيلية جميعا بأنه يأخذ بناصر الدعوة لا بناصر الدولة. ومن ثم انضوى تحت لواء نزار وأنصاره جميع القائلين بإمامته، وجميع القائلين بصحة التعيين الأول وبطلان التعيين الثانى، وهؤلاء هم خلاصة الإسماعيلية. وهذا كله مصداق ما قيل فى الحسن الصباح من أنه كان نهازا للفرص، يسعى دائما إلى الاصطياد فى الماء العكر. to fish in the troubled water.

---

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 203

(٢) Blochet : Le Missianisme, p. 109

على أننا لا ننكر بأن حنق بدر الجمالى ورجال حكومة الدولة الفاطمية على الحسن الصباح ، إنما كان مبعثه ذلك الحقد الدفين ، الذى يكنه رجال الدولة الحكوميون لرجال الدعوة المخلصين. ولا نستبعد على الحسن أن يكون قد أدرك بثاقب نظره قرب نهاية الدعوة فى مصر على أيدى رجال الحكومة النفعيين ، فهب فى وجه النفعية ، ونادى بالثورة على هذه السياسة الخطيرة ، التى قد تودى بالدعوة والدولة معا. ولا ننكر كذلك بأن رجال الدولة فى مصر ، عز عليهم ما رأوه من احترام المستنصر لهذا الداعى الفارسى ، وخاف كبار الموظفين ، كل على وظيفته ، واعتقد كل منهم أن الحسن سوف يحل محله فيها ، فكونوا جميعا جبهة قوية تكاتفت فى طرد الحسن الصباح من مصر .

وقد نسأل متى تم تعيين المستعلى ونزار ؟ يظهر أن هذا التعيين الخاص بالمستعلى، إنما حدث فى المدة التى استقر بها الحسن فى مصر (٤٧١ — ٤٧٢ هـ)، أما نزار فلا بد أن يكون تعيينه قبل ذلك . غير أننا لا نعرف على وجه التحديد متى كان هذا التعيين ، لكن النزارية يرون أن تعيين المستنصر نزارا لم يعجب بدرا الجمالى وأنصاره ، وأن ذلك الوزير ما زال بالخليفة المستنصر ، حتى نقض التعيين الأول وعين ابنه الأصغر ، المستعلى ، وكان حفيدا لبدر الجمالى ، فآلم ذلك التعيين الثانى جماعة النزارية الأوائل ، الذين كانوا يلتفون حول نزار وقتئذ واعتبروه خروجا على أهم مبادىء المذهب الإسماعيلى ، وافتئاتا من رجال الحكومة على رجال الدعوة ، خصوصا وأن بدرا الجمالى وابنه الأفضل ، كانا يحقدان على نزار ، ويريان إبقاء العرش فى بيت المستعلى ، الطفل

الصغير ، لقرابته منهما أولا ، ولصغر سنه ثانيا ، لكى يصبح ألعوبة فى أيديهما .

نعم ! أنكر الحسن الصباح ذلك ، على الوزير بدر الجمالى وابنه الأفضل ، محتجا بأن التعيين الأول ، وهو تعيين نزار ، هو المعمول به عندكافة الإسماعيلية ، وأن التعيين الثانى ، وهو تعيين المستعلى ، لا أساس له فى المذهب ، وهذه الحجة قوية ، لأنها حجة الإسماعيلية الرئيسية ، التى يتذرعون بها فى الرد على خصومهم الاثنا عشرية ، أنصار موسى الكاظم ، أوضح الحسن الصباح ذلك بقوله : كان لأمير الجيوش الكلمة العليا فى البلاد ، كما كان نفوذه قويا على الخليفة المستنصر نفسه . هذا إلى أنه كان والد زوجة المستعلى ، الابن الثانى للمستنصر . والمستعلى هذا هو الذى أعلن الخليفة المستنصر بأنه سوف يليه بعد موته ، غير أن ذلك الإعلان كان الثانى من نوعه ، وإنى مستندا على المبادىء الأساسية للمذهب الذى أعتنقه ، أدعو لنزار (١) .

وكل ما ورد على لسان الحسن الصباح صحيح ، إلا فى الادعاء بأن بدرا الجمالى كان والد زوجة المستعلى ، لأن المستعلى ولد فى ٢٠ من المحرم سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) ، وكان الحسن فى مصر سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) ، فعمره والحالة هذه أربع سنوات ، ولا يعقل أن يكون

---

(١) جهان كوشا : الجوينى . ترجمة ديفريمرى فى
Essai sur l'Hist. des Ismaeléens, p 67.

زوجا لابنة أمير الجيوش، كما أن المراجع الكثيرة تقول: إن بدرا الجمالى جد المستعلى لأمه لا حموه.

ونستطيع أن نقول - حسب ما ذهب النزارية إليه - إن المستنصر كان قد عين نزارا قبل تعيين المستعلى، وإن المستنصر نفسه صرح بذلك للحسن الصباح، ومعنى هذا أن الحسن حين ثار على المستعلى وجده بدر الجمالى، وخاله الأفضل وحزبهم جميعا، إنما كان يحافظ على أوامر الخليفة ومبادىء المذهب الإسماعيلى. يقول النويرى [١]: «ودخل الحسن على المستنصر، وخاطبه فى إقامة الدعوة ببلاد العجم، فأذن له ... وادعى أنه قال للمستنصر: من إمامى بعدك؟ فأشار إلى نزار فمن هناك سموا بالنزارية» ويقول ابن واصل[٢]: «إن الحسن الصباح قدم على المستنصر، وطلب منه أن يكون داعيا له ببلاد العجم، فأجابه إلى ذلك، فسأله: من الإمام بعده؟ فذكر أنه قال: إنه ولده نزار ... فمضى الحسن إلى بلاد العجم، فدعا للمستنصر، وبعده لولده نزار، وبث دعوة الباطنية هناك».

ويرى إيڤانو[٣] أن هذه الحكاية مخترعة من أساسها، وأن الحسن الصباح إنما اخترعها كى يبرهن على صحة مذهبه، وأننا إذا علمنا أن

---

(١) نهاية الأرب (مخطوط)، جـ ٢٨ ورقة ٧٥.

(٢) مفرج الكروب (مخطوط مصور بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٦٠٥٠)، جـ ١ ورقة ١٢٦.

(٣) Ivanow. Kalami Pir. (Intro.), p. xx.

الخليفة المستنصر الفاطمي لم يقابل الحسن الصباح مرة واحدة ، وأن الموظفين بالقصر الخلفي في مصر، أهملوه إهمالا تاما ، وأن الحسن نفسه كان شابا طموحا طموحا لا حد له ، وكان يؤمل أن يرى في مصر غير ما رأى ، إذا علمنا ذلك كله، نستطيع أن نقول : إن آلام ذلك الشاب قد تزايدت ، بسبب فشله في مصر ، وشعوره بنفورهم منه ، فأراد أن ينتقم لآلامه باختراع تلك القصة ، كي يدعو لنزار ، عدو أمير الجيوش اللدود .

من هذا كله نرى أن نفوذ المستنصر في دولته لم يكن شيئا مذكورا ، بجانب نفوذ بدر الجمالي وأهل بيته . ولا نستطيع أن نفسر تغاضي هذا الخليفة عن الحسن الصباح - تابعه المخلص الوفي ، بأن ما ناله إنما كان بأمره هو ، أو أنه على الأقل ، كان راضيا عن تصرف الوزير مع الحسن ويظهر أن المستنصر كان يقنع ، مع وجود بدر الجمالي ، من الخلافة باسمها ، فترك أمور الدعوة وأمور الدولة كلها في يد هذا الوزير ، الذي استبد بكل شيء . ولم يعد يأبه للخلفاء ولا للأمراء . وإنما كان همه التمتع بالنفوذ المطلق لا غير ، حتى أن المستنصر ، على الرغم من حبه الحسن الصباح وعطفه عليه ، لم يستطع أن يقابله مرة واحدة ، أو يأمره بالمثول بين يديه (١). فعل ذلك خوفا من وزيره الجمالي .

وكذلك لما قبض الوزير على الحسن الصباح وسجنه ، لم يستطع هذا الخليفة الدفاع عنه ، وقد شعر الناس بأن هذه الإهانة إنما وجهت إلى الخليفة وإلى الحسن الصباح معا . والدليل على ذلك، أنه لما سجن الحسن

---

(١) Dozy : Essai Sur l'Hist. de l'Islamisme, p. 301

بدمياط ، وسقط أحد جدران القلعة التى كان مسجونا بها مصادفة ، اعتقد القوم أن هذه معجزة من المستنصر ومن الحسن معا ، وما كان يصح للناس أن يعتقدوا ذلك لو كان المستنصر راضيا عما حل بتابعه المخلص ، الحسن الصباح .

نعود فنقول : إن ما فعله الوزير ـ بدر الجمالى ـ مع الحسن الصباح ، يعتبر محنة أصابت الدعوة الفاطمية فى صميمها ، ولكنه يعتبر نصرا لوزراء الدولة ورجال حكومتها ، ولا غرو فقد أصبح الإمام الظاهر ـ الخليفة المستنصر ـ ألعوبة فى يد الوزراء العظام ، الذين جمعوا السلطة كلها فى أيديهم ، وأصروا على أن يكون مركز الدعوة أقل شأنا من مركز الدولة ، وأن لا يتركوا لرجال الدعوة فرصة يحاولون بها الوصول إلى الزعامة أو السلطان . وهذه السياسة الخطيرة كانت من العوامل التى عجلت بسقوط الفاطميين(١) .

وعلى الرغم من هذا كله ، أفاد الحسن الصباح من رحلته فائدة كبيرة ، فقد استطاع أن يدرس خلال تلك المدة التى مكثها فى مصر ، أصول المذهب الإسماعيلى ، وأن يلم بكثير من أسراره ومبادئه ، فقد كان دائم الاتصال برجال الدعوة وأساتذتها ، وبمدارس الدعوة ومجالسها ، كما كان يتصل بالخليفة المستنصر عن طريق رجال الدعوة ، ويعرف منه أصول المذهب ومبادئه عن طريقهم كذلك . يقول ابن ميسر(٢) : « وسأل الحسن المستنصر عن مسائل على مذهب الإسماعيلية ، فأجابه عليها بخطه » .

---

(١) أنظر كتابنا « المشكلات الكبرى فى تاريخ الفاطميين » .

(٢) تاريخ مصر ، ج ٢ ص ٢٧ .

وأهم من هذا كله أن الخليفة المستنصر عينه - على ما يقول النزارية - نائبا له على خراسان ، أو بالأحرى «حجة» له عليها ، وليس هذا بعيداً خصوصا بعد أن رحل ناصرى خسرو إلى إقليم بادخشان ، فى أواسط آسيا ، وترك إقليم خراسان لدعاتها المحليين ، كعبد الملك بن عطاش وغيره.

على أن بقاء الحسن الصباح عاما ونصف فى مصر ، ملتصقا برجال الدعوة ورجال الدولة معا ، أفاده فائدة تذكر ، فقد درس حالة الدولة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية ، وألم بعيوب هذه وتلك ، وعمل على تلافيها فى المستقبل . وبعبارة أخرى لا يبعد أن يكون الحسن قد أدرك وهو بمصر، ما آلت إليه الخلافة الفاطمية من الضعف ، وأدرك أن قوتها أصبحت تتناسب تناسبا عكسيا مع نجاح الدعوة الإسماعيلية ، فإنها ، على الرغم من نجاح الدعوة فى عهد المستنصر . كانت ضعيفة أمام القواد وغير القواد ، وكان الجيش الفاطمى والوزارة الفاطمية وغيرهما من كبريات الوظائف ، فى أيدى أعداء المذهب الإسماعيلى ، وأنه لما أدرك الحسن ذلك كله ، عول على تكوين مجتمع إسماعيلى صرف ، يناقض فى كثير من النواحى المجتمع الفاطمى ، وهو أن يجعل رجال السيف ورجال الدعوة الروحيين خاضعين لرئيسهم (له ثم لخلفائه من بعده) ، بحيث يعملون جميعا على نشر المذهب الإسماعيلى ، والفتك بمن يقف فى وجههم ، ولو أدت تلك السياسة الدموية الجريئة إلى قتل الخلفاء والسلاطين والوزراء ، بل إلى قلب العروش ذاتها ؛ أى كأن ما أدركه الحسن الصباح، وهو بمصر، من ضعف الدعوة أمام رجال الدولة ، قد أوحى له بتلك السياسة الخطيرة، التى سار عليها بعد ذلك ، وانتهجها خلفاؤه من بعده .

٤ — الحسن الصباح سفير المستنصر فى خراسان وفارس

بقى الحسن الصباح فى مصر ، منذ شهر صفر سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨م) ، وأبحر من الإسكندرية فى رجب سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) ، وكان قصد الوزير بدر الجمالى أن ينفيه إلى بلاد المغرب ، ولكن الظروف ساعدته ، فأفلت من انتقام هذا الوزير ، وألقت به الريح على سواحل الشام ، فنزل بثغر «عكا» ، وقصد منها إلى «حلب» فإلى «بغداد» . ثم اتجه من بغداد إلى «خوزستان» التى كانت تغص بالإسماعيلية فى ذلك الحين . ثم ألقى عصا التسيار فى «أصبهان» . وكان وصوله إليها فى ذى الحجة من سنة ٤٧٣ هـ (مايو سنة ١٠٨١ م) ، ثم اتجه إلى مدينة «يزد» فى جنوب فارس ، ثم إلى «كرمان» .

لم يستطع الحسن الصباح الاستقرار فى مكان ما ، فكان ولاة السلاجقة السنيون يطاردونه فى كل مكان ، ولذلك عاد من كرمان وقصد إلى أصبهان ، وبقى بها أربعة أشهر . وكان لا يفتأ ينشر الدعوة الإسماعيلية ، وينادى بامامة الخليفة المستنصر . وقد صرح لأحد المقربين إليه بتصريحات تدل على مدى طموحه وجرأته ، وتدل فى الوقت نفسه على أنه وضع برنامجه الهدام الجرىء منذ سنة ٤٧٣ و ٤٧٤ هـ . فقد صرح الصباح للرئيس أبى الفضل اللُّبْنَانى أحد مشهورى النزارية ، برغبته فى قلب العرش السلجوقى ، وذلك بقتل السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك (١) . على أن الحسن اضطر إلى مغادرة أصفهان ، وقصد إلى خوزستان من جديد . واستمر بها ثلاثة شهور

---

(١) المستوفى : تاريخ جوزيدة ، جـ ١ ص ٤٨٨ .

يدعو فيها للخليفة المستنصر ، ولم يقف نشاطه عند هذا الحد ، فقد اتجه عبر الصحراء ، من إقليم خوزستان إلى إقليم دامغان (١) . واستقر هناك ثلاث سنوات (٤٧٤ - ٤٧٧ هـ) .

ومما تمتاز به حياة الحسن فى هذا الدور ، أنه لم يكن داعيا عاديا بسيطا ، بل كان يقوم برياسة الدعوة المحلية فى فارس وخراسان ، فيرسل بالدعاة إلى أماكن يعينها لهم ، وكانت قلعة «آلموت»(٢) أهم منطقة بعث إليها بسيول دعاته ، وكذلك بلاد الديلم فى الجنوب الغربى من بحر قزوين . كما تمتاز حياته فى ذلك الدور بالخوف الدائم من عمال السلاجقة السنيين ، وعلى الأخص من أبى مسلم ، صاحب الرى ، وصهر نظام الملك(٣) . لذلك كان الحسن يلجأ إلى طرق الخداع والتستر . أنظره وقد أراد الذهاب من كورة دامغان (بين الرى ونيسابور) إلى مدينة قزوين - جنوبى بحر قزوين - يسلك طريقا معوجة ؛ فيتجه إلى مدينة « سارى » (٤) ، على البحر ، ومنها إلى « دوماوند » (٥) ، ومن دوماوند إلى قزوين ، وهى رحلة شاقة بالطبع ، وقد استقر فى قزوين حينا من الزمن ، وبذل جهوده فى نشر دعوة المستنصر فى إقليم آلموت .

---

(١) مدينة بين الرى ونيسابور ، وقيل : هى كورة بين الرى ونيسابور .

(٢) وتقع فى إقليم مازندران (طبرستان) ، بين سلاسل جبال البورز ، جنوبى بحر قزوين .

(٣) Defremery : Essai Sur l'Hist. des Ismaéleéns, p. 67

(٤) إحدى مدن طبرستان ، وتقع على مقربة من بحر قزوين

(٥) دوماوند : جبل وكورة بالقرب من الرى .

من هذا نرى أن الحسن الصباح كان يدعو للمستنصر لا لسواه ، وذلك من سنة ٤٧٣ إلى سنة ٤٨٧ هـ ، فلم يكن يدعو لنزار، كما توهم بعض[١]، لأن الحسن لو دعا فى حياة المستنصر لابنه نزار، لاعتبر ثائرا على هذا الخليفة ، ولجلب على نفسه ثورة الإسماعيلية فى تلك البلاد النائية . والذى لا نشك فيه أن الحسن الصباح استمر على ولائه للخليفة المستنصر طيلة حياة هذا الخليفة (من سنة ٤٧٣ إلى ٤٨٧ هـ). يدل على ذلك قول العينى[٢]: « وكان الحسن الصباح قد قصده فى زى تاجر ... وخاطبه فى إقامة الدعوة له فى بلاد العجم ، فعاد يدعو الناس إليه سرا ، ثم أظهرها وملك القلاع ». ويبين لنا القلقشندى [٣] أن الحسن دعا للمستنصر أولا ، ثم لنزار ثانيا ، فيقول : فقال الحسن للمستنصر : من الإمام بعدك ؟ فقال : ابنى نزار . فعاد ابن الصباح ... وهو يدعو إلى إمامه المستنصر وابنه نزار بعده .

بذلك نرى أن الحسن كان يدعو أولا للمستنصر لا لنزار . ومهما يكن من أمر فإن الحسن الصباح عاد إلى خراسان، ليدعو باسم إمام ظاهر ـ هو المستنصر ـ واستمر مخلصا فى دعواه هذه . على أن هذا لا يمنع أن يكون الحسن قد أخذ يمهد الأمور لنزار ، وينشر بين أتباعه أنه خليفة المستنصر . بل إن التمهيد لنزار ، يجب أن يكون من أهم ما يعنى الحسن به فى ذلك الوقت ، حتى لا يفاجىء أشياعه بأمر نزار ، خصوصا بعد أن أدرك نوايا بدر الجمالى نحو نزار والمستعلى .

---

(١) Defremery : Essai sur l'Hist. des Ismaéleéns, p. 67

(٢) عقد الجمان (مخطوط) ، جـ ٢٠ ورقة ٤٧٣ .

(٣) صبح الأعشى، جـ ١٣ ص ٢٣٧ .

وقد زاد بلوشيه (١) هذا الموضوع إيضاحا فقال : ويجب ألا ننسى بأن الحسن كان يعتبر نفسه داعيا للخليفة الفاطمى بمصر - المستنصر بالله أبى تميم معد - وقد بقى طول حياة هذا الخليفة على الولاء له ، وما كان الحسن ينتظر سوى إشارة واحدة منه ، حتى يعلن ما أعلنه أنوشتكين الدرزى ، وحمزه بن على ، من تأليه الحاكم (٢) ، لكن هذه الإشارة لم تصله بعد ، لأن المستنصر لم يكن لديه شجاعة جده الحاكم .

وبهذا كان الحسن الصباح يعتبر الدعوة للمستنصر ضربا من ضروب التقوى والورع ، وينادى بالإمام الظاهر ، لا الإمام المستور ، وهكذا « بعد أن هاجر الحسن إلى بلاد إمامه (مصر) ، وتلقى منه كيفية الدعوة لإمام زمانه ، عاد ودعا الناس ، أول دعوة ، إلى تعيين إمام صادق قائم فى كل زمان ، وتمييز الفرقة الناجية دون سائر الفرق بهذه النكتة ، أى أن لهم إماما وليس لغيرهم إمام »(٣). وكل هذه الحقائق تدل على أن الحسن لم يدع لغير المستنصر قبل سنة ٤٨٧ ﻫ .

والواقع أن الحسن الصباح كان يهمه فى هذا الدور (٤٧٣ — ٤٨٧ ﻫ = ١٠٨٠ — ١٠٩٤ م) ، فى حياة المستنصر ، أن ينجز هذه الأمور الثلاثة :

أولا : كان عليه أن يروج الدعوة الإسماعيلية ، باسم المستنصر أولا ، ثم نزار ثانيا ، وقد نجح الحسن فى ذلك نجاحا ظهر أثره بعد ، فقد

---

(١) Le Missianisme (Paris, 1901), p. 3

(٢) وكانا من أشهر دعائم الدعوة الدرزية فى عهد الحاكم .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ ٢ ص ٢٩ (على هامش ابن حزم) .

استغل الانتماء إلى المستنصر ، الذى عينه «حجة» على خراسان ، ووضع نفسه على رأس جماعة من المتفانين له ، وللمذهب الإسماعيلى ، فأصبح فى مركز الأمراء والسلاطين ، بعد قليل من الزمان . وليس من شك فى أن الحسن كان يمهد الأمور ، فى هذا الدور ، للثورة على رجال الحكومة الفاطمية النفعيين ، حتى إذا مامات المستنصر وجد الأمور ممهدة له، ليدعو إلى نزار .

ثانياً : وكان عليه أن يوجد حوله زعماء آخرين يخلصون له ، ويتفانون فى الدفاع عنه وعن مذهبه ، وقد نجح فى ذلك نجاحا يحسد عليه ، إذ ضم إليه جماعة من خيرة رجال ملكشاه وولاته . فكان هؤلاء وغيرهم أسلحة فتاكة فى يده . ومن هؤلاء الأنصار الزعماء أمير قلعة «كيردكوه» [1] . وكان من ولاة السلطان ملكشاه ، ويدعى «المظفر» ، وبفضل هذا الزعيم استطاع الحسن أن ينشر الدعوة الإسماعيلية بنجاح كبير فى بلاد الرى . ثم انضم إلى الحسن الصباح زعيم آخر هو الأمير الحسين القينى ، حاكم قلعة «طورشيز» ، إحدى قلاع قوهستان . وانضم إلى الحسن كثيرون غير هؤلاء ، فقوى الحسن بهم [2] .

ثالثاً : وكذلك كان على الحسن أن يعمل على امتلاك القلاع والحصون القوية ، كى يستعين بها فى تقوية نظامه الجديد . وقد نجح فى الاستيلاء على الكثير منها ، بالخداع تارة ، وبالقوة أخرى، وسن بعمله

---

(١) قلعة حصينة بين الرى ونيسابور ، وكانت من أشهر قلاع النزارية .

(٢) المستوفى : تاريخ جوزيده ، جـ ١ ص ٤٩٠ .

هذا سنة انتهجها خلفاؤه من رؤساء الدعوة النزارية . وهكذا استمر الحسن الصباح عشر سنوات كاملة (٤٧٣ — ٤٨٣ هـ) ينظم خلالها الدعوة ، ويرسل الدعاة فى جميع أنحاء بلاد فارس ، إلى أن استقر بقلعة حصينة ، اتخذها مركزا رئيسيا لنشاطه ، أو قل : عاصمة لملكه ، وتلك هى « قلعة آلموت » ، فأصبحت سنة الإسماعيلية الاعتصام بالجبال ، وتكوين المجتمعات الإسماعيلية الخالصة فى تلك الأماكن المنعزلة ، ولا غرو فإنه من السهل على من يسكن تلك القلاع الجبلية المنيعة ، أن ينشر دعوته ومبادئه فى أمان واطمئنان ، وأن ينقض على أعدائه من تلك الأوكار المحصنة البعيدة المنال . يوضح صحة هذا تاريخ الإسماعيلية النزارية ، الحافل بالاغتيالات المنظمة .

وفى الحق أن قوة الحسن الصباح بدأت فى الازدياد منذ امتلاكه قلعة آلموت سنة ٤٨٣ هـ ، التى اتخذها قاعدة لأعماله . ونهج أنصاره نهجه فى احتلال القلاع المنيعة . يقول ابن ميسر (١) : « وكانت دعوة الإسماعيلية ببلاد ديلمان (٢) والجبل من قديم ، فأقام ـ الحسن ـ بينهم يبث الدعوة ، حتى شاعت ، فأخذ يجمع الأسلحة والعدد سراً . وأوعد أصحابه فى رجب سنة ثلاث وثمانين فى ليلة منها . . . كان السلطان حينئذ ملكشاه بن ألب أرسلان ، فأخذ قلعة آلموت . . . فاجتمع الباطنية بأصفهان وضواحيها ، مع رئيس دعاتهم ، أحمد بن عبد الملك بن عطاش ، فاستولوا على قلعتين

---

(١) تاريخ مصر ، ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) ديلمان : أى بلاد الديلم ، جنوبى بحر قزوين . أما بلاد الجبل فيقصد بها قوهستان التى تقع فيها مدينة أصبهان .

عظيمتين ، إحداهما قلعة «شاه دز» ، والأخرى قلعة «خان» ، وهما على «جبل أصبهان» . وقد اتخذ الزعيم الإسماعيلى الثانى ، أحمد بن عبد الملك ، من قلعة «شاه دز» قاعدة أساسية ثانية .

وبهذا نرى أن دعوة الخليفة المستنصر فى فارس وخراسان ، كانت موكولة بعد عودة الحسن الصباح من مصر، إلى أحمد بن عبد الملك بن عطاش، وإلى الحسن الصباح نفسه، هذا فى آلموت (بطبرستان) وذلك فى «شاه دز» بالقرب من أصفهان، عاصمة السلاجقة فى ذلك الحين . ولا ندرى على وجه التحقيق : أى الرجلين كان يعترف لزميله بالزعامة . ويظهر أن رياسة الدعوة كانت موضوعة - رسميا فى يد الحسن الصباح، الذى كان يولى أحمد بن عبد الملك بن عطاش شيئا غير قليل من الاحترام . ولا غرو فقد كان أحمد هذا ابن أستاذه عبد الملك بن عطاش ، الذى رباه ، وأنشأه على حب المذهب الإسماعيلى ، وسهل له طريق الذهاب إلى مصر .

ومهما يكن من شىء فقد كان الحسن ، الصباح القلب النابض لدعوة المستنصر فى المشرق ، وقد استطاع فى عهد هذا الخليفة . أن يضع أسسا متينة البناء لجماعة الإسماعيلية هناك ، وسن لأشياعه سنة الاستيطان فى مجتمعات إسماعيلية خالصة ، بعيدة عن عنت السنيين ومنافستهم ، فكان استيلاؤه على قلعة آلموت فى سنة ٤٨٣ هـ ، شرارة اندلعت بسببها نيران الثورة الإسماعيلية فى كل مكان . فاندفع أنصار الحسن يقلدونه فى الاستيلاء على القلاع الجبلية المتينة ، واتخذوها أوكارا ينقضون منها على خصومهم الدينيين والسياسيين ، فى كل من فارس وخراسان وبلاد الشام.

الباب الثالث

استقلال الحسن الصباح عن الفاطميين

١ — الدعوة لنزار بن المستنصر

دلت تصرفات الحسن الصباح جميعها على أنه كان ينزع إلى الاستقلال ، ويعمل على تكوين جماعة إسماعيلية فى خراسان وفارس ، تختلف فى تكوينها وتنظيمها عن جماعة الإسماعيلية قبل ذلك ، فلم يشأ أن يقرّ بالزعامة المصريين بعد وفاة الخليفة المستنصر ، ولم يشأ أن يعيش هو وجماعته وسط العالم السنى الذى يضمر لهم الحقد ، ويتمنى لهم الفناء . ومن ثم سن سنة جديدة ، يرمى من ورائها إلى قلب العروش وسفك الدماء ، سنية كانت أو شيعية ، فى سبيل تكوين ملك دائم له ولخلفائه من بعده . وكان يسعى سعيا حثيثا إلى «إسقاط الخلافة العباسية وإقامة دولة إسماعيلية على أنقاضها»(١) ، ومن ثم أصبح المذهب الإسماعيلى فى بلاد المشرق آلة فتاكة للانتقام وسفك الدماء (٢)، ومع هذا كله لم يناد الحسن بنفسه إماما أو ملكا أو خليفة ، بل كان يعتبر نفسه «حجة» للإمامة الإسماعيلية ، الظاهرة حينا والمستورة حينا آخر (٣) .

---

(١) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins. 82

(٢) Menant ; Khodjas in Guzerat (R.M.M., vol xii), p.217

(٣) الامامة الظاهرة، إمامة المستنصر، والإمامه المستورة، إمامة نزار وأبنائه من بعده

ظل الحسن على ولائه للمستنصر طول حكمه ، فلما مات هذا الخليفة فى سنة ٤٨٧ هـ انتقض هو وأتباعه على إمامة ابنه المستعلى وخلافته (٤٨٧ – ٤٩٥هـ) ، ونادوا بإمامة نزار ، الابن الأكبر للمستنصر . وليس من شك فى أن الحسن كان يمهد الأمور فى فارس وخراسان للإمام نزار ، فجعل أنصاره يعتقدون أن نزارا هو الإمام الحق ، وأن المستعلى اغتصب منه العرش والإمامة معا . ومنذ اليوم الذى انتقض فيه الحسن على أنصار الدعوة الفاطمية فى مصر ، عرف أنصاره باسم النزارية ، كما عرف أنصار المستعلى باسم المستعلية ، الأمر الذى حدا ببعض إلى الاعتقاد بأن الحسن إنما كان يسعى إلى تكوين ملك له هو ، دون سائر الخلفاء فى مصر.

(١) يقول فون همر : إن الحسن حين حاول النجاح فى قصر السلطان ملكشاه . وأخفق فى مسعاه ، تظاهر بالإخلاص والتفانى فى خدمة الخليفة الفاطمى فى القاهرة ـ المستنصر ـ ، وتستر بذلك الادعاء ، وبالتظاهر بالتقوى والورع ، وحاول أن يجذب الاشياع إليه باسم المستنصر . وفى الحق أن الحسن الصباح لم يكن يعمل لغير مصلحته ، ودون تحقيق آماله الشخصية En rélalité, il ne travaillait qui pour lui, et dans l'intérêt de son ambition.

ونعتقد أن ما ذهب إليه فون همر ليس صحيحا فى جملته ، لأن الحسن الصباح لم يعمل شيئا تشتم منه الثورة على سيده المستنصر ، أما إن قصد فون همر أن الحسن ثار على المستعلى ، فهذا حق لا ريب فيه ، ونتفق مع فون همر حينئذ فى أن الحسن انتهز فرصة قيام النزاع بين

---

(١) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 84

نزار وأخيه الخليفة المستعلى ، ثم ما كان من مقتل الأمير نزار فى القاهرة سنة ٤٨٨ هـ ، وخلق نظرية جديدة ، هى نظرية الإمام المستور والدعوة إليه (١) ، وبدعوته لنزار نجح نجاحا هائلا فى تكوين نظام جديد ، يتلخص فى أن دولة إسماعيلية ، صرفة خلقت وسط دولة السنيين (الدولة العباسية) .

والحق أن الحسن الصباح أدرك ضعف المذهب الإسماعيلى فى مصر فعمل على إدخال حيوية جديدة ، ودم فتى جديد ، بين إسماعيليته هو ، وأخذ يسعى فى تحقيق ذلك سرا فى عهد الخليفة المستنصر ، فلما مات هذا الإمام الإسماعيلى ، أماط اللثام عن نواياه ، وأعلن عن سياسته هذه ، متسترا بستار الدعوة إلى نزار . ومن ثم اشتهر أتباعه باسم الحسنية ، نسبة إليه ، أو النزارية نسبة إلى نزار بن المستنصر ، أو أصحاب « الدعوة الجديدة » التى ابتدعها الحسن ليتميزوا بها عن إخوانهم الإسماعيلية الغربيين The Western Ismailis (المستعلية ثم الطيِّـبيَّـة) (٢)

وهكذا كان الحسن الصباح يعتقد أنه يستطيع تحقيق آمال عبد الله بن ميمون القداح ، الذى كان حجة محمد بن اسماعيل ، ودعامة المذهب الإسماعيلى ، فى تكوين دولة إسماعيلية فى كل شيء ، بحيث يكون الرعايا والحكام على

---

(١) نعم ! هى نظرية جديدة على إسماعيلية ذلك الزمان ، فقد ألف هؤلاء الدعوة لإمام ظاهر ، ومنذ قامت الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ هـ ، وهم يؤمنون بالإمامة الظاهرة لا المستورة . ولكنها نظرية غير جديدة على الإسماعيلية فى العصور الأولى حيث عصر الستر الأول ، الذى بدأ باستتار محمد بن إسماعيل فى عهد الرشيد العباسى ، وانتهى بقيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ .

(٢) نسبة إلى الامام الطيب بن الخليفة الآمر .

عقيدة واحدة ، فإنه على الرغم من نجاح القرامطة ، فترة من الزمن ، فى تحقيق ذلك ، إلا أنهم أخفقوا فى تكوين دولة إسماعيلية لحما ودما . وعلى الرغم من قيام الدولة الفاطمية التى هى الثمرة الأولى للمذهب الإسماعيلى ، فإنها هرمت قبل أوانها أو كادت ، لاعتمادها فى سياستها وجيشها على أيد غير إسماعيلية . وعلى الرغم أيضا من نجاح الدعاة الإسماعيلية فى اليمن والهند ، وفى كل مكان فى العالم الإسلامى ، على الرغم من هذا كله ، رأى الحسن الصباح أنه إذا ما استطاع أن يكون دولة إسماعيلية بحتة ، أمكنه أن يرث الفاطميين ويهدم دولة العباسيين (١) .

وقد تركزت جهود الحسن بعد موت المستنصر فى نشر الدعوة لنزار ، أو بالأحرى فى نشر « الدعوة الجديدة » . وكان عليه أن يحتفظ بالأنصار القدامى من الإسماعيلية فى فارس وخراسان ، ويجعلهم يلتفون حوله ، وكان عليه كذلك أن يضم إلى صفوفه عناصر جديدة . وعلى الرغم من أن الحسن الصباح كان عالما مبرزا ، فإنه لم يعمل كغيره من الدعاة والعلماء على جذب الطوائف المثقفة . بل كان يلجأ إلى العامة ، حتى يسهل عليه وعلى دعاته التأثير فيهم ، خصوصا وأنه كان يأتيهم من ناحية عاطفية بحتة ، فيصور على بن أبى طالب وأبناءه تصويرا محزنا يصل إلى سويداء القلوب ، يقول الذهبي : (٢) « وكان لا يدعو إلا غبيا ، ثم يذكر له ما تم على أهل البيت من الظلم ، ثم يقول له : إذا كانت

---

(١) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 84

(٢) تاريخ الاسلام ، ج ٣ ورقة ٤٧٨ (مخطوط)

الأزارقة (١) سمحوا بنفوسهم فى القتال مع بنى أمية ، فما سبب تخلفك بنفسك عن إمامك ؟ فيتركه بهذه المقالة طعمة للسباع ».

ويذهب ديفريمرى Defremery مذهبا غريبا فى وصف عقيدة الحسن الصباح ، التى كان يدعو إليها ، ويرى أن انتشار الإلحاد الذى اشتهر به النزارية ، إنما يرجع إلى الحسن وحده . ويؤكد دعواه هذه بقوله : إن الحسن لما قويت شوكته بامتلاك آلموت ، أخذ يرسل دعاته تباعا فى الأقاليم المختلفة ، لنشر مبادئه الإلحادية ، وبخاصة بين سكان الجبال الجاهلين ؛ وبهذه الطريقة انتشر الإلحاد بين النزارية (٢) .

ونعتقد أن ما ذهب ديفريمرى إليه ليس صحيحا فى جملته ، وأن تسميته « الدعوة النزارية بالدعوة الجديدة » إنما قصد بها تمييز هؤلاء النزارية عن المستعلية ، وتمييز دعوتهم عن دعوة الفاطميين ، أو الدعوة القديمة التى تمثلت بعد المستنصر فى المستعلية ... فلم تأت هذه الدعوة النزارية بمذهب جديد ، أو آراء ومبادىء جديدة ؛ وآية ذلك أن الشهرستانى ، وقد اطلع على مبادئهم جميعها ، لم يستطع أن يفرق بينها وبين مبادىء المذهب الإسماعيلى عامة ، وأن عطا ملك الجوينى ، وزير هولاكو ، وقد اطلع على كتب النزارية ، الدينية وغير الدينية ، بعد سقوط آلموت فى يد هولاكو ، يقرر أن مذهب الحسن الصباح لا يختلف فى شىء عن مذهب الفاطميين الإسماعيلية بمصر (٣) .

---

(١) طائفة من طوائف الخوارج

(٢) Defremery ; Essai sur l'Hist. des Ismaéleens, p. 69

(٣) Menant ; Khodjas in Guzerat (R.M.M.) vol. xii, p. 217

من هذا نرى أن تسمية الدعوة النزارية بالدعوة الجديدة ، لا تمت إلى الإلحاد بصلة ، وبخاصة فى عهد الحسن الصباح ، لأن الإلحاد لم ينتشر رسميا وبصورة واضحة بين النزارية إلا فى عهد الرئيس النزارى الرابع ، الحسن الثانى (٥٥٧ — ٥٦١ هـ) . أضف إلى ذلك أن الحسن الصباح كان متقشفا تقشفا جعله يقسو على رعيته وأبنائه ، فقد طرد من قلعته رجلا كان يتعشق الموسيقى ، مما يدل على عدم انتشار الإلحاد فى عهده ، ويدل على بطلان ما ذهب ديفريمرى إليه .

ومن أهم ما تمتاز به دعوة الحسن إلى نزار ، العمل على تكوين مجتمعات إسماعيلية بحته ، تستقر فى أماكن قوية التحصين ، ويجتمع فيها جميع « حدود » الدعوة النزاريه ، من المستجيب حتى الرئيس ، ويعمل الجميع على أن يضموا إلى صفوفهم أكبر عدد مستطاع ممن يجاورونهم من السنيين ، وأن يزيدوا فى ممتلكاتهم كلما تزايد عدد أتباعهم ، فأصبح للحسن الصباح ، تبعا لذلك ، عشرات ، بل مئات من القلاع والحصون القوية ، فى أقاليم رودبار [١] وقوهستان [٢] ، والطالقان [٣] وغيرها .

على أن الحسن الصباح ، لم يكتف بالجهات الشرقية من المملكة الإسلامية ، بل وجه دعاته نحو بلاد الشام ، فنشروا الدعوة النزارية الجديدة هناك ، وحاربوا السلاجقة والمستعلية والصليبيين فى تلك البلاد ،

(١) رودبار : بطبرستان ، تتوسطها قلعة آلموت ، قاعدة النزارية الرئيسية .

(٢) قوهستان : بخوزستان ، ومن أشهر قلاعها « شاه دز » بالقرب من أصفهان

(٣) الطالقان : بلدة بخراسان بين مرو الروز وبلخ . وقيل : هى مدينة من أكبر المدن فى طخارستان . وقيل أيضا : هى كورة بين قزوين وأبهر وهو الصحيح .

وبهذا أصبح للحسن فى كل إقليم أتباع ، وفى كل مدينة أنصار ، فلا يكاد يخلو منزل في الكثير من المدن من أتباع له وأشياع .

ومن أهم ما يميز دعوة الحسن فى ذلك الحين استغلاله مبدأ التعليم من الإمام المعصوم . حقيقة ! كانت عامة الفرق الشيعية تعتنق هذا المبدأ ، غير أن الحسن الصباح أراد أن يقوى نفسه عن طريقه ، فادعى أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف شيئا عن غير طريق الإمام أو نائبه ، وغرضه من تلك الدعوى أن يقيم حوله الأشياع ، لأنه نائب الإمام ومصدر العرفان . وبهذا نرى أن الدافع الذى دفع الحسن إلى المناداة بهذا المبدأ دافع سياسى محض .

وكان مبدأ التعليم من العوامل التى شجعت الحسن على حمل السيف فى وجه الدول السنية القائمة ، لأنه التجأ إلى مبدأ إسماعيلى آخر زاد من حنق السنيين عليه ، واشتهر به الإسماعيلية جميعا ، وهو التأويل ، فأول القرآن للنزارية تأويلا يتفق ونزعاته السياسية ، فاعتقد الدعاة تبعا لذلك أحقيته فى تعيينهم ، واعتنق المستجيبون تقديسه ، حيث أوهمهم أن به جزءا إلهيا حل فيه من الإمام . وبهذا التقديس ، وتلك الثقة ، نجح الحسن فى خلق شعب يدين بالطاعة له .

وقد أوضح تايلور (١) أثر مبدأ التأويل فى جماعة النزارية بقوله : « إن الحسن أخبر أشياعه أنه نائب الإمام المستور ، ولذلك فإنه ـ جزئيا ـ عبارة عن حلول الألوهية . وقد اعتقد أتباعه أن السعادة والشقاء فى إيمائه . وهم يرون أنهم لا يعملون أية معصية فى حياتهم ، لأن المعصية

---

(١) Hist. of Mohammedanism and Its Sects, p. 216

فى عصيان أوامره هو » .

ويعترض الغزالى على عقيدة أتباع الحسن فى التعليم من الإمام المعصوم ، ويناشدهم أن يبرهنوا له على وجود هذا الإمام المستور ، فيقول : « والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم ، وفى التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئا أصلا ، كالمتضمخ(١) بالنجاسة يتعب فى طلب الماء ، حتى إذا وجده لم يستعمله ، وبقى متضمخا بالجنائب(٢) » .

ولما كان الحسن الصباح يريد من أتباعه الطاعة المطلقة ، فقد جعل عقيدة « الإمام المعصوم » دأبه ، ونادى بوجوب طاعته وطاعة نائبه « حجته » ، مدعيا أن ذلك هو الشرط الأساسى للدين الحق ، وبهذا تصرف الحسن فى عقول أشياعه ، وكان ذلك التصرف غايته التى يسعى إليها ، كما تمكن بذلك الادعاء من التخلص من سلطان الفاطميين الإسماعيلية بمصر ، وكان هذا التخلص أيضا غرضا أساسيا من أغراضه التى سعى إليها .

وقد بلغ من خطورة الحسن فى تلك الناحية العلمية أن عينت الدولة العباسية السنية كثيرا من العلماء للرد عليه وعلى أتباعه ، فهذا الغزالى ينشر كتابه المستظهرى(٣) أو فضائح الباطنية ، ليرد به على النزارية نظريتهم فى الإمام المعصوم ، والمعلم المعصوم ، وترى كتابه « القسطاس المستقيم » عبارة عن نقاش دار بينه وبين أحد أتباع الحسن الصباح ، ممن يؤمن بنظرية التعليم . كما ترى مناقشات طريفة فى كتابه « المنقذ من الضلال » .

---

(١) المتضمخ : المتلطخ .

(٢) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ١١٩ (طبعة دمشق)

(٣) نسبة إلى الخليفة المستظهر العباسى . وقد نشره وعلق عليه العلامة جولدزيهر

ويقول ابن ميسر (١) : « وادعى (الحسن) أنه استأثر من إمامه بغوامض العلوم ، وفشا فى الملوك والرؤساء اغتياله إياهم ، وقتله لهم . واستدعى الإمام أبو حامد الغزالى إلى نيسابور ، فاستقر بالمدرسة ، وأخذ فى مناظرة أصحاب ابن الصباح ، وألف كتابه المستظهرى ، وأجاب عن مسائلهم » . ولا غرو فقد كان لنشاط الغزالى العلمى ، ضد الحسن الصباح وجماعته ، أثره فى إظهـــار حقيقة أمر النزارية الملأ . يقول الغزالى (٢) : « فهؤلاء جربناهم ، وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام ، وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى التعليم ، بكلام قوى مفحم » .

ويصور الغزالى فى نقاشه مع أحد أتباع الحسن الصباح ، إيمان النزارية فى عهد الحسن ، بمبدأ التعليم ، ومنه نرى اعتناقهم نظرية التعليم من الإمام الغائب أو المستور ، واعتقادهم بأنه يعلم الغيب ، ويطلع على كل ما يجرى فى العالم . كما نرى شيئاً آخر ، هو احتقار النزارية لآراء غيرهم ، ولو كان هذا الغير من كبار العلماء ؛ أنظر النزارى يسفه آراء الغزالى ، حجة الإسلام ، ولا يريد أن يضعها موضع الاعتبار ، ويناقشه فى حدة وعنف ، ثم يقطع حديثه معه بقوله : « فاطو طومار الهذيان » . وإذا كان النزارية يعتبرون آراء الغزالى هذيانا ، فما بالك بآراء غيره من السنيين (٣) !

---

(١) أخبار مصر ، ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) الغزالى : المنقذ من الضلال ، ص ١٢٠ .

(٣) انظر قسم الملاحق ، اتري النقاش الحاد الذى قام بين الغزالى وأحد نزارية الصباح

من هـذا نرى أن الحسن الصباح قد نجح نجاحا منقطع النظير ، فى إقرار الأمور لنزار وأبنائه .

٢ — الحسن الصباح وتنظيم المجتمع النزارى

عمل الحسن الصباح على تنظيم جماعته تنظيما دقيقا ، يضمن لها البقاء الطويل ، فعمل على تغذيتها بالدماء الجديدة القوية ، وتقويتها بالمبادىء الطيبة ، كالسرية والطاعة وغيرهما . وكان أهم ما يمتاز به المجتمع النزارى الذى خلقه الحسن الصباح ، هو أنه أصبح وحدة قائمة بنفسها ، متماسكة تمام التماسك ، حتى كان المستجيب الجديد يشعر بما يشعر به خاصة القوم ، من وجوب التكالب على النهوض بتلك الجماعة ، ومن ثم قسم الحسن جماعته إلى مراتب ودرجات ، وضع فى كل مرتبة من يستطيع البقاء فيها . وجعل التواد والمحبة والأخوة « العامل المشترك » بين أعضاء الدرجات جميعها ، وجعل للأعضاء شروطا ، وحدد لهم حدوداً خاصة بهم ، كما جعل للدعوة الإسماعيلية حدوداً خاصة بها .

(ا) التنظيم المادى ، أو الحدود الدينية عند النزارية :

كان تنظيم المجتمع النزارى ، الذى التف حول الحسن الصباح من أهم ما كان هذا الزعيم يهتم به ، فقد كان يعلم أن مجتمعا كمجتمعه ، الذى امتاز بالثورة على الجميع، عباسيين كانوا أو فاطميين ، يجب أن يعيش فى أمان، ويجب أن يسوده الإخاء ، حتى يستطيع أن يقف على قدميه أمام العداء المضطرد ، الذى كان يحيط بهم جميعا . ومن ثم عمل على تقسيم مجتمعه

هذا إلى مراتب ، أو بالأحرى إلى مدارس ، يتمتع بالبقاء فى كل منها جماعة لهم صفاتهم الخاصة ، وجعل أصحاب هذه المراتب جميعا يتجهون إلى هدف واحد ، هو تقديس إمامهم المستور ونائبه ، أى الحسن نفسه ، وجعل الأخوّة أهم عناصر حياتهم .

ولم يشأ الحسن الصباح أن يجعل جميع أعضاء مجتمعه جنودا يحملون السلاح فى وجه الأعداء ، بل أوقف على حمل السلاح جماعة ممن اشتهروا بالقوة البدنية ، فجعل دأبهم تهديد الأعداء بخناجرهم المسمومة ، وهؤلاء هم الفداوية ، الذين يبذلون أنفسهم رخيصة فى سبيل إمامهم ونائبه . وبهذه الوسيلة استطاع بقية أعضاء مجتمعه ، أن يتوفروا على أعمالهم العمرانية ، زراعية كانت أو تجارية أو صناعية . على أنهم جميعا كانوا ، إن جد الجد ، وحزب الأمر ، يحملون السلاح ، للدفاع تارة ، والهجوم أخرى . وسنرى من استعراض مراتب الدعوة النزارية ، مدى نجاح الحسن فى تنظيم مجتمعه من هذه الناحية المادية ، التى تعتمد فى تصوير هذا النظام على جعل الحسن نفسه شخصية واقعية ، لها مكانتها فى عالم «الدعوة الجديدة» .

مراتب الدعوة النزارية ، أو تقسيم حدود الدعوة

المرتبة الأولى : مرتبة شيخ الجبل .

جعل الحسن الصباح مراتب دعوته المادية محصورة بين المستجيب العادى، ونائب الإمام، أى رئيس «الدعوة الجديدة» ، وجعل عددها سبعا.

وكان الحسن يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة Un Grand Maître ولا غرو فقد أصبح هذا الزعيم الرأس المفكرة للدعوة الإسماعيلية فى فارس وخراسان ، منذ عاد من مصر فى سنة ٤٧٢ م ، وباحتلاله قلعة «آلموت» فى سنة ٤٨٣ هـ ، آلت إليه رياسة الإسماعيلية من الناحية العملية ، وبموت الخليفة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، ومناداته بإمامة نزار ، آلت إليه رياسة الدعوة الإسماعيلية بفارس وخراسان من الناحية الروحية أيضا ، فجمع فى يده ، منذ ذلك التاريخ ، رياســـة الدعوة بشقيها ، العملى والروحى ، فأصبح جديرا بأن يسمى «رئيس الدعوة الجديدة» . وكان مجتمعه الذى صاغه بيديه ، يحتوى على جميع مقومات الدولة ، ويتمتع هو بكل ما كان الملوك والسلاطين يتمتعون به من نفوذ ، ومع ذلك لم يلقب نفسه بلقب ملك أو سلطان .

ومن ألقاب الحسن ، باعتباره رئيس الدعوة النزارية ، لقب «مولانا» ولقب «سيدنا»(١) ، وهذان اللقبان إن دلا على شىء فإنما يدلان على مدى تقديس النزارية للحسن . ومما تجدر الإشارة إليه أن واحدا من خلفاء الحسن ، من الدعاة ، لم يلقب بلقب «السيد» ، أو «سيدنا» ، وإنما كان ذلك وقفا عليه وحده (٢) .

---

(١) رأينا مثل ذلك اللقب عند القرامطة الشماليين خاصة ، أتباع زكرويه بن مهرويه ، الذين كانو يلقبون رئيسهم بالسيد ، وأطلقو على الداعى القرمطى ، القاسم بن أحمد ، لقب « نائب السيد » . كما رأينا النزارية يطلقون على كتاب سيرة الحسن الصباح اسم « ساراجوزاشت سيدنا » ، وينسبون إليه كتابا آخر ، يسمى « هفت باب بابا سيدنا »

(٢) Berchem : Epigraphie des Assassins des Syrie (J. A. 1897), p. 272.

على أن أكثر ألقاب الحسن شيوعا ، وبخاصة خارج نطاق جماعته ، لقب « شيخ الجبل » ، فقد انتشر هذا اللقب فى العالم الغربى خاصة ، حتى لقد أطلقه الصليبيون على مقدم الدعوة النزارية بالشام ، فعبروا عنه بشيخ الجبل[١] Vetus Montes . ونحن نعلم أن لقب « شيخ » يدل على الوقار والرياسة ، كما نعلم أن الحسن الصباح سن لأنصاره سنة الاستقرار فى قلاع قوية فوق قلل الجبال ، فأضحى خليقا بأن يسمى « شيخ الجبل » ، أى رئيس قلاعه[٢] .

وكذلك لما كانت رياسة الدعوة كلها فى يديه ، وأضحى تعيين الدعاة وعزلهم مقصورا عليه ، أطلق عليه بعض لقب « داعى الدعاة » ، غير أنه كان يتمتع بنفوذ يفوق نفوذ داعى دعاة الفاطميين ، فقد كان مركز داعى دعاة الفاطميين قليل الأهمية ، لا يزيد كثيرا عن مركز قاضى القضاة ، ويستمد نفوذه من رجال الحكومة ، وغالبيتهم من غير الإسماعيلية . أما الحسن الصباح ، فكان سلطانه لا يحد ، فلا يستمد السلطان من أحد ، بل كان يلقى أوامره فى آلموت ، فيتلقفها الإسماعيلية فى جبال لبنان ، وفى كافة أنحاء مملكته الشاسعة .

---

(١) الشيخ : يستخدم هذا اللفظ لرؤساء القبائل العربية ، ورؤساء الطوائف الدينية ، وبخاصة المتصوفين والدراويش. وقد انتشر اسم « شيخ الجبل » فى عامة آسيا ، وترجمه الأوربيون بكلمة عجوز الجبل The Old Man of the Mountain وهذا خطأ بالطبع ، لأن المقصود رئيس القوم وسيدهم ، لا عجوزهم ومسنهم .

(٢) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins, pp. 89-90

ولا نشك فى أن الحسن الصباح كان يلقب نفسه فى عهد المستنصر بلقب «حجة الإمام»، لأن هذا الخليفة جعله - كما رأينا - حجة على خراسان. كما لا نشك فى أن كثيرا من ألقاب التعظيم هذه، إنما سمى بها بعد استقلاله عن مصر، فقالوا فيه: مولانا، وسيدنا، ورئيس الدعوة، وغير ذلك. وإن فى تلقيبه هذه الألقاب، ما يشعرنا بانفصاله عن إسماعيلية مصر، وتكوينه قوة مستقلة لها كيانها الخاص. وقد ساعده على ذلك ما ادعاه أولا أنه «حجة الإمام» الظاهر - المستنصر - ثم ادعاؤه بعد ذلك أنه حجة الإمام المستور، نزار وأبنائه، وأنه لسان الإمام الناطق.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الحسن جعل وظيفة رئيس «الدعوة الجديدة»، مقصورة على المتفانين فى الإخلاص للمذهب الإسماعيلى، الذين وصلوا إلى أعلى درجاتهم. ولم يجعل لمبدأ الوراثة أى اعتبار فى التمتع به، ولذلك عين بعده أحد هؤلاء المخاصين للدعوة، المتفانين فى طاعة مذهبهم ورؤسائهم، فدل بعمله هذا على رغبته فى إيجاد حكومة أخوية، يسودها الوفاق والإخلاص للمذهب.

ولا يبعد أن يكون «الحسبتارية» والداوية الصليبيين، قد أخذوا نظامهم الأخوى عن ذلك النظام الصباحى البديع، الذى صاغه الحسن بيديه. والحق أن الحسن أوجد نظاما ولم يوجد دولة، كدولة الفاطميين أو العباسيين، التى أفسدت الشكليات حكومتها. يقول دوزى[١]: إن إمبراطورية الحسن لم تكن إمبراطورية عادية، كإمبراطورية الفاطميين مثلا، بل هى نظام أخوى

---

(١) Dozy ; Essai Sur l'Hist. de l'Islamisme, p. 303

له دستوره الخاص ، وجميع شئونه موضوعة فى يدى رئيسه .

ولما كان رئيس الدعوة النزارية ـ الحسن ـ قد وصل إلى أعلى درجاتها ، لم يعد فى نظر أشياعه شخصا يخضع لنواميس الشرائع التى خلقت للعامة ، بل أصبح له مطلق الحرية فى أن يفعل ما يريد ، ما دام قد تخطى حدود العامة ، الذين من أجلهم نزلت الشرائع والتكليفات ، ولكن الحسن ، على الرغم من هذا كله ، كان يعمل على سيادة المبادىء الإسماعيلية والتكليفات الشرعية بين الأتباع ، ماذلك إلا لأنه قد أدرك ببصيرته أن الإلحاد ، وإن كان قوة هدامة ، لا يمكنه الإبقاء على العروش التى يقيمها ؛ فهاهى دولة القرامطة الملاحدة ، تذوب كأن لم تغن بالأمس ، وها هم الملاحدة الثوار ، الذين ثاروا على العباسيين ، كبابك الخرمى وأضرابه ، ينجحون لحد كبير ، ولكن إلحادهم نفسه كان وبالا عليهم فى نهاية الأمر .

ولما كان الغرض الذى يسعى إليه الحسن هو تأسيس دولة ثابتة الدعائم ، لتبقى ما بقى الدهر ، فانه نشر بين جماعته التظاهر بالتقشف والورع ، والمحافظة على ظواهر الشريعة الإسلامية ، فقتل أحد أبنائه لاتهامه بشرب الخمر ، وقتل الآخر لاتهامه بالقتل ، وطرد رجلا من خيرة أتباعه من قلعة آلموت ، لأنه كان يطرب بمزماره فيها . كما عود نساءه غزل الصوف ، ليقتتن من عمل أيديهن ، وغير ذلك كثير . وكان لهذا كله أثر فى سياسة خليفتيه الداعيين ـ الكيا بُزُرْجُميد (٥١٨ - ٥٣٢ ﻫ) ، وابنه محمد الأول (٥٣٢ — ٥٥٧ ﻫ) ، مع أنّ الغرض الأساسى لأولئك الذين كانوا يديرون دفة شئون النزارية ، إنما هو النهوض بالدعوة

الجديدة على أنقاض المذاهب السنية (١) .

من هذا نرى أن الحسن الصباح ، رئيس الدعوة النزارية ، قد جمع في يديه إدارة شئون الدعوة والدولة معا ، فبينما هو يتمتع برياسة الدعوة من عامة نواحيها ، إذا به يتمتع برياسة دولة النزارية وحكومتها ، في فارس وخراسان والشام ، بل وفي الهند أيضا .

المرتبة الثانية : كبار الدعاة .

إن كانت رياسة الدعوة مقصورة على صاحب المرتبة الأولى ؛ فوظيفة كبار الدعاة مقصورة كذلك على ثلاثة من كبار رجالها ، ممن يثق الحسن الصباح بهم ثقة تامة ، وذلك أن الحسن الصباح ، قسم العالم الإسماعيلي النزاري إلى أقسام ثلاثة ، وأخذ يعمل على ترويج الدعوة بها جميعا ، كما جعل على رأس كل قسم منها ، واحدا من هؤلاء الثلاثة الرؤساء ، فوضع في كل من إقليم الشام وإقليم قوهستان بخوزستان، وإقليم رودبار ، جنوبي بحر قزوين ، داعيا كبيرا . ولم يترك الحسن لهؤلاء شيئا من الحرية والاستقلال ، بل ظل الرأس المفكرة التي يخضع الجميع لها (٢) .

وكان الحسن يطلق على كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة لفظ «بحر» . فالداعي الكبير (٣) إذن ، هو الذي يتولى رياسة الدعوة دينيا وسياسيا في إقليمه الخاص ، أو في «بحره» الذي يعينه فيه كبير الدعوة ، ويخضع

(١) Von Hammer's Hist. of the Assassins (Arabia and Mahomet), p. 11.

(٢) البستاني : دائرة المعارف — لفظ إسماعيلي (ج ٢ ص ٦٢٩)

(٣) O'Leary : A Short Hist. of the Fatimid Khaliphate, p. 213.

مباشرة لآلموت ، لا للقاهرة . وفى ذلك التعيين الدليل الساطع على استقلال الحسن الصباح عن إسماعيلية مصر ، وعلى الأخص منذ عهد المستعلى ، وانفراده بالسلطة وحده ، ولا بد أن تكون تلك الوظيفة قد وجدت فقط بعد موت المستنصر (٤٨٧ ﻫ) . والداعى الكبير فى عهد الصباح ، أشبه بالوالى تام الولاية عند السنيين . ومن أشهر كبار الدعاة النزارية الكيابزرجميد فى إقليم رودبار ، والحسين القينى فى إقليم قوهستان ، وأبو طاهر فى إقليم الشام . ومن هؤلاء كان ينتخب «شيخ الجبل» وبخاصة فى عهد الدعاة .

المرتبة الثالثة : الدعاة .

وتقتصر هذه الرتبة على كل من يوثق فى عقيدته وطاعته من النزارية ، ويكون قادرا ـ فى الوقت نفسه ـ على نشر مبادىء الدعوة الجديدة ـ الدعوة النزارية ـ ، ويأمره بذلك من هم أعلى منه رتبة ، أى رؤساء الدعوة فى آلموت ، أو كبار الدعاة فى عواصم «البحار» الإسماعيلية المشهورة . ويكوّن الدعاة الدرجات العليا من درجات «الدعوة الجديدة» ، ويصلون فى تعمقهم الدينى والمذهبى ، إلى المعرفة الحقيقية لأسرار المذهب الإسماعيلى النزارى ، وإلى إدراك الغاية السياسية منه (١) . وهؤلاء الدعاة أيضا أكثر عددا ممن يصل إلى المرتبة السابقة ـ رتبة كبار الدعاة ـ .

وبعد أن كان الكثيرون يأخذون قسطهم العلمى فى مدارس القاهرة ، أى فى مجالس الحكمة بها ، أو على الأقل ينهلون من رجال تعلموا بتلك المدارس ،

---

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 206

أصبحت قلعة «آلموت» هى المركز الأساسى لتخريج هؤلاء الدعاة، توجههم كيفما شاءت؛ ولا غرو فقد أضحى نائب الإمام المستور، مستقرا بها، منذ سنة ٤٨٨، إلى سنة ٥٥٩ هـ، وستصبح مقرا للإمام النزارى نفسه بعد سنة ٥٥٩ هـ.

وعلى أية حالة، فإن الدعاة النزارية «هم الذين اعتنقوا مذهبهم النزارى، وخضعوا خضوعا تاما للسلطة الدينية والمدنية، التى يتمتع بها الرئيس النزارى الأكبر فى «آلموت»، وهم الذين يدعون الناس إلى مذهبهم، ويرشدونهم إلى طريقتهم»[1]، أو هم - كما يقول دوزى - الرؤساء المستجيبون[2]. ولا يمنح هذا اللقب (الدعاة) إلا «لمن سبق أن تدرج فى مراتب الجمعية السرية»[3].

والحق أن الحسن الصباح قصر عمل الداعى على بث «الدعوة الجديدة»، وعلى قبول المستجيبين إليها، وإعطائهم العهود، وأخذ المواثيق عليهم. وليس من شك فى أن دعاة النزارية كانوا يستقرون مع كبار دعاتهم فى عواصم الأقاليم النزارية الرئيسية[4]، كما أن كبار الدعاة كانوا يختارون من بين الموهوبين من هؤلاء الدعاة. على أن دعاة النزارية لم يكونوا يتمتعون بتلك المكانة التى كان يتمتع بها زملاؤهم فى عصر

---

(١) التاليد فى مذهب أهل التوحيد (نشر ميخائيل شاروبيم)، ص ١٠

(٢) Dozy : Essai sur l'Hist. de l'Islamisme, p. 303

(٣) سيد أمير على: تاريخ العرب والتمدن الإسلامى، ص ٧٤)

(٤) Sykes ; History of Persia, vol. ii, p. 38

الفاطميين، أو بالأحرى، دعاة «الدعوة القديمة»، حتى أن اسم «داع» قد غير وبدل، وحل محله اسم [معلم]، وهكذا، بمضى الزمن، أصبحت تلك الأسماء رمزية فقط؛ فوظيفة الداعى المعروفة فى كتب الإسماعيلية النزارية حل محلها وظيفة المعلم، أى المعلم الدينى (١). بل لقد كادت الدعوة التى كان يقوم بنشرها الدعاة عند الفاطميين، أن تقف وتتعطل عند النزارية، اللهم إلا فى مناسبات قليلة، كما لو أرسلت آلموت دعاتها، أو بالأحرى معلميها الدينيين، إلى بلاد الهند مثلا.

والحق أن الحسن الصباح اشترط فى الداعى أو المعلم الدينى «أن يكون بارعا فى التشكيك، ماهرا فى التلبيس، مقتدرا على إشراب القلوب مطالبه» (٢). ومهما يكن من أمر، فإنه بفضل هؤلاء الدعاة النزارية، انفصلت فارس والشام، من الناحية المذهبية، عن «الدعوة القديمة»، وبفضل هؤلاء الدعاة النزارية أيضا، أخذت الدعوة طريقها إلى بلاد الهند؛ فكان الأغاخانية ـ أتباع أغا خان ـ غرس يد هؤلاء الدعاة.

المرتبة الرابعة: الرفاق Campanions

وتلك الطبقة تفقهت فى أصول المذهب الإسماعيلى تفقه جماعة الدعاة المأذونين بنشر الدعوة سواء بسواء، إلا أنهم لم يؤمروا بنشرها، فالأولون دعاة مأذونون بنشر الدعوة، أما الرفاق فإنهم دعاة لم يؤذن لهم بعد بنشرها. ويتلخص عمل الرفاق فى التفانى فى المحافظة على جماعتهم ومذهبهم، ولا يمكنهم الوصول إلى مرتبة الدعاة إلا بالتدريج، وبعد

---

(١) Ivanow : Kalami Rîr, p. xiix

(٢) الأفغانى: الرد على الدهرية (ترجمة الشيخ محمد عبده)، ص ٤٠

اختبارات عنيفـة طويلة الأمد (١) . ويظهر أن الرفاق كانوا يكونون الطبقات الدينية الدنيا من الدعاة المأذونين. وهكذا يعتبر الرفاق مستودعا هاما للدعاة ، بحيث لا يختار الداعى المأذون من بينهم إلا بعد أن يبرهن على قدرته وصلاحيته للقيام بالدعوة وتفهم أغراضها ومراميها .

المرتبة الخامسة : الفداوية

وهم الذين كان الحسن الصباح يستخدمهم فى قتـل أعدائه ومنافسيه غـدرا ، وهم الذين يضحون أنفسهم فداء لرئيسهم . وهـذا النوع من المستجيبين ، إنما اخترعه الحسن الصباح ، ليربط نفسه وعرشه بسواعدهم المفتولة . ولا يشترط فى الفداوية التعمق فى دراسة أسرار المذهب النزارى ، وإنما يشترط فيهم التفانى فى طاعة رئيسهم ، بحيث يضحون بأنفسهم فى سبيل تحقيق تلك الطاعة .

وقد استطاع الفداوية أن يكونوا آلة انتقام فتاكة ، كما استطاعوا أن يخلقوا عصرا مليئـا بالخوف والفـزع . وما أحسن ما وصفهم به براون (٢) حيث يقول : « هم ملائكة النقمة ، وأداة الانتقام الفعالة فى يد رؤساء النزارية » . ويقول فون همر (٣) فى هذه الطبقة : إنها تجهـل المذهب السرى للدعوة الجديدة ، ولـكنها السلاح الفعال ، والآلات الفتاكة فى أيدى رؤسائهم ، ليحققوا بهم رغباتهم وآمالهم .

وأهم ما يميز تلك الطبقة اتصاف أفرادها بالشجاعة النادرة المثال ،

---

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 206

(٢) Ibid.

(٣) Von Hammer : Arabia & Mahomet, p. 11

والقدرة على التغلب على الصعاب والمخاطرات ، التى يواجهونها أثناء تأدية وظائفهم وسفاراتهم الدموية. وكانوا يتمتعون بعزيمة لا تقهر، وصبر لا حد له[١]، ولا بدع فى ذلك، فقد يبقى الواحد منهم شهورا ، بل سنين، يترقب الفرصة ليفتك بغريمه ، وليس هذا فقط ، بل يجب أن يكون الفدائى من الشبان الأقوياء ، القادرين على رياضة الجسم وإعداده للملمات ، كما يجب أن يكون قادرا على تعلم لغات عدة ، إن اقتضت ظروفه ذلك، وأن يكون مستعدا للموت فى سبيل تحقيق آمال سيده رئيس الدعوة. « فالحياة عنده لا تقارن بالسعادة الدائمة التى أعدت له إن أطاع ، وأن سقوطه قتيلا فى سبيل دعوته ورئيسه ، لمنتهى السعادة والشرف ، له ولأبنائه والمقربين إليه » [٢].

وبذلك نرى أن الإغراق فى تعلم أصول « الدعوة النزارية » لم يكن من برامج هذه الطائفة - على ما سبق القول - وإنما ينصب برنامجهم الرئيسى على إجادة استخدام الخنجر ضد المعارضين [٣] . فكان من أثر ذلك أن نشر هؤلاء الرعب والهلع اللذين كان يفزع لهما الملوك من فوق عروشهم[٤].

وهذا الصنف من المستجيبين لم يكن موجودا قبل ظهور « الدعوة الجديدة » ، الأمر الذى يميز النزارية عن سواهم ، فقد كان العنصران الرئيسيان عند غير النزارية من طوائف الإسماعيلية، هم الدعاة والرفاق، أما

---

(١) Lockhart : Hasan-i-Sabbah (B.S.O.S. 1928-30), p. 680

(٢) St. Guyard : Un Grand Maître des Assassins, p. 23

(٣) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 97

(٤) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 202

النزارية فإن أهم عنصر لديهم هم الفداوية . والحق ان الحسن الصباح كان يركز سياسته حول أمرين اثنين : أولهما ، الاستيلاء على القلاع ، وقد نجح فى ذلك نجاحا يحسد عليه ، وثانيهما الاعتماد على خناجر الفداوية ، وكان نجاحه فى هذا الغرض أعظم من نجاحه فى الغرض السابق .

ومما لا ريب فيه أن الحسن الصباح أدرك بثاقب ذهنه نجاح الدعوة المحدود فى آسيا، فى عهد الإمام المستنصر، الخليفة الفاطمى ، وقبل عهده . فرأى ألا يكتفى فقط بنشر المذهب السرى كالفاطميين ، حيث لا يملك الرؤساء سوى الحيلة والذكاء ، دون السواعد والأيدى الباطشة . كما أدرك أيضا أنه على الرغم من نجاح مدارس الدعوة بالقيروان والمهدية ثم القاهرة ، وعلى الرغم من نجاح الإسماعيلية فى إضعاف العباسيين ، على الرغم من هذا كله ، فإن الإسماعيلية لم يتمكنوا من مد نفوذهم على ما كان يجب أن يكون لهم من بلاد ، فرأى الحسن إذن ، أن يوجد جماعة مخلصة لرؤساء الدعوة ، همها السيف والفتك بالعدو فقط (١) ، وهذه الجماعة وجدها فى الفداوية . ولا غرو فهم الخلاصة المتبلورة من دعاة الأبى هاشمية ، الذين قلبوا العرش الأموى، وأقاموا الدولة العباسية، لكنهم لم يعملوا كدعاة أو كمعلمين، وإنما كانت غايتهم تنفيذ أوامر رئيسهم الأكبر Le Grand Maître من القتل غيلة ؛ ولهذا كان الفداوية من أخطر الفرق السرية فى العالم (٢) .

---

(١) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins. p. 86

(٢) O'Leary : A Short Hist. of the Fatimid Caliphate, p.214

المرتبة السادسة : اللاصقون .

ينتسب هؤلاء اللاصقون إلى الدعوة الإسماعيلية ، ولم يكن لهم عمل الدعاة أو عمل الفداوية ، فهم يأخذون العهد على الناس ، دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة ، كما أنهم المستودع الهام الذى ينتخب منه الفداوية [١] ، وإذن فإنهم يدربون على الاستعداد للدخول فى مرتبة الفداوية ، ومن ثم لم يكن مطلوبا منهم أن يتوغلوا فى معرفة أسرار المذهب ، فلا يعرفون منها إلا القليل ، لذلك يقول براون [٢] : « إن اللاصقين هم الذين يأخذون العهد على المستجيبين ، دون أن يفهموا كثيرا من أسس المذهب » .

ويرى بعض من العلماء غير ما ذهبنا إليه ، فيعتقدون أن مركز اللاصقين من الدعوة أسبق فى الترتيب من مركز الفداوية ، فهم لهذا أكثر معرفة بأسرار الدعوة من الفداوية أنفسهم [٣] .

المرتبة السابعة : المستجيبون .

يكون المستجيبون المرتبة الأخيرة من مراتب الحدود الدينية عند النزارية ، فهم العامة Peuple ، أو المؤمنون Fidèles المبتدئون [٤] . وليس صحيحا ما ذهب البستانى إليه فى تفريقه بين العامة والمبتدئين [٥] ،

---

(١) Dozy : Essai. p. 305

(٢) Browne : Lit. Hist. vol. ii, p. 206

(٣) Ibid.

(٤) Dozy : Essai, p. 306

(٥) البستانى : دائرة المعارف ، ج ٣ ص ٦٢٩

إذ أن المبتدئين هم العامة لا سواهم ، وهم جميعا يكونون مرتبة واحدة من حدود الدعوة ؛ هي المرتبة الأولى ـ من مراتب المستجيبين. وعلى الرغم من أنهم لم يعرفوا الكثير عن المذهب الإسماعيلي ومبادئه وأسراره ، فإن عملهم الرئيسي كان ينصب على زعزعة عقائد الناس ، ممن يخالفونهم في المذهب (١) .

وبهذا النظام البديع في تكوين حدود المجتمع النزاري ، استطاع الحسن أن يجعل منه قوة متماسكة ، فنجح في أن يحقق كل ما كان الإسماعيليـــة الأوائل يسعون إلى تحقيقه ، من تكوين مجتمع إسماعيلي لا يعرف أسراره إلا القليلون ، بينما يخضع السواد الأعظم لهؤلاء القليلين خضوعا أعمى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تمكن الحسن الصباح ، بفضل ذلك النظام ، وبفضل تكوينه جماعة الفداوية المخاطرين ، من أن ينشر الاغتيال السياسي المنظم ، ذلك الاغتيال الذي كان له أثر يفوق أثر الجنود المنظمة ، والجيوش الجرارة في الدول الكبرى .

ومما هو جدير بالذكر، أن الحسن الصباح عنى كعامة فرق الإسماعيلية بالعدد سبعة ، فجعل حدود دعوته الدينية سبعة ، كما رأينا ، وجعل حدود دعوته الروحية ، ومراحل هذه الدعوة سبعة كذلك . وظل هذا النظام البديع ، الذي وضعه الحسن الصباح ، نبراسا يهتدي النزارية بهديه ، طيلة حكمهم الطويل (٤٨٨ — ٦٥٤ هـ) .

---

(١) Taylor: Hist. of Mohammedanism, p. 219

ب — تربية الفداوية وتسميتهم

(١) تربية الفداوية .

يعتبر نظام الفداوية بدعة القرن الخامس الهجرى ؛ فقد ابتدع الحسن الصباح فى تربية الفداوية نظاما وصل بهم فى النهاية إلى الاعتقاد بأن رؤساءهم يفوقون البشر، فطاعتهم إذن واجبه . وكان يؤتى بأولئك الذين أعدوا ليكونوا «فداوية» أطفالا أو صبيانا صغاراً ، ويربون فى منازل الدعاة والرؤساء الروحانيين ، أو بالأحرى فى منازل خاصة بهم ، وكانت تربيتهم تقوم على تعليمهم حب المخاطرة ، واحتقار الحياة الدنيا التى لا تعد شيئا مذكورا ، بجانب الحياة الآخرة ، وما فيها من نعيم دائم ، فالدين الصحيح عند هؤلاء ، هو التفانى فى بذل نفوسهم رخيصة فى سبيل طاعة رؤسائهم .

يقول البستانى[1] : «كانوا يربون منذ نعومة أظفارهم، منحصرين فى منازل الرؤساء ، تحت نظارة الدعاة ، فيعلمونهم أن سلامهم متوقف على فداء أنفسهم . وأن أقل مخالفة تكون سببا فى وقوعهم تحت العقوبة والمسئولية إلى الأبد ، وإن لم يبد منهم مخالفة يكون جزاؤهم الجنة» .

وقديما سلك أبو سعيد الجنابى + ٣٠١هـ ، مؤسس دولة القرامطة فى بلاد البحرين ، ذلك المسلك فى إعداد جيشه ، ولكن الحسن الصباح وخلفاءه ، عنوا بالناحية الروائية من الموضوع عناية خاصة ، فعملوا على

---

(١) دائرة المعارف ، ج ٣ ص ٦٣١ .

إعداد هؤلاء الفتيان لمجابهة كل أنواع المخاطر، وأتقنوا معهم فنون التخفى، حتى كان الواحد منهم يمثل دور التلميذ أحيانا، ودور التاجر، أو الصوفى، أو الجندى، أو القسيس، أو ما إلى ذلك، أحيانا أخرى.

وقد زاد براون (١) هـذا الأمر وضوحا فقال: إن الفداوية كانوا يدربون التدريب الكافى على استعمال السلاح، وتحمل المشاق، وإجادة التخفى، وفوق ذلك كله، كانوا يتدربون على معرفة اللغات الأجنبية، حتى الأوربية منها. وكان هؤلاء الفداوية مغرمين بتمثيل أدوارهم فى شكل روائى، فيقتلون الأمراء السنيين فى أيام الجمع وفى المساجد، كما يقتلون الدوق، أو الأمير المسيحى، فى الكنيسة تحت سمع المجتمع وبصره.

وقد يتساءل المرء عن الكيفية التى مكنت الحسن الصباح وخلفاءه من جعل أولئك الزراع البسطاء، وسكان الجبال الأجلاف، شجعانا يضرب بهم المثل فى شجاعتهم، فلا يخافون الموت أو يرهبونه؟ والجواب على ذلك، أن الحسن الصباح جعل جميع أتباعه يؤمنون بأنه إنسان يفوق البشر عامة، ويستطيع الإتيان بالمعجزات، وفوق ذلك، فهو حجة الإمام، الذى يمتص منه العلم والمعرفة.

والحق أن الحسن الصباح كان قادرا على الإتيان بالحيل التى تشبه المعجزات، مما زاد فى انجذاب الناس إليه. حتى لقد رمى بأنه حين طلب منه بعض أتباعه أن يقيم لهم برهانا على حضور الإمام نزار، قال لهم: «الآية فى ذلك، أن يطلع القمر فى غير وقته، ومن غير مطلعه»، ثم عمد إلى جبل هناك مرتفع شاهق، وأخذ شيئا شبيها بالدَّن (٢)

Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 209. (١)

(٢) الدَّن. وعاء كبير، كالبرميل.

الكبير ، عمل خلفه ضوءا ورفعه ، فلما رأوه بشر بعضهم بعضا بالإمام [١] » . فكان تمثل ذلك الادعاء ، وهاتيك الشعوذة ، وما تلقنه هؤلاء الفداوية فى صغرهم من معلميهم ومرشديهم عن صفات الحسن الصباح الخارقة للعادة ، كان كل هذا من العوامل التى جعلت الفداوية يتسابقون فى طاعته وطاعة خلفائه من بعده .

ويذهب الكثير من المؤلفين ، شرقيين وغربيين ، إلى القول بأن الحسن الصباح لجأ فى إغواء الفداويين ، والتأثير فى أذهانهم إلى إيهامهم أنه نبى ، بل إلى أنه أرفع درجة من النبى، فجعل معلموهم يلقنونهم أن باستطاعة الحسن إدخال من يشاء منهم الجنة ، التى وردت فى القرآن الكريم ، وأداه ذكاؤه الخارق . إلى تكوين حدائق ملأها بكل ما ورد فى القرآن عن الجنات التى وعد بها المتقون . . . ولما كان الحسن على علم كبير بالطب. وبخصائص بعض النباتات، فقد أجاد فى صنع مخدر يتناوله هؤلاء الشبان ، ثم يحملون إلى تلك الحدائق ، فإذا رأوا مافيها ، أيقنوا أنهم بالجنة ، ثم يعودون بعد تناولهم المخدر، لثانى مرة، إلى مكانهم الأول، فيسرد عليهم الرئيس كل مارأوه فى تلك الحدائق ، ويسردون هم لزملائهم ما شاهدوا , فيزدادون جميعا اعتقادا فى نبوته ، بل فى ألوهيته .

وقد كان لما ذكره ماركو بولو الرحالة الأوربى البندقى ، الذى عاصر النزارية ، عن ذلك الموضوع أثره الكبير ، فطفحت به

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط بدار الكتب المصرية) ، جـ ١٢ ورقة ٦٩ ، متشبها فى ذلك بالمقنع الخراسانى ، الذى ثار على العباسيين فى عهد الخليفة الثالث ، المهدى .

الكتب ، وامتلأت بالتعليق عليه ، الأمر الذى زاد تاريخ الفداوية وضوحا وجلاء ، وذلك أن ماركو پولو ، وصف إخلاص الفداوية لسادتهم من رؤساء «آلموت» ، وخصوصا أيام رئيسهم السابع ـ الإمام علاء الدين (٦١٨ — ٦٥٣ هـ) ، فقال : إن شيخ الجبل أنشأ فى واد بين جبلين ، بالقرب من «آلموت» ، أجمل حديقة يستطيع العقل البشرى تصورها ، وجلب إليها جميع أنواع الفواكه الجميلة الموجودة فى العالم ، كما أقام بها القاعات الفخمة ، والمقاصير الآخذة بمجامع القلوب ، فكانت مموهة بالذهب ، ومزينة بصور كل ماهو جميل فتان . زد على ذلك ما أنشأه فيها من قنوات يجرى فى بعضها الخمر وفى بعضها اللبن ، وفى البعض الآخر العسل أو الماء الشهى [1] ، وهناك أيضا نساء وفتيات [2] ، وقد جعل شيخ الجبل القوم يعتقدون أن هذه الحديقة هى الجنة بعينها ، فبناها على النمط الذى ذكره الرسول للعرب ، ووعدهم بأنها من نصيب المتقين ، وفيها فوق ذلك ، الحور العين ، والغلمان «كأنهم لؤلؤ مكنون» ، وبهذه الوسائل اعتقد النزارية أن هذه هى الجنة نفسها الواردة فى القرآن الكريم .

وكان شيخ الجبل ـ كما وصفه ماركو پولو ـ يبقى بقصره فى آلموت غالبا ، أو فى معسكر خاص ، جميع الشبان ، الذين اختيروا ليكونوا فى طبقة الفداوية ، ولم يكن يقل عمر الواحد منهم عن اثنى عشر عاما ، ولا يزيد على

(١) يتمثل بقول الله تعالى فى الجنة : «مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات» سورة محمد ، آية ١٥ .

(٢) لقوله تعالى : «وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون» سورة الواقعة آية ٢٢ ، ٢٣

العشرين ، وكانوا ممن تبدو عليهم المقدرة الزائدة على حمل السلاح . كما كانوا يلقنون كثيرا عن الجنة التى وصفت فى القرآن ، بحيث يطابق ما ورد فى القرآن عنها جميع أوصاف حديقة شيخ الجبل ، وكان الرئيس النزارى ـ الحسن الصباح وخلفاؤه ـ يستخدم أبرع الوسائل لإيصال أولئك الشبان إلى الحديقة . فيحملون إليها ، حسب ما يريد هو ، فتارة يكونون أربعة ، وتارة عشرة . وأخرى عشرين .

والطريقة التى يسلكها شيخ الجبل مع الفداوية ، هو إحضارهم إلى منزله ، ثم يجلسهم فى حضرته ، ويتسامر معهم ، ويعطيهم بعد ذلك مشروبا مخدرا ، يسقطون بعده نياما ، فيحملون إلى الحديقة ، ويوقظون هناك ، فيرون أنفسهم فى تلك الحديقة التى سبق وصفها ، فيعتقدون أنهم فى الجنة ... ويجدون هناك كل ما تصبو نفوسهم إليه ، ويودون البقاء فيها مدى الحياة ، ولكنهم سرعان ما يغادرونها رغم أنوفهم ، فينوّمون من جديد ، ويحملون إلى دار رئيسهم ، وإلى المجلس الذى كانوا فيه ، فإذا ما أفاقوا وجدوا أنفسهم فى نفس المكان الذى كانوا فيه من قبل ، وإذا سألهم الرئيس عن المكان الذى كانوا به ، أكدوا له أنهم كانوا بالجنة التى وعد بها المتقون . ثم يندفعون يقصون ما رأوا ، كل هذا وشبان القصر الآخرون واقفون ينصتون ، فيزداد الجميع تحرقا ورغبة فى الذهاب إلى هذه الجنة ، فيلتهب شعورهم ، ويستعدون للموت كى يذهبوا إليها ، ويشتاقون جميعا إلى اليوم الذى يموتون فيه ليدركوها .

ويلجأ شيخ الجبل بعد ذلك إلى طريقة التجربة ، فاذا ما أراد قتل

رجل عظيم ، أخذ يوفد هؤلاء الشبان إلى الجهات المجاورة ، ويعين لهم فريسة يختارها بنفسه ، ويرسل وراءهم جواسيسه . ليروا أى الشبان أقدر على القيام بتنفيذ المهمة المقبلة ، فاذا ما انتهوا من مهمتهم الأولى ، عادوا جميعا إلى قصر رئيسهم ، فيختار منهم من يقوم بقتل ذلك الرجل العظيم ، الذى يريد قتله ، ويخبرهم أنه إنما أمرهم بذلك ليرسلهم ثانية إلى الجنة التى تمتعوا بها حينا ، ثم يقول لهم : «إذهبوا واقتلوا فلانا ! فاذا مُتّم فإنكم لا محالة ذاهبون إلى الجنة » . وكم يكون عظيما سرور من يقع عليهم الاختيار لتنفيذ رغبة الرئيس النزارى ! . وهكذا لا يمكن لكائن من كان أن يفر من الموت إن أراد شيخ الجبل قتله [١]. هذا ، وكان شيخ الجبل يقتل الفداوية الذين يعودون سالمين بعد أداء سفاراتهم الدموية [٢].

ولكن أمن الممكن أن يكون كل ما ذهب إليه ماركو بولو صحيحا ؟ يرى ما لكولم[٣] وغيره من المؤرخين أن ذلك محض افتراء ، ويستدلون على هذا بأن الحسن الصباح كان يقتل شاربى الخمر ، فلا يعقل إذن أن يبيح شرب المخدرات ، التى أطلق عليها المؤرخون اسم «الحشيش» . ولكن فات هؤلاء العلماء أن الحسن الصباح كان رجل سياسة ، لا رجل دين فقط ، وأنه لجأ إلى التظاهر بالتدين لينال مآربه كاملة فى جذب الأشياع . وفاتهم كذلك أن ينصتوا لأقوال العلماء الشرقيين القدماء خاصة ، حيث قالوا فى الحسن الصباح : «وكانت سيرته فى دعاته ألا يدعو إلا غبيا

---

(١) Ricci : The Travels of Marco-Foolo. pp. 50 — 52

(٢) Ibid.

(٣) Malcolm : The History of Persia, vol. ii, p. 245.

لا يفرق يمينه من شماله ، ومن لا يعرف أمر الدنيا ، ويطعمه الجوز والعسل والشونيز حتى تنبسط دماغه » (١).

وإذن فإن إعطاء المخدر ، أيا كان نوعه ، كان يعرفه عند الدعاة النزارية ورئيسهم الحسن . على أننا نوافق مالكولم فى أن تعاطى ذلك المخدر «الحشيش» كان محرما على العامة من الإسماعيلية . ومن المحتمل جداً أن يكون امتلاك تلك المادة مقصورا على الحسن وحده ، وعلى قليل ممن يثق بهم ، ولا نستبعد ذلك على الحسن الصباح ، لأنه كان على شىء كبير من معرفة خصائص النبات - على ما تقدم القول - .

والشىء الذى لا يمكن إنكاره ، هو عظيم تأثير الحسن فى أتباعه ، ذلك التأثير الروحى ، الذى ساعده على تنفيذ مآربه السياسية ، ولكن لا يبعد عليه أن يضيف إلى ذلك التأثير الروحى تأثيرا ماديا آخر ، خصوصا بعد ما رأينا بعض رجال الدين فى الشرق - الوهابيين - والغرب - البابوات - يبيعون لأتباعهم القصور الفخمة والضياع الواسعة فى الجنة (٢) وأن هؤلاء كانوا يجدون كل تصديق وتضحية من أتباعهم .

ولم يكن هذا كل ما كان الحسن الصباح يفعله فى تربية الفداوية ، فقد أخذ على عاتقه تأليف الكتب فى طرق تربيتهم ، وفى الوسائل الأخاذة التى

(١) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ، ص١١٧ .

(٢) يرى جويار فى كتابه (Un Grand Maître, p. 22) ان أحد الوهابيين طعن رئيسا من رؤساء العرب بالقرب من البصرة ، ولم يشأ أن يعيش بعد فريسته ، فقتل نفسه ، وهو يقبض فى يده على ورقة ، فيها أن رئيس الوهابية باعه بحياته قصرا من زمرد ، وعددا من الحور العين ، فى أحسن بقعة من بقاع الجنة .

تحببهم إلى رياسة الدعوة ، وتدعوهم إلى الإخلاص والطاعة ، الأمر الذى ساعد أولئك البسطاء على أن يكونوا - كما قال جويار [١] - آلة انتقام رهيبة فى يد الرؤساء النزارية .

وفى الحق أن الجماعتين الخطيرتين اللتين تعرض الإسلام لهما ، وهما النزارية والصليبيون «الفرسان» ، كانت كل منهما تخضع خضوعا لا حد له لرؤسائها الروحيين ، فلم يكن للسواد الأعظم ولا للعامة منهم إلا أتباع أوامر الرؤساء . وإذا صدقنا أن البابا إربان الثانى ، وغيره من البابوات ، أعلنوا أن من يسقط من الصليبيين فى القتال قيد فى المملكة الألهية The Kingdom of Heaven ، وأن أثر ذلك الإعلان كان عظيما بين الصليبيين ، إذا صدقنا هذا ، فلم لا نصدق ما ذهب البعض إليه ، من القول بأن الحسن الصباح كان يوهم أتباعه بجنة يتمتعون بها ، وأنه اعتمد فى البرهنة على دعواه هذه بأمور مادية ، هى ما رأيناها ؟

على أن القتل الذى برع الفداوية فيه ، لم يكن للانتقام وحده ، بل كثيراً ما اتخذه الحسن وسيلة لإرضاء الأصدقاء ، والحصول على الأموال يملأ بها خزائنه . وكان النزارية ينظرون إلى من يقتل من الفداوية على أنه من الشهداء ، ويقدمون المال والهدايا إلى ذويه ، ويعتقونهم إذا كانوا من الأرقاء [٢] .

وهكذا كان الفداوية ، على ما يقوله الصليبيون أنفسهم ، يعتقدون

---

(١) St. Guyard : Un Grand Maître des Assassins au Temps de Saladin, p. 22.

(٢) Taylor : Hist. of Mohammedanism & Its Sects, p. 218

« أنهم بالموت يفوزون بجنات النعيم ، تحت مضارب من أرجوان ، فى بساتين تجرى بين أشجارها المحملة بالأثمار الفردوسية ، سواق من لبن وعسل ، مع باقى الملذات الجسدية بتمامها... ومن ثم كانوا يهجمون على أخطار الموت بلا افتكار بخوف ، لا ! بل كانوا يوجدون فيما بين أعدائهم ، بوجوه باشة ، ويقتبلون منهم العذابات والموت ، خلوا من مبالاة ، كى يذهبوا حالا إلى جنات النعيم »(١) . ويرتبط بالفداوية البحث فى أسمائهم التى تميزهم عن سواهم .

٢ — تسمية الفداوية

اشتهر الفداوية فى الشرق والغرب ، لما كانوا يقومون به من اغتيالات منظمة ، وأطلق الغربيون عليهم اسم « حشاشين » ، حتى أن الفعل الانجليزى - to assassinate إنما اخترع بعد الحروب الصليبية ، وقصد به القتل غدرا ، ويرى العلماء أن كلمة The Assassins التى يقصد بها القاتلين غدرا ، تحريف لكلمة « حشاشين » الذين يقصد بهم « الفداوية » ، لاشتهارهم بتناول هذه المادة المخدرة « الحشيش » . وإنك لترى العلماء الغربيين المعاصرين للنزارية ، يطلقون عليهم جميعا هذا الاسم .

فيرى جوانفيل Joinville ، وهو من علماء القرن الثالث عشر الميلادى ، يطلق على النزارية عامة اسم حاسوساسى Hasussassi أحيانا ، وأحيانا أخرى اسم أساسى Assacis . وليس من شك فى أن هذه

---

(١) مكسيموس : تاريخ الحروب المقدسة ، ج ١ ص ٢٤٦ .

الأسماء جميعا محرفة عن كلمة حشاشين أو حشيشية [١]. والحق أن الحسن الصباح كان يلجأ إلى استخدام تلك المادة - كما رأينا - وعلى الرغم من أنه لم يبح استخدامها لأتباعه ، فإنه كان يستخدمها لتحقيق مآربه ، حيث يجعلهم فى حالة يتصور فيها المرء الوهم على أنه حقيقة [٢] .

وليس ماذهبنا إليه بعيد التصديق، بعدمارأينا العلماء الشرقيين يسمون النزارية الحشيشية، فنرى أبا شامه[٣] وابن ميسر[٤] ، وكلاهما من علماء القرن السابع الهجرى ، يطلقان على النزارية لفظ حشيشية . ومن ذلك نرى أن إطلاق كلمة حشيشية على الفداوية كان شائعا بين السنيين أنفسهم، فى العهد الذى نتكلم عنه ، وأن العلماء الغربيين حرفوا تلك التسمية . ولكنهم اختلفوا فى ذلك التحريف . فمن قائل : إن الفداوية كانوا يسمون «أساسينى» Assassini ، ومن قائل إنهم يسمون «أسيسينى» Assissini أو «هسيسينى» Heississini[٥]، ويسميهم كثير من مؤرخى الصليبيين «هاسيسين» Hassissins [٦]

---

(١) Joinville : Hist. de St. Lewis, p. 453

(٢) Von Hammer. Hist. de l'Ordre des Assassins p. 354.

(٣) و(٤) أخبار مصر لابن ميسر، ج ٢ ص ٢٨ ، وكتاب الروضتين لأبى شامة، ج ١ ص ٢٥٩ .

(٥) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol, ii, p. 294.

(٦) Recueil des Historiens occidentaux des Croisades, vol. ii, p. 190.

ويرى العلماء المحدثون إرجاع هذه الأسماء المختلفه إلى أصل واحد ، هو كلمة « حشيش » Hashish ، ويقول دى ساسى : إن الكتّاب اللاتينيين حرفو هذه الكلمة إلى مفردها ـ حشيشىّ Hashishi ، ونطقوها بألفاظ مختلفة ، منها ما تقدم ذكره (١) .

ويقرب صحة هذا إلى أذهاننا ما ذهب بارتولد إليه فى قوله : « كانت للمذهب هيئة سرية مكونة من الفدائيين المغالين فى التعصب ، يؤمن أفرادها بإمكان قتل من يريدون قتله ، أيا كانت شخصيته . وكان لتعاطى « الحشيش » تأثير فى شجاعة هؤلاء المتعصبين . وقد أخذت كلمة أساسين Assassins الفرنسية من كلمة الحشاشين العربية ، وتدل هذه الحالة على أن نظام الإسماعيلية ـ النزارية ـ ترك أثرا شديدا فى الاوربيين فى القرون الوسطى (٢) » .

ويظهر أن شهرة استخدام تلك المادة فى الشرق كانت ذائعة فى أوربا منذ العصور الوسطى ، حتى القرن الثامن عشر ، حتى أن نابليون بونابرت ـ وهو بمصر ـ (١٧٩٨ - ١٧٩٩ م) أصدر قرارا حرم فيه استعمال هذه المادة أو بيعها ، خصوصا بين الطبقات الفقيرة (٣) .

على أن استعمال ذلك الاسم اليوم « حشاشين » ، يختلف عن استعماله فى زمن الحسن الصباح وخلفائه ؛ فإن المقصود به اليوم من يدمنون على

---

(١) Defremery : N. Recherches (J. A. 1854), p. 358

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٨٦ — ٨٧ .

(٣) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 354

وقديما فعل الظاهر بيبرس ذلك وأشد منه . انظر كتابنا « إسماعيلية الشام من أقدم العصور حتى اليوم » .

تعاطى مادة « الحشيش » ، أما المقصود به فى الزمن الذى نتناول الكلام عليه ، فإنما هم قوم برعوا فى فنون القتل ، وقد فهمنا مما تقدم العلاقة بين استعمال تلك المادة وبين القتل غيلة (القتل السياسى المنظم) . ومما لامراء فيه ، أن الكتاب حين كانوا يذكرون تلك التسمية ، كانوا يطلقونها على جميع النزارية ، وهذا خطأ ، لأن ذلك الاسم ينطبق فقط على جماعة من الفداوية ، ممن تناولوا هذا المخدر ، وقد أخذ العلماء يتفننون فى إرجاع تلك التسمية إلى أصول مختلفة غير « كلمة حشيش » .

فيعتقد كازانوفا أن هناك علاقة بين الكلمة السكسونية « سكس » Seax ، ومعناها السكين ، وبين كلمة حشيشية أو حشاشين . وهذا تعسف ظاهر ، حيث يريد الكاتب تطبيق الاسم على المسمى ، بإتيانه بكلمة لا يعرف لها علاقة البتة بكلمة « حشيش » أو « حشاشين » . ومثل كازانوفا من يحاول إرجاع تسمية الفداوية (الحشاشين) إلى كلمة « شاهنشاه [١] » ، فأى ارتباط بين كلمة شاهنشاه وكلمة حشاشين أو حشيشية ؟

ويرى آخرون أن كلمة « أساسين » Assassins مأخوذة عن كلمة عبرية هى Essenes ، ومعناها « يقتل » . وكل هذه آراء بعيدة التصديق . وقريب من هذا ما ذكره البستانى فى دائرة معارفه حين قال : إن لفظ « أساسين » حرفها الفرنجة عن كلمة « عساسين » ، ومفردها « عساس » ، أى

(١) Browne : Lit. Hist. of Persia vol. ii, p. 203

حارس ، لأن النزارية كان من عملهم حراسة البلاد من السرقات [١] .
وهذا الرأى رغم وجاهته ، لتقارب النطق بين كلمتى « حشاشين » و « عساسين » ، لا يقوم على أساس تاريخى صحيح ، إذ لم نجد مؤلفا عربيا واحدا ذكر ذلك ، هذا إلى أن كلمة «عساس» لا تدل على المعنى الدقيق المقصود من الفداوية ، وهو القتل غيلة ، والاشتهار كذلك بتعاطى مخدر مخصوص هو الحشيش .

وعلى الرغم من ذلك الاختلاف فان هناك أمرين جديرين بالملاحظة :

أولهما : أن الكثيرين من المؤرخين يؤكدون استخدام رؤساء الدعوة النزارية لمادة مخدرة تعرف « بالحشيش » ، تستعمل فى إحدى مراتب الدعوة فقط ، أى للفدائية لاغير ، دون تشجيع استخدامه للمراتب الأخرى [٢] .

ثانيهما : أن أولئك الفداوية اشتهروا بالقتل غيلة ، فحاول العلماء جعل اسم الحشيشية ينطبق على ما عرف عنهم من سفك الدماء ، فأتوا بآراء مختلفة ، معظمها غير قابل للتصديق .

ويصح أن نأتى برأى آخر هو : إذا كانت كلمة أساسين Assassins تعنى القتلة ، وأنها قد اشتقت أو حرفت عن كلمة «حشاشين» ، وهم الذين اشتهروا بالقتل غدرا ، كما اشتهروا باستخدام مادة الحشيش على النحو الذى شرحناه ، فلم لا نرجع ذلك إلى أصل عربى بحت؟ فنقول : إن كلمة حشاشين

---

(١) البستانى : دائرة المعارف ، ج ٣ ص ٦٢٩ .

(٢) Browne ; Lit. Hist. of Persia, vol. ii, p. 206

محرفة عن كلمة حسَّـاسين ، ذلك أن كلمة « حسَّ » فى اللغة العربية معناها استأصل قتلا . وقد وردت فى القرآن الكريم بهذا المعنى فى قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده ، إذ تحسونهم بإذنه » (١) أى إذ تستأصلونهم وتبيدونهم قتلا بإذن الله . وقد ورد فى القاموس ما نصه : « حسَّ » حسوهم : استأصلوهم قتلا . وبابه رد . ولما كان اسم الفاعل من هذا الفعل هو « حاس » بمعنى قاتل ، وصيغة المبالغة منه هى « حسَّـاس » بمعنى الكثير القتل غيلة ، وجمع التذكير السالم من صيغة المبالغة هو « حسَّـاسون » أى كثيرو القتل والاستئصال ، لما كان ذلك كذلك ، فانه لا يبعد أن تكون كلمة حشاشين محرفة عن كلمة حسَّـاسين .

ولزيادة التوضيح نقول : لما للنزارية ، وبخاصة الفداوية منهم ، من شهرة فى الاغتيال المنظم بولغ فى وصف خطرهم ، فأطلق عليهم اسم « حسَّـاسين » لكثرة ما كانوا يرتكبونه من اغتيالات . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، حرفت كلمة « حسَّـاسين » إلى أسَّـاسين عند الفرنجة ، وإلى حشيشية عند مؤرخى العرب . ونعتقد أنه ليس هناك إسراف أو مبالغة فيما ذهبنا إليه ، فان انطباق المعنى الحرفى لهذه الكلمة « حسَّـاس » حساسين على جميع أعمال الفداوية ، يقربنا إلى تصديق صحته .

على أن هناك رأيا آخر يكاد يكون وجيها ، وهو أن كلمة أساسين Assassins ، المعروفة عند الأوربيين ، تحريف لكلمة « حسنيين » ، نسبة إلى الحسن الصباح . ذهب إلى ذلك جماعة من المؤرخين وعلى رأسهم مالكولم (٢) .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٥٢ .

(٢) Malcolm ; The History of Persia, vol. i, p. 241

ويرتبط بالكلام على أسماء الفداوية ، البحث فى تسمية أنصار الحسن الصباح ، فمن العلماء من يسميهم « باطنية » ، كالغزالى وغيره ، وهذه التسمية عامة ، تشمل أتباع الصباح وغيرهم من طوائف الإسماعيلية ، كما تشمل غير الإسماعيلية ، ممن يقولون بالباطن . ومثل ذلك تسميتهم السبعية ، أى القائلون بالأئمة السبعة ، لأنها تشمل جميع فرق الإسماعيلية حتى الدروز والقرامطة منهم . وخير تسمية لأتباع الحسن الصباح ، هى « النزارية » ، لأنهم نادوا بعد موت المستنصر بإمامة ابنه الأكبر نزار ، وتفانوا فى ذلك ، وكان اشتهارهم بالنزارية أكثر من اشتهارهم بالحسنيين ، لأن الحسن الصباح لم يشأ أن يظهر بما يدل على ثورته على نزار ـ إمامه المستور ـ كما لم نر مؤلفا واحدا معاصرا أطلق على الحسن اسم « الحسنيين » .

وأما تسميتهم « الفداوية » فتسمية ناقصة ، لأن الفداوية طبقة من طبقات النزارية ، فهى إطلاق الجزء على الكل ، ومثل ذلك تسميتهم الحشيشية أو الحشاشين ، لأن تلك التسمية لا تنطبق إلا على الفداوية وحدهم .

ويرى بعض العلماء أن اسم « حشيشية » أو حشاشين خاص بنزارية الشام . والحق أن نزارية الشام ونزارية فارس سواء فى كل شىء ، فلا معنى إذن لهذه التفرقة . وأما تسمية أتباع الحسن « ملاحدة » ، فيكاد لا ينطبق عليهم كثيرا فى عهد هذا الزعيم ، ولا يمكن انطباق هذه التسمية عليهم إلا بعد سنة ٥٥٩ هـ ـ كما سبق القول ـ أما إذا قصد بالإلحاد العدول عن ظاهر الكتاب إلى باطنه ، واللجوء إلى التأويل ، فإن

تلك التسمية لا تميزهم عن سواهم من فرق الباطنية . وأما ما ذهب إليه ابن خلدون من تسمية أتباع الحسن الصباح بالقرامطة(١) ، فصحيح من ناحية كونهم جميعا إسماعيلية ، ومن ناحية اتفاقهم فى الثورة الصريحة على الدين والدولة معا ، ولكنه خطأ من ناحية أخرى ، إذ أن القرامطة غير النزارية بالطبع .

(ح) التنظيم الروحى فى المجتمع النزارى

وإذا كان الحسن الصباح قد وضع كل عضو من أعضاء جماعته فى المركز الدينى الذى يجب أن يشغله فى حياته ، بحيث كان الجميع ، من الناحية العملية ، يخضعون خضوعا أعمى للحسن نفسه ، فانه لم يهمل الناحية الروحية ، ونظم مجتمعه الإسماعيلى تنظيما روحيا ، بجانب تنظيمه العملى ، بحيث ينتهى بهم جميعا إلى الخضوع للإمام الغائب ، فقسم المجتمع النزارى إلى سبع مراتب : تبدأ من المستجيب العادى ، وتنتهى بالإمام النزارى الغائب ، وغرضه من التقسيم الروحى ، جذب قلوب الأشياع إلى الإمام ، والظهور أمامهم بمظهر التابع الوفى لإمامه ، حتى يتكالب الجميع فى رفع منار دعوة هذا الإمام . ومما تجدر الإشارة إليه أن الحسن كان يعتقد أن إمامه المستور هو نزار ، ثم أبناؤه من بعده ، ويرى أن الإمام المستور دخل فى دور الاختفاء ، وأنه حى يترقب الفرصة للظهور ، وأنه فوق هذا وذاك منبع العلوم والمعارف ، وأنه معيَّن بالنص من الله تعالى .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٢٦

وتشغل رتبةُ الإمامة فى هـذا التقسيمِ الروحى المقامَ الأول ، ولم يكن لهذه المرتبة فى التقسيم المادى السابق وجود . وقد اهتم الحسن بمبدأ الإمامة ، وأخذ يؤلف الكتب الكثيرة فيها . حتى لقد أفاد الحسن الثانى النزارى — الرئيس الرابع — (٥٥٧ — ٥٦١ هـ) من هذه الكتب وتلك المبادىء ، التى كان الحسن الصباح يروجها ، واستغلها فى دعـواه بأنه الإمام المستور . وبهـذا نرى أن الحسن الصباح قد أعاد مبدأ الاستتار ، الذى كان ينادى به أبناء القداح ، رؤساء الدعوة الإسماعيلية الأوائل ، فى عصر الستر الأول . وقد ظل دور الستر النزارى منذ خلقـه الحسن الصباح سنة ٤٨٨ هـ ، حتى سنة ٥٥٩ ، حين نادى الحسن الثانى السابق الذكر ، بنفسه إماما ، وقال : إنه هو الإمام النزارى المستور .

وتلى رتبةَ الإمام رتبةُ « الحجة » ، نائب الإمام . وهذه الرتبـة تمتع بها الحسن الصباح ، منذ سنة ٤٧٢ هـ ، حين عينه المستنصر « حجة » على خراسان . ووظيفة « الحجة » عند النزارية لها مكانتها السامية ، فهى كما سبق القول ، تفوق وظيفة داعى الدعاة الفاطمى ، بل تفوق وظيفة « الحجة » عند الفاطميين أنفسهم ، ولا غرو ، فإن « الحجة » الفاطمى ينوب عن إمام ظاهر ، على حين ينوب « الحجة » النزارى عن إمام مستور ، فهو والحالة هذه أكثر نفوذا .

أضف إلى ذلك أن النظام الفاطمى كان يجعل للدعوة الفاطمية « حججا » كثيرين ، يصلون أحيانا إلى أربعة وعشرين « حجة » ، أما فى النظام النزارى الروحى ، فليس هناك سوى « حجة » واحد ، هو الحسن الصباح ، ثم خليفتاه من بعده بالتتابع . ومهما يكن من شىء ،

فإن «الحجة» النزارى كان يتمتع فى نظر النزارية ، بما كان يتمتع به الإمام نفسه ، من التقديس والإجلال ، كما أنه يأخذ العلم والمعرفة عن الإمام ، وكذلك لا يمكن أن يكون هناك إمام بدون حجة ؛ فالحجة ظل الإمام . لايفارقه، ومن ثم وجب على الأشياع أن يولوه الطاعة التى يولونها الإمام نفسه . و بفضل هذا كله ، كان الحسن يتمتع بشىء كبير من السلطان المطلق. ووظيفة «الحجة» فى التقسيم الروحى تطابق مرتبة «شيخ الجبل» ، أو «رئيس الدعوة» Le Grand Maître ، فى التقسيم المادى سالف الذكر.

ولكى يجذب الحسن الصباح الأتباع إليه ، وإلى خواص أنصاره ورؤساء دعوته فى الأقاليم المختلفة ، كان يقول : إن للحجة نوابا ينوبون عنه، يسمى واحدهم «ذامصة» ، وهذا يمتص العلم عن «الحجة» ، كما يمتصه «الحجة» عن الإمام ، وموقفه من «الحجة» موقف «الحجة» من الإمام ، سواء بسواء. ونعتقد أن الحسن الصباح، إنما قصد بذلك المبدأ. تبرير تعيين كبار الدعاة شيوخا للدعوة فى كبريات الأقاليم (البحار) الإسماعيلية ؛ لأنه إذا كان «ذومصة» يمتص العلم من «الحجة» ، ويمتص «الحجة» العلم عن الإمام، فإن «ذامصة» بالتالى ، يأخذ معارفه عن الإمام بطريق غير مباشر ، وهذا وحده هو ما حدا بالنزارية إلى التفانى فى طاعة الداعى الأكبر ـ شيخ الجبل الثانى ـ الرئيس الكيا بُزُرْ جُميد (٥١٨ — ٥٣٢هـ) ، وشيخ الجبل الثالث ، الرئيس محمد الأول ، رغم أنهما كانا من كبار الدعاة فقط . وبذلك نرى أن هذه الرتبة فى ذلك التقسيم ، تطابق مرتبة كبار الدعاة فى التقسيم الأول .

ويأتى «الداعى» بعد «ذى مصة» . والداعى فى التقسيم الروحى

هو نفسه فى التقسيم المادى لحدود الدعوة . ويسمى الداعى النزارى أحيانا «بابا» ، أى أنه باب الإمام عن طريق الحجة . فإن كان «الحجة» «باب» الإمام المباشر ، فإن الداعى « باب » الإمام غير المباشر ، لأن الداعى «باب» «الحجة» الذى هو «باب» الإمام (١).

على أن رتبة «المأذون» تلى رتبة الداعى ، ويظهر أن عمل المأذون جزء من عمل الداعى ، أو على الأقل، كان «المأذون» عهد الأمور للداعى ؛ فكان يأخذ العهد على المستجيبين ، مما يدل على أن التأثير فى الناس وبث أصول المذهب النزارى ، كان من عمل الدعاة ، وإن كان أخذ العهد على المستجيب من عمل «المأذونين» .

ويلى رتبة المأذون رتبة «المكلبين» ، سمو بذلك تشبيها لهم بكلاب الصيد ، لأنهم «ينصبون للناس الحبائل ، ويكيدونهم بالغوائل ، وينقضون على كل عاقل ، ويلبسون على كل جاهل» (٢) . ومن هذه التسمية نرى الصراع المحتدم بين النزارية وغيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى ، ونرى اعتماد النزارية على طائفة «المكلبين» فى زحزحة عقائد من يخالفهم فى المذهب، والوصول إلى قلوبهم ، وغزوها بشتى الوسائل ، التى برع فيها النزارية .

أما الرتبة السابعة ، وهى الرتبة الأخيرة ، فى التقسيم الروحى ، فهى رتبة المستجيب ، التى تشبه رتبة العامة فى التقسيم المادى ، وهى المدخل الأساسى للمذهب الإسماعيلى .

---

(١) الشاطبى : الاعتصام ، ج ٢ ص ١٨٣

(٢) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية ، ص ١٦

وهكذا اهتم الحسن الصباح بالمراتب الروحية ، فجعلها سبعا ، مقلدا في هذا أستاذه الأول ، عبد الله بن ميمون القداح ، مؤسس المذهب الإسماعيلي . هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، عمل الحسن على أن يضيف إلى التأثير المادى فى تقسيمه الأول ، تأثيرا روحيا فى تقسيمه الثانى . وقد كان للتقسيم الروحى أثره فى وحدة المجتمع النزارى ، إذ بفضله قوى مركز شيوخ الجبل وكبار دعاتهم . وهكذا ساهم التقسيمان ، المادى والروحى ، اللذان ابتدعهما الصباح ، فى خلق جماعة اسماعيلية متماسكة .

(د) طرق الدعوة النزارية

كان تقسيم حدود المجتمع الإسماعيلي ، روحيا وماديا ، ينصب على شخصيات الأتباع النزاريين ، أو بالأحرى على المستجيبين فى درجاتهم المختلفة . على أن الحسن الصباح ، وضع لجذب المدعوين وضمهم إلى نطاق الدعوة النزارية ، طرقا مختلفة ، تدل فى مجموعها على اللباقة والقدرة فى التأثير على النفوس . ومن ثم قسم هذه الطرق إلى درجات سبع ، لا تختلف كثيرا عما وضعه عبد الله القداح ، أستاذ الإسماعيلية الأول . وتنتهى هـذه الدرجات إلى شيء واحد ، هو إخراج المستجيب من عقيدته الأولى ، التى كان يعتقدها ، وإدخاله إلى حظيرة المذهب الإسماعيلي ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، اتخذ الحسن الصباح خطوات الدعوة النزارية وسيلة لإرشاد دعاته وتعليمهم ، حتى لا يضموا إلى مجتمعهم إلا الأعضاء النابغين الصالحين ، وهاك خطوات الدعوة النزارية ، كما وضعها الحسن الصباح

الخطوة الأولى : التفرس

والمقصود «بالتفرس» إدراك حالة المدعو إدراكا صحيحا ، والوقوف على مكنونات نفسه : هل هو قوى الإرادة ، أو يميل إلى التردد ؟ أهو سهل الانقياد ، أم صعب المراس ؟ ويظهر أن الحسن الصباح كان يحبذ إلى دعاته اختيار المدعوين البسطاء ـ على ما رأيت ـ فأوجب عليهم ألا يدعوا الجهال الممعنين فى الجهل ، أو المثقفين المتضلعين فى العلوم والمعارف ، لأن الأولين لا يستطيعون فهم أسرار المذهب النزارى الإسماعيلى ، والمثقفين لا يستطيعون كتم أسراره ، وعلى هذا فإن هؤلاء وأولئك ، إذا ما انضموا اليهم ، سيكونون مصدر الضرر على المذهب النزارى . وهذا يفسر لنا لماذا منع النزارية « إلقاء البذر فى الأرض السبخة ، والتكلم فى بيت فيه سراج » (١) .

والواقع أن «التفرس» يقتضى من الداعى شيئا غير قليل من الذكاء ، كما يقتضى منه أن يدرس حالة المدعو الجديد من كافة النواحى ، وأن يتجسس عليه ، حتى يعرف خبيئة نفسه .هذا إلى أن دراسة أخلاق الغير وطباعهم يقتضى إلماما كبيرا بمبادىء علم النفس ، ومعرفة الطبائع البشرية ، مما كان يجبر الداعى على أن يكون عالما ، قادرا على الوصول إلى أعماق النفوس . ومهما يكن من شىء ، فان خطوة « التفرس » من أخطر خطوات الدعوة النزارية ، فعليها تقوم الخطوات الأخرى .

---

(١) الشاطبى : الاعتصام ، ج ٢ ص ١٨٤ والأرض السبخة : العقول المفكرة ، أو الجاهلة . والبيت فيه السراج : الموضع فيه الفقية .

الخطوة الثانية : التأنيس :

و «التأنيس» هو بعث الأمن والطمأنينة إلى نفس المدعوين ، الذين وافقوا على دخول المذهب النزارى ، ويكون « التأنيس » بإشباع ميول المدعو ، وإعطائه كل ما يميل إليه طبعه ، فإن كان تقيا أظهر الدعاة له التقوى ، وإن كان عربيدا زينوا له العربدة ، واستصوبوا كل ما يعمل ، وأوَّلوا تصرفاته تأويلا تأنس نفسه إليه .

و«التأنيس» ، كالتفرس ، يقتضى دراسة طبائع الناس ومعالجتها بكل ما يتفق معها ، وقد يؤدى القليل من الخطأ فى هذه المرحلة ، إلى النفور من الداعى والدعوة معا . ولذلك وجب على الداعى أن يبتعد عما يثير نفوس المدعوين . وقد رسم الحسن الصباح «للدعاة المأذونين ـ فى هذه الخطوة ـ أن يجعلوا مبيتهم كل ليلة عند واحد من المستجيبين ، ويجتهدوا فى استصحاب من له صوت طيب فى قراءة القرآن ، ليقرأ عندهم زمانا ، ثم يتبع ذلك بشىء من الكلام الرقيق ، وأطراف من المواعظ اللطيفة ، الآخذة بمجامع القلوب ، ثم يردفون ذلك بالطعن فى السلاطين ، وعلماء الزمان . وجهال الأمة ، ويذكرون أن الفرج منتظر ببركة أهل بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وكل ذلك ليستحكم الأنس به ، ويميل القلب إلى الإصغاء إلى كلامه » (١). يفعل الدعاة كل ذلك حتى تهدأ نفوس المدعوين ، وتركن إليهم ، فيندفعون نحو الدعاة ، يبثونهم جميع ما فى نفوسهم ، وبهذا يتهيأ السبيل أمام الدعاة ليوغلوا بالمدعوين فى خطوات الدعوة المختلفة .

---

(١) الغزالى : فضائح الباطنية ، ص ٤

الخطوة الثالثة : التشكيك :

و«التشكيك» هو القدرة على زعزعة عقيدة المدعوين . وتعتبر هذه الخطوة الجريئة من أخطر الخطوات وأدقها شأنا على الداعى والمدعو معا ، فيتحتم فيها على الداعى أن يكون لبقا تمام اللباقة ، يعرف كيف يصل إلى قلب المدعو . فيكثر من ضرب الأمثلة التى تصل إلى سويداء القلوب ، وتوهن عقيدة المدعو الأولى ، دون أن يتشكك فى إخلاص الداعى وقدرته ، أو يتشكك فى عقائد المذهب الإسماعيلى ، وانما يجعله الداعى يعتقد بأن هذا المذهب ليس إلا حركة إصلاحية ، مآل معتنقه الجنة والسعادة ، ولذلك يشرح له آى القرن بطرق تبعده عن معانيها المألوفة له ، ويشككه فى هذه المعانى ، وفى مظاهر الطبيعة ، وما إلى ذلك .

وترجع خطورة «التشكيك» على المدعو فى أنه يعتبر نقطة البداية فى تحوله عن عقيدته الأولى إلى المذهب الإسماعيلى : والغرض الذى يقصده الداعى من خطوة «التشكيك» مزدوج الفائدة ، ولا غرو ، فانه يرمى من ورائه إلى إضعاف عقيدة المدعو من ناحية ، وإلى جذبه إلى المذهب النزارى من ناحية أخرى ، لأن المدعو حين يتشكك فى صحة ما كان يعتقده ، يلجأ إلى الداعى يستمد منه المعونة ، فيثير الداعى فيه غريزة حب الاستطلاع ، ويجعله يعتقد أن معارفه ليست شيئا مذكورا بجانب معارف الداعى[1] ، وهذه الدرجة نوع من حرب الأعصاب، التى يستغلها المحاربون اليوم ، وكان لها أثرها الناجح فى عهد النزارية .

---

(١) الأفغانى : الرد على الدهرية (ترجمة الشيخ محمد عبده) ، ص ٤٠

ومن هنا نرى أنه من الواجب على الداعى أن يكون ذا مقدرة فى التمويه على الناس ، وان يكون على علم كبير ، لأنه يجب عليه أن يصوغ عقول المدعوين من جديد ، فيضع مكان عقائدهم السابقة عقائد جديدة ، وبدل معارفهم الأولى معارف جديدة مستساغة ، ويعتبر « التشكيك » خطوة هامة توصل المدعو إلى المذهب الإسماعيلى ، أو بالأحرى إلى التعلق بهذا المذهب ، ثم الارتباط التام به .

الخطوة الرابعة : التعليق أو الربط .

والمقصود « بالتعليق » ، كخطوة من خطوات الدعوة ، ترك الداعى المدعوّ ، بعد تشككه ، متأرجحا فى عقيدته ، فإن المدعو بعد تشككه الذى بثه فيه الداعى ، فى الخطوة السابقة ، أضحى متعطشا إلى إدراك كنه المذهب الإسماعيلى ، والإلمام بجميع أسراره ، ولذلك يرتمى فى أحضان الداعى ، ليستعين به فى تحقيق ذلك ، ولكن الداعى « يطوى عنه جواب هذه الشكوك ، إذا هو استكشف فيها شيئا ، ولم ينفس عنه أصلا ، بل يتركه معلقا ، ومهولا للأمر عليه ومعظما » (١) .

والغرض من خطوة « التعليق » زيادة التأكد من معرفة شخصية المدعو ونفسيته . وليس هذا فقط ، بل ليأخذ الداعى عليه العهد إن رآه متعطشا ، إذ أن الداعى يصور للمدعو خطورة الموقف ، ويبين له أن هناك أسرارا اختص بمعرفتها من أحبه الله ، وأنه لا يمكنه أن يلقيها إليه جزافا ، بل لا بد للداعى من أن

---

(١) الغزالى : فضائح الباطنية ، ص ٥

يأخذ العهد عليه حتى تظل سرا مكتوما ، فاذا ما أخذ العهد ، عليه جعله عبدا خاضعا للدعوة والدعاة .

ويرينا هذا كله إقبال الدعاة ، على الشاك وهو فى حيرته ليمنوه بالنجاة منها ، وهدايته إلى اليقين الثابت ، فاذا انقاد لهم أخذوا مواثيقهم، ثم أوصلوه إلى مرشدهم الكامل »(١) .

وإن أخذ العهد على المدعو يضيف إلى جماعة النزارية عضوا خاضعا خضوعا أعمى ، لكنه لازال على تشككه ، وما أخذه العهد فى نظره هو ، إلا خطوة لإزالة ما اعتراه من شكوك ، والوصول إلى ما يعتقد أنه الحقيقة .

وبهذه الوسيلة ـ الربط ـ استطاع الداعى أن يضم إلى المجتمع النزارى عضوا قد طلق دينه الأول ، وعقائده السابقة ، واعتقد أن المذهب الإسماعيلى بغيته ، وكل ما يؤمل . ويمتاز المدعو فى تلك المرحلة بضعف الإرادة وقلة التسلط ، وهذه الحال التى وصل إليها تساعد الداعى على أن يخطو به إلى الخطوة التالية ، وهى التدليس (٢) .

الخطوة الخامسة : التدليس .

الحق أن المدعو قد أصبح آلة طيعة فى يد الداعى ؛ فقد ترك دينه ومذهبه ، ووثق كل الثقة فى داعيه ، واتخذ منه أبا وأخا وأستاذا ، وأمَّل الخير على يديه ، فجعل يصغى إليه بكل جوارحه ، ويتلقف ما يتفوه به على أنه حقائق لا يعتريها

---

(١) الافغانى : الرد على الدهرية ، ص ٤ .

(٢) التدليس : الخداع ، والخيانة ، والتمويه .

شك ، غير أن الداعى ينتهز فرصة ارتماء المدعو بين يديه ، واعتماده على أمانته وصدقه ، ويلجأ إلى الكذب والتمويه ، ويدعى ادعاءات كثيرة كاذبة ، تزيد فى تعلق المدعو بالمذهب الإسماعيلى ، منها أن أكابر العلماء المسلمين السنيين ، يعرفون أسرار المذهب الإسماعيلى ، ويؤمنون بها ، ولكنهم يكتمون ذلك تقية (١) .

ويرى حجة الإسلام ـ الغزالى ـ أن « التدليس » ، هو عدم إعطاء المستجيب المعلومات دفعة واحدة ، بل يتدرج الداعى فى ذلك . ويلجأ فى أثناء هذا التدرج إلى الكذب ، فيبدأ مثلا فى شرح ما فيه أهل البيت من ظلم حائق بهم ، ويوضح للمدعو أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأن الظاهر من الباطن ، كالقشر من اللباب ، ثم يمنّيه بقرب ظهور دينهم وقوتهم ، إلى غير ذلك من الأمور التى تجذب المدعو إلى الداعى ومذهبه (٢) .

و يعتقد فون همر أن الغرض من التدليس ، هو أن يميز المدعو أوجه الشبه والخلاف بين المذهب النزارى والمذاهب الأخرى من ناحية ، وبينه وبين آراء العلماء والسياسيين المشهورين من ناحية أخرى ، ويرى أن هذه طريقة خطيرة ، يستخدمها النزارية للتأثير فى قلوب المستجيبين (٣) . وأياما كان ، فإن الداعى يؤكد للمدعو فى هذه المرحلة . موافقة أكابر الدين

---

(١) الشاطبى : الاعتصام ، جـ ٢ ص ١٨٦

(٢) الغزالى : فضائح الباطنية ، أو المستظهرى ، ص ٢٢٦ .

(٣) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p.95

والدنيا لهم ، حتى يزداد ميله (١) . وبهذا وغيره يستطيع الدعاة النزارية أن يجذبوا إليهم جماعة من المتفانين فى إخلاصهم للدعوة التى استجابوا إليها ، وبذلك أيضاً نرى أن الغرض من « التدليس » لم يكن غرضا دينيا خالصا ، بل كان غرضا دينيا سياسيا .

ومن الواجب بعد ذلك على الداعى أن يعمل على تثبيت هذه المعلومات الجديدة التى ألقاها فى روع المستجيب ، حتى تكون الاستجابة أكثر إحكاما . وتتضح جهوده فى هذه السبيل ، من الخطوة التالية .

الخطوة السادسة : التأسيس :

ويقصد به تثبيت المعلومات والحقائق التى أدلى بها الداعى للمستجيب، وتقريرها فى ذهنه ، أو هو، كما قال الشاطبى: إيراد مقدمات يقبلها المدعو. والحق أن «التأسيس» يعتمد على خطوات كثيرة ، إذ يقتضى تفرس الداعى حالة المدعو، والعمل على بث الطمأنينة فى قلبه ، حتى يرتاح إليه للوصول إلى الخطوة التالية «الخلع» . كما يقتضى من الداعى خلق التشكيك فى نفس المدعو من جديد ، حتى يرتمى في أحضان دعاة المذهب ، ويعتمد عليهم فى كل أموره ، وبذلك يكون المدعو أسلس قيادا ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، ليعرف الدعاة ، على وجه التحقيق، نفسيات المستجيبين ، كى يستطيعوا التوغل معهم فى دراسة أسس المذهب الإسماعيلى ، دون تراجع من هؤلاء المدعوين .

كما يجب على الدعاة فى هذا الدور ، أن يتأكدوا من قوة تأثير العهود التى أخذوها على المدعوين ، ويملئوا قلوبهم بالتدليس والخداع . كل ذلك

---

(١) الشاطبى : الاعتصام ، ج ٢ ص ١٨٤

ليس له غرض سوى تقوية إيمان المستجيب بمبادىء المذهب النزارى وشحذ هممه[١] . وليس من شك فى أن المدعوين الذين يصلون إلى تلك الدرجة ، يجب أن يكونوا ممن نالوا تقدير الرؤساء ،واشتهروا كذلك بالإخلاص . وهكذا لم ينتقل الدعاة من خطوة إلى أخرى ، إلا بعد التأكد من روح جماعاتهم ، مما ساعد على عدم وجود دعاة للهزيمة بينهم ، ومما جعل المجتمع الإسماعيلى من أقصاه إلى أقصاه يدين بالولاء والطاعة لرؤسائه . وبهذا يصل المدعو إلى الخطوة السابعة (الأخيرة) . وقد أصبح إسماعيليا خالصا . وهو غاية الإسماعيلية ، التى تنتهى بخلع المدعو من المذاهب السنية وغيرها ، ودخوله المذاهب الإسماعيلية ، بل ثورته على المذاهب السنية أيضاً .

المرتبة السابعة : الخلع .

ومعنى « الخلع » إقصاء المدعوين عن خطيرة المذاهب السنية ، إن لم يكن عن حظيرة الإسلام نفسه ، بإسقاط التكاليف الشرعية عنهم ، ولذلك قال العلماء : إن « الخلع » هو الاطمئنان إلى إسقاط الأعمال الدينية ، و«الفسخ» هو إسقاط الاعتقادات جميعها [٢] .

ويكون «الخلع» و«الفسخ» باللجوء إلى التأويل غير المشروع ، ويتركز فى تلك القاعدة خلاصة المذهب الإسماعيلى ، حتى لقد ذهب بعض العلماء إلى القول بأن التأويل هو القاعدة السابعة من القواعد التى وضعها الحسن

---

(١) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des ,Assassins, p. 98

(٢) الشاطبي : الاعتصام ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

الصباح فى لتنظيم طرق الدعوة(١) . والواقع أن من يصل إلى تلك المرتبة لم يعد يعبأ بتكاليف الشرائع ، ويعتقد أن لآى القرآن باطنا غير ظاهرها (٢) ، ويؤولها حسبما تصبو نفسه إليه .

وليس من شك فى أن « التأويل » قائم على أغراض سياسية حقة ؛ فإنه بالتأويل ، يستطيع هؤلاء الدعاة النزارية هدم المذاهب السنية ، ذلك الهدم الذى هو الغاية السياسية للمذهب الإسماعيلى النزارى ، وبه كذلك يخلقون مجتمعا يدين بالطاعة لرؤسائه ، ما دام هؤلاء الرؤساء هم مصدر التأويل، الذى يحررهم من ربقة الأديان «والقول الوجيز،على ما يقول الغزالى، «إنهم لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة ، صرفوهم عن المراد بها إلى مخاريق زخرفوها ، واستفادوا بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ ، إبطال معانى الشرع ، وبما زخرفوه من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعة والموالاة » (٣).

على أن من يصل إلى تلك الدرجة يصبح باطنيا عالما بأسرار العقيدة الباطنية . وليس من شك فى أن فلسفة المذهب الإسماعيلى تتركز حول تلك القاعدة وحدها ، تلك الفلسفة ذات الشعب الثلاث : الدينية والسياسية والثقافية . ولا يتمتع بتلك الفلسفة ، إلا عدد قليل من كبار المستجيبين الذين يثق الرئيس بهم (٤).

---

(١) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins p. 96

(٢) المستوفى : تاريخ جوزيده ، ج ١ ، ص ٤٩٧ .

(٣) الغزالى : فضائح الباطنية ، ص ١٢ .

(٤) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins. p.96

وهكذا نجح الحسن الصباح فى تكوين مجتمع إسماعيلى خالص ، يمتاز بالنظام الدقيق ، بحيث يفوق فى هذا، مجتمع القرامطة الإسماعيلية فى بلاد البحرين ، ذلك المجتمع الذى أوجده أبو سعيد الجنابى ، وغذاه بمبادئه ، فقد كان لنظام الحدود الدينية ، وتربية الفداوية ، وللتقسيم الروحى ، عند أتباع الحسن ، الأثر الكبير فى نجاح الدعوة النزارية ، وبقائها قوية مرهوبة الجانب .

وإن فى تسميتهم دعوتهم « الدعوة الهادية » ، وتسميتهم أنفسهم « عبيد الدعوة الهادية » ما يدل على مدى تماسك هذا النظام ، وعلى مدى نجاح الحسن وجماعته ودولته ، ويفسّر بقاء هذا كله ما يقرب من قرنين . وقد استمرت سياسة الحسن تعمل فى نفوس أشياعه وخلفائه عمل السحر ، حتى بقيت هذه الآثار إلى اليوم . وبفضل هذا النظام الدقيق ، استطاع الحسن الصراع مع السلاجقة وغيرهم من منافسى المذهب النزارى.

(هـ) أماكن الدعوة النزارية

١ — قلاع الدعوة :

لم يكد الحسن الصباح ، مؤسس الدعوة النزارية ، يدرك وهن « الدعوة الإسماعيلية القديمة » فى مصر ، حتى عمل على الجمع بين محاسن نظام الدولة الفاطمية ، فى تكوين أماكن استقرار دائمة فى عواصمها ، ومحاسن دويلة القرامطة ، فى استخدام السيف كوسيلة من وسائل الإرهاب ، والاعتماد على الاستقرار فى دور هجرة خاصة بأشياعهم . فقرر ألا يستقر بجماعته فى مدن ، كما كان الفاطميون يفعلون ، أو في دور هجرة كما فعل القرامطة ، وإنما عمل على أن يستقر فى قلاع قوية

التحصين ، لا يستطيع أحد التغلب عليها إلا بشق الأنفس .

وكان احتلال الحسن قلعة (آلموت) سنة ٤٨٣هـ ، إيذانا بتنفيذ تلك السياسة الخطيرة ، وهى اتخاذ هذه القلاع أمكنة لوثوب الدعوة ورجالها على منافسيهم ، وقد تمكن النزارية فى عهد الحسن من الاستيلاء على عشرات القلاع فى فارس وخراسان ، وأطلقوا عليها اسم « قلاع الدعوة الهادية المهدية » . يقول بارتولد [1] : « اتجهت الدعاية الإسماعيلية فى نهاية القرن الخامس الهجرى إلى وجهة جديدة ، فاستولى الإسماعيلية على أماكن كثيرة حصينة ، فى كل أرجاء إيران» . وهكذا فإن قلاع الدعوة كانت دورا للهجرة من ناحية ، كما كان بعضها ، كآلموت ، عاصمة دينية سياسية ، من ناحية أخرى .

ولم تكن قلاع الدعوة جميعها أمكنة للوثوب ، وإنما كانت القلاع الرئيسية وحدها هى المخصصة لذلك ، أما القلاع غير الرئيسية ، فكانت موطنا لوثوب الجنود النزارية على جيرانهم ، ومستقرا للمجتمع النزارى ، الذى آلى على نفسه ألا يسكن مع السنيين فى مكان واحد . وكانت قلعة « آلموت » هى القلعة الرئيسية من بين قلاع الدعوة ؛ فيها يقيم الرئيس الأعلى - شيخ الجبل - وهو المشرع الأول للدعوة الجديدة ، وهو ملك النزارية وسلطانهم ، بل إمبراطورهم ، واستمر خلفاؤه السبعة [2]

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية (نشر حمزة طاهر) ، ص ٨٦ .

(٢) وهم الداعى الكبير الكيابزرجميد (٥١٨ ـ ٥٣٢ هـ) ، وابنه الداعى محمد الأول (٥٣٢هـ ـ ٥٥٧ هـ) ، ثم الإمام الحسن الثانى ، الذى يلقبه الإسماعيلية بلقب «على ذكره السلام» (٥٥٧ ـ ٥٦١ هـ) ، وابنه الإمام محمد الثانى (٥٦١ ـ ٦٠٨ هـ) ، ثم ابنه الإمام الحسن الثالث ، ويسمى « المسلم الجديد » (٦٠٨ ـ ٦١٨ هـ) ، وابنه الإمام علاء الدين (٦١٨ ـ ٦٥٣هـ) ، وأخيرا الإمام ركن الدين خورشاه (٦٥٣ ـ ٦٥٤هـ).

على منواله ، فاتخذوا من قلعة « آلموت » عاصمة لملك جديد ودعوة جديدة . وبعبارة أخرى ، كانت قلعة « آلموت » دار هجرة الإسماعيلية النزارية وعاصمتهم .

وهكذا وضع الحسن الصباح أسس هذه الدعوة وتعهدها خلفاؤه . فكانت الجيوش النزارية تخرج من «آلموت» ، وينتشر منها دعاتهم ، ومنها أيضا سن الحسن الصباح سنن دعوته الجديدة ، وشرع تشريعاته الدينية ، وألف كتبه الضخمة ، فى النهوض بالمذهب النزارى . وترويج الدعوة إليه ومما تمتاز به «قلاع الدعوة» أنها تحتوى على كثير من أشخاص المستجيبين النزارية ورتبهم . ففى «آلموت» ـ عاصمة النزارية ـ ترى فيها نائب الإمام . (٤٨٣ — ٥٥٩ هـ) ثم الإمام نفسه ، (٥٥٩ — ٦٥٤ هـ) ، وفيها الدعاة والمأذونون والفداوية وعامة المستجيبين . أما القلاع الرئيسية فى « جزر » الدعوة ، عواصم « البحـــار » ، ففيها نواب الرئيس الأكبر ، وهم كبار الدعاة ، الذين كانوا بالنسبة لرئيس الدعوة ، كالحجة بالنسبة للإمام . وأما القلاع العادية ، فتخلو من الإمام ومن الحجة ومن كبير الدعاة ، ولكنها تحوى بقية الأعضاء . والعنصر الهام فى سكان تلك القلاع العامة هم المحاربون . وكثيرا ما تمد هذه القلاع العادية القلاع الرئيسية بالفداوية ، ليكونوا تحت أوامر الرؤساء . وقد استمرت قلاع الدعوة فى خراسان وقوهستان ورودبار والشام ، معقل المذهب الإسماعيلى ، حتى أزالها التتر من عالم الوجود ـ تقريبا ـ فى منتصف القرن السابع ، وفعل الظاهر بيبرس بقلاع الدعوة فى الشام ، ما فعله هولاكو فى بلاد المشرق [١] .

(١) انظر كتابنا « اسماعيلية الشام من أقدم العصور حتى اليوم »

٢ ـ دور الدعوة :

الحق أن قلاع الدعوة هي « دور دعوة » أيضا ، لكن أهمية هذه الدور إنما تظهر في البلاد التي كان المذهب السني يسود فيها ، كما تظهر أهميتها في أنها بدعة اختص بها النزارية وحدهم ، دون باقي طوائف الإسماعيلية ، وبعبارة أخرى ، كان دعاة النزارية يعنون دائما بتكوين « نقط ارتكاز » في بلاد السنيين ، شبيهة بدور الهجرة التي كانت تتخذ في دور الستر الأول . بحيث تعتبر هذه الدور مأوى لأنصار المذهب النزاري ، وتروّج منها الدعوة النزارية بتطوراتها المختلفة .

وسوف نرى أن أول دار من «دور الدعوة» هذه إنما أقيمت بالقرب من مدينة أصفهان ، حاضرة السلاجقة، أقامها رئيس الدعوة النزارية الثاني ـ ابن عطاش ـ وقد تمكن النزارية بفضل تلك الدار من جذب عشرات الألوف من الأهلين ، الأمر الذي سبب الرعب في المدينة نفسها ، وفي ضواحيها ، ولا غرو فقد اتخذت تلك الدور ـ كالقلاع ـ أمكنة للوثوب منها على السنيين .

ولو تتبعنا نشاط الدعاة النزارية في الأقاليم السنية المختلفة ، لوجدنا دورا كثيرة من هذا النوع ، الذي كان الصباح يعمل على ترويجه. ولم نذهب بعيدا ؟ وقد كان من أهم شروط الاتفاق بين النزارية في الشام وبين الملك رضوان بن تتش ، (+٥٠٧ هـ) صاحب حلب ، أن يكون لهم بحاضرة ملكه (حلب) «دار دعوة» يلجئون إليها ، فزاد نفوذ النزارية بحلب وبلاد الشام ، تبعا لذلك . وفعل النزارية في دمشق ـ بعد ذلك ـ ما فعلوه في حلب نفسها .

وترجع أهمية تلك الدور ، التي بعثها الصباح ، من الناحية المذهبية

خاصة ، إلى أن النزارية يستطيعون بفضلها ، وبفضل قربهم من السنيين واحتكاكهم بهم ، التأثير فى أكبر عدد ممكن ممن يخالفونهم فى المذهب ، وضمهم إليهم ، كما أن هذه الدور كانت تقوّى عصب النزارية ، بجذب الخائفين من هذه الطائفة اليها ، وبخاصة ممن يعيشون منهم بين السنيين ، وباللجوء اليها ، والاستقرار بها . وإذن كانت هذه الدور أشبه بنواد تدرس فيها الدعوة النزارية ، كما تدرس فيها المشروعات الهدامة ، التى يرى النزارية القيام بها ضد منافسيهم وأعدائهم . وهكذا كان نشاط النزارية فى دور دعوتهم ، مكملا لنشاطهم فى قلاعهم ، المتناثرة فوق الجبال ، فى كثير من بقاع العالم الإسلامى .

الباب الرابع

صراع دولة الحسن الصباح مع العالم السنى في بلاد المشرق[1]

١ ـ عوامل نجاح الحسن الصباح فى سياسته الخارجية فى بلاد المشرق :

كان استيلاء الحسن الصباح على قلعة «آلموت» ـ جنوبى بحر قزوين ـ بالطريقة الآنفة ، تحديا للدولة السلجوقية السنية، وعاملا من أقوى العوامل التى ساعدت على تقوية جانب الحسن ورفاقه . كما كان لانضمام بعض ولاة ملكشاه السنيين إلى جماعة الحسن ، أثره فى تنبه السلاجقة للخطر الذى سوف يتعرضون له ، إذا ما قدر النجاح لتلك الفرقة الدينية السياسية الخطيرة . هذا إلى ما قام به أنصـــار المذهب النزارى فى أنحاء العالم الإسلامى من اغتيال منظم أضاع هيبة السلاجقة السنيين ، الذين رأوا أنه من الواجب عليهم أن يدافعوا عن هيبتهم الضائعة أولا ، وعن العالم الإسلامى السنى . باعتبارهم أكبر قوة إسلامية سنية ، ثانيا . ومن ثم كان الصراع العنيف مع الحسن الصباح .

وكاد سلاطين السلاجقة ينجحون ضد الحسن ، لولا ظهور عوامل كثيرة ، من أهمها : موت السلطان ملكشاه ، فى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، فقد كان موته ضربة قاضية ، وجهت إلى العالم السنى عامة ، وإلى دو...

---

(١) أقصد ببلاد المشرق هنا ، فارس وخراسان .

بوجه خاص ، كما كان موته فرصة نادرة المثال ، بالنسبة للنزارية ، الذين استغلوا اختلاف أبناء هذا السلطان على العرش بعد أبيهم ، وما تبع ذلك الاختلاف من قيام تلك الحروب الأهلية المدمرة بينهم ، والتى بقيت عشرات السنوات ، على ما سنرى . فانتهز النزارية ذلك العراك الطاحن وزادوا فى قوتهم ، وأخذ الحسن يعمل على امتلاك القلاع والحصون من السنين . كل ذلك وأبناء ملكشاه معنيُّون بأمورهم الخاصة فى أثرة منقطعة النظير ، فلم يوجهوا عنايتهم وجحافلهم نحو الحسن الصباح ، إلا بعد أن استكمل هو وأنصاره ، وسائل الدفاع عن أنفسهم ، وبعد أن تمكنت قوتهم من البلاد التى استقروا بها ، وساد نفوذهم شرقا وغربا ، فكان من المتعذر إذن على السلاجقة اجتثاث بذور النزارية ، كما لم يعد فى حيز الإمكان أن تكون نهاية هذا الزعيم النزارى الصباح ومن معه ، على أيدى هؤلاء السلاجقة المنشقين على أنفسهم .

وخلاصة القول أنه لولا موت السلطان ملكشاه ، وقيامُ الحروب الأهلية بين أبنائه من بعده ، وبخاصة تلك الحرب العنيفة ، التى قامت بين الأخوين : بركياروق ومحمد ، ابنى السلطان ملكشاه (١) ، لولا ذلك ، لتغير تاريخ النزارية .

ولا غرو فقد عجز هؤلاء الأمراء عن القيام بأية محاولة جدية ضد النزارية ، لانتزاع قلعة (آلموت) منهم ، واستئصال جذورهم ، قبل استفحال خطرهم ، وبالأولى لم يستطع السلاجقة بسبب تلك الحروب الأهلية ، أن يقوموا بهجوم عام خاطف ، على جميع قلاع الدعوة النزارية (٢) ، وإخراجهم

---

(١) ابن سفنديار : تاريخ طبرستان (ترجمة براون) ، ص ١٤٠ .

(٢) Lockhart : Hasan-i- Sabbah. (J.R.A.S. 1931), p. 684

منها. وليس هذا فقط ، بل أخذ أعداء السنيين ينضمون إلى النزارية(١) جماعات جماعات . وهذا يفسر لنا سر قوتهم ، فى أواخر القرن الخامس ، وأوائل القرن السادس خاصة .

ولم يقف الأمر عند موت السلطان ملكشاه ، وقيام النزاع بين أبنائه على الملك . بل تعداه إلى ظهور خطر خارجى هائل ، كاد يعصف بالعالم الإسلامى . ذلك الخطر هو هجوم الصليبيين على المشرق ، وعبثهم بالممالك الإسلامية الواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد كان هذا الهجوم المفاجىء الخاطف على العالم الإسلامى . بعد موت السلطان ملكشاه ، صدمة عنيفة للسلاجقة ، كادت تودى بهم وبدولتهم .

حقا ! لقد اقتضى الصراع بين السلاجقة ، ومثلهم أتابكة الشرق الأدنى ، وبين الصليبيين ، إلى بذل مجهود هائل شغل دولة السلاجقة عن الانتباه للحسن الصباح . الذى استغل هذا الظرف الملائم ، فضاعف جهوده للاستفادة من ذلك الاضطراب العنيف بين الشرق والغرب ، وأرسل رسله وأنصاره إلى بلاد الشام ، فتمكنوا بعد جهود كبيرة . من أن يفعلوا هناك ، مافعله الحسن فى بلاد المشرق : من الاستيلاء على القلاع الجبلية القوية ، وتكوين مجتمعات إسماعيلية هناك ، من القلاع ودور الدعوة ، لا همّ لها جميعا إلا الصراع ضد السنيين .

وهكذا استفاد الصليبيون ، كما استفاد النزارية ، من حالة الفوضى والنزاع ، اللذين وقعت فيهما الدولة الإسلامية السنية ، وكان كلا الجماعتين

---

(١) Defremery : Essai Sur l'Hist. des Ismaeleéns, p. 83

ـ النزارية والصليبيون ـ عدوا شديد المراس للمسلمين السنيين[١] ».

على أن هناك عوامل أخرى غير العاملين السابقين ، كان لها الأثر الكبير فى زيادة قوة الحسن الصباح ونفوذه السياسى ، من ذلك ، الطرق التى درج النزارية عليها ، من القتل غيلة ، والوسائل المزعجة التى كان الفداوية يسلكونها ، فى الفتك بضحاياهم والتمثيل بهم ، تلك الوسائل التى أرهبت القواد والملوك والشعوب ، فأخذ بعض القواد ـ تبعا لذلك ـ يتوانون فى الهجوم على النزارية ، ويهملون أمورهم . بل لقد تغاضى الكثير من الملوك والأمراء عنهم ، واتفق بعض منهم معهم ـ مثل السلطان سنجر ـ وجعل كثير من قواد المسلمين ينضمون إليهم ، خوفا ورهبة .

وهكذا ملك الخوف من خناجر الفداوية على الناس قلوبهم ، فلم يجد أحد من الملوك فى حفظ نفسه منهم حيلة ، فصار الناس فيهم فريقين : فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة[٢] ، ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة[٣] ، فمن عاداهم خاف من فتكهم ، ومن سالمهم نسب إلى شركهم فى شركهم ، وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين »[٤] .

وإذن كان للمبادىء التى وضعها الحسن الصباح فى إخافة الناس ، وتهديم أعصابهم ، والقضاء على روحهم المعنوية ، أثر كبير فى تقوية النزارية ضد السنيين خاصة ، أو قل : كانت هذه الأسس نوعا جديدا من « حرب الأعصاب » ، التى يستغلها المحاربون اليوم فى القضاء على مقاومة العدو .

---

(١) Taylor ; Hist. of Mahammedanism & Its Sects, p. 217.

(٢) التعنيف ، لا بمعنى المساهمة .

(٣) الموادعة : المصالحة .

(٤) الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٣ .

وغير خاف علينا أن الحسن الصباح تمكن من أن يجذب إلى صفوفه كثيرا من كبار موظفى السلاجقة ، حتى أن بعض الوزراء والقواد كانوا على هوى النزارية : فهذا الوزير الدركزينى، يتآمر معهم على سيده السلطان محمد (+ ٥١١ هـ) ، ويخلقون منه جاسوسا خطيرا يستعينون به على تنفيذ مآربهم فى دولة السلاجقة. وهذان غلاما السلطان محمد بن ملكشاه من أخلص تلامذة الحسن الصباح . وبذلك نستطيع القول بأن تشيع كبار موظفى السلاجقة ، كان من أقوى العوامل فى نجاح دعوة الحسن الصباح وانتشارها [١] .

وبجانب هذا وذاك ، كانت البلاد التى روّج الحسن الصباح فيها مذهبه، بلادا تأصل فيها الإلحاد منذ عهد بعيد ، فقديما تأثر أهلها بمبادىء مزدك الاشتراكية الهدامة ، وفى العصر الإسلامى راجت فيها مبادىء كثيرة لها خطورتها ، مثل مبادىء البابكية الخرمية ، نسبة إلى بابك الخرمى ، الذى انضم إليه المتشيعون الغلاة ، ولذلك لا يبعد أن تنال دعوة الحسن الثورية فى تلك البلاد كثيرا من النجاح . أضف إلى ذلك أن مبادىء الشعوبية كانت رائجة هنالك ، وأن قلوب الأهلين فيها كانت تفيض بمقت العرب ودينهم ، فتمكن الحسن الصباح بفضل ذلك كله من إيجاد أرض صالحة لدعواه ، فنمت وترعرعت وآتت أكلها ، وأثمرت خير الثمار .

ولا ننس ما نال فريق الشيعة الاثنا عشرية من ضعف ، فقد طال انتظارهم لمهديهم، الذى اختفى فى سرداب بسامرا، منذ سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣م)

---

(١) الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٣ .

ويئس الكثير من الاثنا عشرية ذوى المطامع والآمال ، أن يروا دولتهم التى ينشدونها تحكم العالم الإسلامى . وتبدل الجور الحائق بهم بعدل شامل . وقد وجد هؤلاء مبتغاهم فى الانتقال إلى المذهب الإسماعيلى ، وكان الحسن الصباح نفسه أحد أولئك الاثنا عشرية ، الذين تركوا مذهبهم ، واعتنقوا المذهب الإسماعيلى .

وإذن كان لزعزعة الأفكار ، والمبادىء الاثنا عشرية فى بلاد فارس ، أثرها فى نجاح دعوة الحسن الصباح . انظر إلى ما يقوله المؤيد فى الدين ، هبة الله الشيرازى ، داعى دعاة الفاطميين ، وهو يكاد يكون معاصرا للصباح ، حيث يسمو بالإسماعيلية ويضع بالاثنا عشرية . فيقول : « ومعلوم أن أولاد عمنا أبى ابراهيم ، موسى بن جعفر [الكاظم] ، مافيهم من قاد عسكرا ، أو أثار من الملك عثيرا ، ولا من توج بذكر على وفاطمة وولدهما منبرا . كفعل آبائنا الأئمة الهداة[1] البررة ، فأى الفئتين أسبق عند جدها وأبيها بالفضل ؟ إن من صح وجوده من أولاد موسى الكاظم ليس عندهم علم خاص بهم ، وأنهم ارتموا فى أحضان المعتزلة ، واستقوا من علماء الكلام أصول التوحيد على مذهب المتكلمين ، فخسروا بذلك علم الأئمة »[2] . فاذا قرأ الناس أقوال المؤيد وسواه من الدعاة الإسماعيلية ، تزعزعت عقيدتهم فى زعماء الاثنا عشرية ، وآثروا عليهم الإسماعيلية .

---

(١) المقصود : الأئمة الإسماعيلية .

(٢) المؤيد : المجالس المؤيدية ، جـ ٢ ورقة ٧٦ ، ٧٧ (عن رسالة الدكتور محمد كامل حسين) . والمقصود بعلم الأئمة أصول المذاهب الشيعية .

ولو أضفنا إلى ذلك مناعة القلاع التى استقر بها الحسن الصباح وأنصاره ، أدركنا سر نجاحه الكبير ، ولا غرو ، فقد اختار الحسن لدعوته، البلاد الوعرة. التى يصعب على الجيوش المنظمة أن تنال منها غرضا والتى يسهل على الدعاة التأثير فى أهلها ، وإدخالهم ، فى المذهب الإسماعيلى ، وقد استطاع الحسن الصباح ، أن يكوّن أخطر الفرق فى الإسلام بين سلاسل جبال طبرستان، جنوبى بحر قزوين ، وسلاسل جبال قوهستان ، دون أن ينال السلاجقة منه غرضا ، بل إنك لتراه يدافع عن « قلعة آلموت » ومعه عشرات من الرجال لا غير ، ثم يهزم بهذا العدد الضئيل جيوش السلطان ملكشاه ، ثم ابنه السلطان محمد (٤٩٨ — ٥١١ ﻫ) ، بوجه خاص .

على أن طريقة الحسن الصباح فى نشر الدعوة السرية وبلبلة الأفكار بين الأعداء، وزعزعة عقائدهم، كان لها أثر كبير فى نجاحه . فقد اتخذ من دور دعوته ، نقط ارتكاز فى بلاد الأعداء، كما اتخذها محطات للجاسوسية النزارية ، وإنك لترى كثيرا من موظفى الحكومة السلجوقية ضمن أشياعه ، فكان لدور هجرته هذه أثرها فى إطلاعه على أسرار السلاجقة وخبايا السنيين . كل هذه العوامل كانت من أكبر دواعى نجاح الحسن الصباح واستقرار دولته .

٢ — صراع الحسن الصباح مع السلطان ملكشاه $\frac{٤٦٥}{٤٨٥}$ ﻫ = $\frac{١٠٧٢}{١٠٩٢}$ م

من العوامل التى ساعدت الحسن الصباح على النجاح فى أيامه الأولى ، أن رياسة الدعوة فى المشرق كانت موضوعة فى يديه ، وفى يدى أحمد بن عبد الملك بن عطاش : هذا فى أصفهان — مقر السلطان ملكشاه ،

وذاك فى «آلموت» — جنوبى بحر قزوين . وكان من حسن حظ النزارية، أن السلاجقة لم يدركوا خطر هذا الفريق فى أصفهان، إلا بعد موت السلطان ملكشاه، أما فى «آلموت»، فقد ترك السلطان ملكشاه أمر تأديب الصباح ونزاريته لعماله فى «روذبار»[١]. وطبرستان، جنوبى بحر قزوين، فلم يستطع هؤلاء العمال أن ينالوا من الحسن غرضا .

أقطع السلطان ملكشاه إقليم «روذبار»، إلى أحد قواده، ويدعى «ألتونتاش»، فأدرك هذا القائد خطر الحسن الصباح وفرقته، فلم يأل جهدا فى الوقوف فى وجه النزارية، وهاجم معقلهم الرئيسى فى «آلموت» مرات عدة، فى عهد السلطان ملكشاه، حتى أصاب أهلها الوهن، وتناقص عددهم، وكادوا يلقون السلاح، ويفرون منها إلى البلاد المجاورة .

وقد ساعدت الظروف الحسن الصباح، إذ تكاتف سكان القلعة معه، بعد أن قوى عزائمهم، بادعائه أن رسالة وصلت إليه من إمامهم الخليفة المستنصر الفاطمى، وفيها يحثهم على البقاء فى آلموت، ويعدهم بالنصر ما داموا صامدين فى هذه القلعة. فتمكن الحسن، بفضل تلك الدعوى، من الإبقاء على أهل «آلموت» ملتفين حوله . هذا من جهة، ومن جهة أخرى، تنفس النزارية الصعداء، بموت الأمير «ألتونتاش»[٢] والى إقليم «روذبار» السلجوقى .

والحق أن الحسن الصباح قد حالفه الحظ بموت ذلك الأمير، حتى

(١) وهو الإقليم الذى تتوسطه « آلموت » ، التى تقع فى ابتداء بلاد الديلم غربا . انظر . ياقوت .

(٢) Defremery ; Essai sur l'Hist. des Ismaeléens, p. 77

سمى قلعة «آلموت» ـ تبعا لذلك ـ قلعة «الحظ» أو قلعة «السعادة» . ومعنى هذا أن الحسن الصباح بدأ صراعه مع السلاجقة ، فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى ، ولا يبعد أن يكون ذلك الصراع بوحى من هذا الخليفة نفسه.

لم يكن السلطان ملكشاه قد أدرك خطر الحسن بعد ، فلما رأى ما آلت إليه قوته بعد موت الأمير «ألتونتاش» ، وبعد أن اجتمع جماعة من النزارية ، «فصلوا العيد وحدهم فى مدينة ساوه [1] ، وفتكوا بمؤذنها حين رفض الدخول فى مذهبهم [2]» . لهذا كله ، ولسعى نظام الملك بهم ، عزم السلطان ملكشاه على استئصالهم ، فأعد جيشين ، وجههما من جديد إلى قاعدتى النزارية فى إقليم «رودبار» (آلموت) وفى أقليم قوهستان (طورشيز [3]) وجعل ، فى قيادة جيش رودبار ، الموجه ضد الحسن الصباح نفسه ، «أرسلان تاش» ، أحد قواده المشهورين ، كما وضع قائده المشهور «قزل تاش» على رأس جيش قوهستان ، الموجه ضد «الحسين القينى» ، الذى كان واليا على قلعة «طورشيز» ، أشهر قلاع قوهستان ، قبل انضمامه إلى الحسن الصباح . على ما رأينا.

---

(١) ساوة : مدينة تتوسط الرى وهمذان ، وبالقرب منها مدينة آوة ، وكل أهلها شيعة إمامية . انظر ياقوت .

(٢) كان قتل النزارية المؤذن سببا فى قتل نظام الملك ، الوزير ، أحد أتباعهم ، وكان نجارا ، فكان هذا النجار أول قتيل من الإسماعيلية .

(٣) طورشيز : قرية أو قلعة تقع فى إقليم نيسابور ، بينها وبين مدينة نيسابور ثلاثة أيام .

قامت هاتان الحملتان، فى أوائل سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، وكان كل من القائدين السنيين يحمل الأوامر الصارمة من السلطان ، يحثه فيها على استئصال شأفة النزارية أينما وجدوا. وقد نجح القائد «أرسلان تاش» ، فى الوصول إلى قلعة «آلموت» فى جمادى الأولى سنة ٤٨٥ هـ = يونيه سنة ١٠٩٢م) ، وضيق عليها وعلى من بها الخناق ، حتى أنه لم يبق مع الحسن إلا أربعون رجلا، وطلب النجدة من أنصاره الإسماعيلية، فأنجده الدهدار[١] أبو على الأردستانى[٢] بثلثمائة رجل : فتمكن الحسن الصباح بهذه النجدة من الهجوم على القائد السلجوقى ، «أرسلان تاش» ، وعلى الرغم من قلة عدد النزارية ، إذا قورنوا بأعدائهم ، فإنهم تمكنوا من إيقاع الهزيمة التامة بجيش السلاجقة ، وفر القائد نحو أصبهان .

وصف البندارى ذلك بقوله : وصل المدد إلى قلعة «آلموت» ، وبمساعدة سكان القلعة ، ومساعدة إسماعيلية رودبار ، هوجم معسكر «أرسلان تاش» ، فارتد مهزوما . وقد تألم السلطان ملكشاه لذلك ، وعزم على إبادة النزارية ، ولكن حانت منيته دون تحقيق هذا ، وبموته وقف دولاب العمل ضد النزارية ، الذين أخذت قوتهم تنمو باضطراد[٣].

على أن وصول المدد النزارى من الرى إلى «آلموت» دون اعتراض

---

(١) الدهدار : شيخ القرية .

(٢) نسبة إلى أردستان ، وهى بلدة بين قاشان وأصبهان .

(٣) Defremery ; Essai sur l'Hist. des Ismaeléens, pp. 78-9

الجيوش السنية له فى الطريق، يعتبر أكبر دليل على مدى الفوضى فى الدولة السلجوقية السنية، كما يعتبر دليلا آخر على مدى انتشار المذهب الإسماعيلى فى بقاع كثيرة من بلاد فارس .

وإذا كانت هذه هى نهاية جيوش أرسلان تاش فى « آلموت » ، فإن زميله « قزل تاش » لم يستطع فتح قهستان ، وذلك أنه على الرغم من نجاحه ضد الداعى الكبير « الحسين القينى » ، والى النزارية على إقليم قهستان ، اضطر إلى رفع الحصار عن ذلك الوالى الإسماعيلى ، حين علم بموت السلطان ملكشاه ، واستطاع الإفلات من تلك البلاد الحصينة بشق النفس .

ويذهب ابن الجوزى إلى القول بأن الحسن الصباح استخدم حرب الأعصاب فى صراعه مع السلطان ملكشاه ، فكان يهدد هذا السلطان بالتخويف من خناجر فداويته ، بإظهار طاعة أنصاره وإخلاصهم له . ونعتقد أن الحسن لم يلجأ إلى هذا التهديد قبل عهد السلطان محمد بن ملكشاه . وعلى أية حالة ، يقول ابن الجوزى[1] : « وكان ملكشاه قد أنفذ إلى ابن الصباح، يدعوه إلى الطاعة ويتهدده، ويأمره بكف أصحابه عن قتل العلماء والأمراء ، فقال للرسول : الجواب ما تراه ، ثم قال لجماعة كانوا وقوفا بين يديه : أريد أن أنفذكم إلى مولاكم فى حاجة ، فمن ينهض لها ؟ فاشرأب كل واحد منهم لذلك ، وظن الرسول أنها رسالة يحملها إياهم ، فأومأ إلى شاب منهم ، وقال : اقتل نفسك : فجذب سكينة وضرب

---

(١) مرآة الزمان : حوادث سنة ٤٩٤ هـ .

بها غلصمته (١) ، فخر ميتا . وقال لآخر : إرم بنفسك من القلعة ، فألقى نفسه ، فتقطع ، ثم التفت إلى الرسول ، وقال : قل له : إن عندى عشرين ألفا ، هذا حد طاعتهم . وعاد الرسول ، وأخبر ملكشاه ، فعجب وأعرض عن قتالهم . وليس هذا صحيحا ، لأن السلطان ملكشاه مات وجنوده تقرع أبواب قلاع الإسماعيلية فى كل مكان — كما رأينا — .

ولم يكتف الحسن الصباح بذلك ، بل عزم على إحداث اضطراب عام فى ملك السلاجقة ، بالتخلص من الوزير السنى العظيم ، نظام الملك ، منافسه الخطير ، وأتبعه - على ما يقال - بسم السلطان ملكشاه . وقد تمكن الحسن من قتل هذا الوزير بأسلوب روائى درامى ، فى شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ ، بعد انتصاره على جيش القائد « أرسلان تاش » بشهر واحد ، وذلك على يد فداوى أتاه فى شكل متظلم . ولم يمض شهر آخر حتى مات السلطان ملكشاه ، فى شهر شوال من السنة نفسها ، مسموما ، على ما قيل .

ونحن لا نستبعد على اليد التى صاغت مقتل الوزير ، أن تصوغ مقتل السلطان ، والمهم أنه بتخلص الصباح من هاتين الشخصيتين ، خلا له الجو ، فتمادى أنصاره ، وعملوا على « مد نفوذهم فى كل مكان ، وأخافوا الناس ، وانطبق عليهم قول الشاعر :

يالك من قنبرة بمعمر خلالك الجو فبيضى واصفرى (٢)

وقد سن الحسن بعمله هذا سنته الخطيرة فى قتل الوزراء والأمراء والملوك المعارضين ، فظل هذا دأب النزارية ، حتى قتلوا الخلفاء ،

(١) الغلصمة : رأس الحلقوم ، وهو الموضع الناتىء فى الحلق .

(٢) Defremery ; Essai sur l'Hist. des Ismaeléens, p. 79

فاطميين كانوا أو عباسيين ، كما قتلوا العلماء ، وفى هذا رد على من قال : إن القتل السياسى ، او الاغتيال المنظم ، لم يكن من سياسة الحسن الصباح .

وقد كثر الكلام حول مقتل نظام الملك ، فمن قائل : إن الحسن الصباح ، بقتله نظام الملك ، انتقم لنفسه ، فَقَتْلُه والحالة هذه ، انتقام شخصى ، والحق فى غير ذلك ، لأن قتل هذا الوزير يعتبر انتصارا للمذهب النزارى ، وانتقاما له من كبار معارضيه السنيين خاصة ، وفيه أيضا سنة جديدة ، سنها الحسن لأتباعه ، وهى قتل كل من عارضهم . مهما عظم مركزه ، واستباحةُ القتل غدرا إذا عجزوا فى ساحة الوغى ، وإذن فإن قتل نظام الملك انتقام سياسى دينى وشخصى معا (١) .

ومن قائل : إن السلطان ملكشاه دس على نظام الملك من قتله ، لأنه سئم طول حياة هذا الوزير . وكره استبداده بالأمور هو وبنيه ، ولكن كيف يفعل السلطان ذلك ، وهو أكبر رأس سنية تدافع عن الإسلام والسنيين ضد الثوار ، وعلى الأخص ضد النزارية . ؟

على أن هناك جماعة يغلون ، فيعتقدون أن هذا السلطان ، خاف على نفوذه وملكه من نظام الملك ، وتأثر فى الوقت نفسه بعض التأثر بالمذهب الإسماعيلى ، فكره ، لذلك السبب ، نظام الملك ، عدو النزارية اللدود . لمَّح ابن الجوزى إلى هذا بقوله : « إن السلطان ملكشاه قد فسدت عقيدته بسبب معاشرته بعض الباطنية . ثم تنصل من ذلك ورجع إلى الحق » (٢) .

---

(١) Malcolm ; The Hist. of Persia, vol. ii, p. 243

(٢) مرآة الزمان ، ج ٨ ورقة ١٢ .

من هذا كله نرى أن السلطان ملكشاه لم يستطع أن ينال غرضا من الحسن الصباح ، ولا من نزاريته ، ومات ، وهو متألم لعجزه عن الانتصار عليهم ، وترك مهمة الصراع معهم إلى أبنائه الذين مزقتهم الحروب الأهلية ، وفرقت شملهم بددا .

٣ ـــ دولة الحسن الصباح وخلفاء ملكشاه :

(ا) موقف الحسن من السلطان بركياروق (٤٨٧ - ٤٩٨ ﻫ)

راجت الدعوة النزارية . وأخذ أتباع الحسن ينشرونها فى جميع أنحاء فارس ، وأشعلوا الثورات فى كل مكان ، ودخل دعوتهم كثيرون من كبار السلاجقة ، بعد أن هزموا جحافل السلطان ملكشاه ، وتخلصوا من وزيره العظيم ـ نظام الملك ـ فانتهزوا قيام الحروب الأهلية التى أعقبت وفاة هذا السلطان فإن ؛ « الخاتون » ، زوجة السلطان ملكشاه ، وضعت ولدها الصغير « محمود » على العرش ، فقامت الحرب بين أنصارها وبين السلطان بركياروق بن السلطان ملكشاه ، وانضم النزارية ، فى ذلك الحين ، إلى السلطان محمود وأمه « الخاتون » ، وكادوا يفتكون ببركياروق . وبموت السلطان محمود بعد قليل ، أصبح بركياروق سلطانا على السلاجقة .

وسرعان ما عارضه أخوه السلطان محمد بن ملكشاه ، وحاربه ، وكانت الحرب بينهما طويلة قاسية ، فانتهز الإسماعيلية النزارية ذلك ، وأخذوا يختطفون من لم يعتنق مذهبهم ، من الشوارع والطرقات ، وتفننوا فى طرق الفتك بالرعايا السنيين ، فكانوا أحيانا يجلسون امرأة بأصبهان على حصير بالية ، يغطون بها بئرا ، أعدوها لتكون قبرا لمن يأبى أن

ينضم إلى صفوفهم ويعتنق مذهبهم ، كما أعدوا رجلا ضريرا منهم ، يقف على رأس حارة من الحارات ، يطلب من المارة توصيله إلى نهاية الدرب ، ثم يفتكون بمن يرفض أن يعتنق مذهبهم كذلك .

وهكذا « لما مات السلطان ملكشاه آل أمرهم إلى أنهم كانوا يسرقون الناس ويقتلونهم ويلقونهم بالآبار ، فكان الإنسان إذا دنا وقت العصر ، ولم يعد إلى منزله يئسوا منه » (١) .

ولم يكتف نزارية الحسن بذلك ، بل تعرضوا للحاج ، وفتكوا بهم ، مقلدين بعملهم هذا ، إخوانهم القرامطة الإسماعيلية . فكانوا يتحدون الأمراء والوزراء ، ولا يخشون لهم بأسا ، وإنك لترى من النقاش الحاد الذى دار بين وزير السلاجقة وأحد الفداوية النزارية ، ما يدل دلالة قاطعة على إقدام الفداوية وجرأتهم . يقول ابن الجوزى (٢) فى حوادث سنة ٤٩٣ هـ : « قتل رجل أميرا فى الرى ، فى دار الوزير فخر الملك بن نظام الملك . وقيل : إن الرجل باطنى ، فأحضر بين يدى فخر الملك ، فقال : ويحك ! قتلت هذا الأمير فى دارى ، وهتكت حرمتى ، وأذهبت حشمتى ! فقال له الباطنى : وهل لك حرمة مهتوكة ، ودار مملوكة ، أو حشمة تمنع من الدماء المسفوكة ؟ أو ما علمت أننا ستة نفر ، بعثنا إلى ستة لنقتلهم ، أحدهم أخوك ؟ قال : وهل أنا من جملتهم ؟ قال : أنت أقل من أن تذكر ، أو نلوث سكاكيننا بدمك » .

---

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام (مخطوط) ، ج ٣ ورقة ص ٤٧٧ .

(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان . حوداث سنة ٤٩٣

وكانت مدينة «أصبهان» من أهم المدن التى كان النزارية يقومون فيها بأروع فتكاتهم، لعظيم تأثير الحسن الصباح وابن عطاش بها؛ فقد كان فرار الصباح من نظام الملك إليها، وكذلك حين عاد من مصر استقر بها، وأخذ ينشر الدعوة للمستنصر بها كذلك. هذا إلى أن أحمد بن عبد الملك ابن عطاش، رئيس النزارية الثانى قد اتخذها مجالاً حيويا للنزارية (١)، وقد زاد نفوذهم بها حين أضحت فى قبضة «الخاتون» زوجة السلطان ملكشاه، ثم فى قبضة «بركياروق»، الذى أصبح على هواهم، أو على الأقل، الذى كان يداريهم ويتملقهم أثناء حربه مع أخيه السلطان محمد.

وقد انضم إلى صفوف النزارية كثير من خيرة رجال السلاجقة، من هؤلاء، صاحب «كرمان»، الذى ثار به شعبه السنى، بسبب اعتناق مذهب النزارية، حتى لقد فر قائده إلى السلطان محمد بن السلطان ملكشاه، واستقر بأصبهان، وانتهى الأمر بموت صاحب «كرمان» هذا مقتولا (٢)، ومعنى ذلك انتشار المذهب النزارى فى «كرمان» - جنوبى فارس - أيضا.

ولا ننس كذلك أن النزارية أضحوا فى وقت ما بطانة للسلطان بركياروق، فقتلوا كثيرين من رجال أخيه السلطان محمد، حتى رمى بركياروق نفسه باعتناق مذهب النزارية، والحق أن بركياروق لجأ إلى النزارية، ليستعين بهم على أخيه السلطان محمد، فلما انتصر عليه استثار عداءهم، وفتك بهم (٣)

Defremery; Essai sur l'Hist. des Ismaeléens, p. 81 (١)

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠ ص ١١٩.

(٣) المصدر نفسه، جـ ١٠ ص ١٢٠.

على أن جماعة من السنيين ، وبخاصة العلماء منهم ، قاوموا المذهب الإسماعيلي النزاري . وكان الغزالي ـ حجة الإسلام ـ من أكبر العلماء تصديا لهم ، وأخذ أولئك العلماء ينشرون فتاويهم ضد النزارية ، سواء أكانوا مدفوعين بوازع من أنفسهم ، أو بتحريض الأمراء السنيين ، واخذوا في هذه الفتاوى يؤكدون أن النزارية أعداء للإسلام وملوكه وأمرائه وعامته. ويرمونهم بالكفر ، ويحرضون الدول والشعوب الإسلامية على حربهم .

يقول فون همر (١) : نال النزارية من العلماء وعلى رأسهم الغزالي ، ما نال القرامطة الغلاة قبلهم من العلماء ، وخصوصا من الإمامين أبي يوسف(٢) ، ومحمد(٣) ، حيث أعلن الجميع إباحة دمائهم وممتلكاتهم ، وبذلك زاد الحنق عليهم من كل جانب ، ووجدت الحكومات نفسها في حرب دائمة مع هذه الجماعة .

وعلى الرغم من أن كثيراً مما أورده فون همر صحيح ، إلا أننا لا نستطيع تصديق كل ماذهب إليه ، فإن القرامطة لم يكونوا قد ظهروا في عهد هذين العالمين ، وإن كنا نعلم أن أبا يوسف ومحمدا ، كانا وبالا على جميع الثوار الغلاة . ومهما يكن من شيء ، فإن الحسن الصباح ، وجماعة النزارية ، انتهزوا فرصة الحروب الأهلية ، التي قامت بين أبناء السلطان ملكشاه ، وتقربوا من

---

(١) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 101.

(٢) وهو أحد كبار أصحاب أبي حنيفة وتلامذته ، كان عربي الأصل (١١٣—١٨٢) ، ولي القضاء للمهدي والهادي والرشيد .

(٣) هو محمد بن الحسن الشيباني (١٣٢ — ١٨٩) كان ثريا ، على عكس صاحبه أبي يوسف .

السلطان محمود أولا ، ثم من السلطان بركياروق ثانيا ، وأكثروا من الاغتيالات المنظمة ، كما أكثروا من فتح القلاع والحصون .

والواقع أن السلطان بركياروق ، مثـل مع النزارية أدوارا ثلاثة ، كان ، فى الدور الأول منها ، عدوا لدودا للنزارية ، حتى جرحوه وهو يحارب أخاه الصغير ، السلطان محمود بن «الخاتون»[١]. وتودد إليهم فى الدور الثانى ، حتى امتلأ جيشه بهم ، وعلى الرغم من هـذا ، لم يكن أنصاره يأمنون على أنفسهم من غدر النزارية ، الأمر الذى يدل على أن أصدقاء النزارية وأعـداءهم كانوا جميعا فى خـوف دائم منهم[٢] . وقـد صدق دوسـو[٣] حين يقول : كان للحسن الصباح أنصار كثيرون فى كل مكان ، وكان هؤلاء الأنصار خطرا على أعدائه ، كما كانوا خطرا على أصدقائه ، فالأعداء يخافون القتل على أيديهم من يوم لآخر ، والأصدقاء يخافون على أنفسهم كـذلك من أعداء النزارية ، بل من النزارية أنفسهم .

ولا نستطيع أن ننكر أن النزارية أمنوا جانب بركياروق ، على ماذهب إليه ابن خلدون ، «وانتشروا فى معسكره ، وأغـروا الناس ببدعتهم ، وتجاوزوا إلى التهديد عليها ، حتى خافهم أعيان العسكر. وصار بركياروق

(١) تاريخ السلاجقة . نشر براون . فى المجلة الأسيوية الملكية ، سنة ١٩٠٢ م ، ص ٦٠٥ .

(٢) D'Ohsson ; Hist. des Mongoles, vol. iii, p. 158

(٣) Ibid. vol. iii, p. 159

يصرفهم على أعدائه ، والناس يتهمونه بالميل إليهم (١) » . وقد كان لهذا أثره فى زيادة نفوذ النزارية فى بلاد المشرق ، فامتلكوا القلاع الكثيرة ، إلا أن هذا التودد لم يدم طويلا ، بل انتهى الصراع بين الأخوين بانتصار السلطان بركياروق ، فتفرغ بعد انتصاره هذا للنزارية ، وصب جام غضبه عليهم ، وانتصح بنصح مرشديه فى الفتك بهم ، قبل أن تدور عليه الدائرة منهم (٢) .

والحق أن السنيين انضموا إلى أعداء بركياروق ، وسلقوه بألسنة حداد ، ورموه باعتناق المذهب النزارى ؛ فلم يجد هذا السطان بدا من الانتقام منهم ، ولا شك فى أنه أراد أن ينقذ سمعته الدينية ، لدى عامة المسلمين كذلك ، فبدأ الدور الثالث بعمله هذا . وقد أجاد الأصفهانى حين يقول : « وتعين على السلطان [بركياروق] أن يكاشفهم مدافعا ، لئلا ينسبه العوام وأهل الدين إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد ، كما جرى على ملك كرمان ، فإن الرعية اتهموه بالميل إلى القوم فبطشوا به ، وأقاموا ملكا آخر مقامه (٣) .

وإذن كانت حرب بركياروق مع الباطنية النزارية حربا يقصد بها انتصار المذاهب السنية على مذهب النزارية ، وعلى أية حالة ، كان غرض بركياروق من الفتك بالنزارية العمل على جذب قلوب السنيين إليه ، وبخاصة من كان منهم يرميه بالإلحاد . أيد هذا ابن الجوزى حين قال : إن بركياروق

---

(١) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٥٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٢٠ .

(٣) الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٣ .

بعمله هذا «أزال الشكوك التى حامت حوله ، حتى حسم هذا الأمر[١]» .

ويصح أن نستنتج من انتقاض بركياروق على النزارية ـ أنصاره بالأمس ـ فى سنة ٤٩٤ ﻫ أمورا منها ، كثرة انضمام كبار السنيين إلى هذه الطائفة ، من هؤلاء صاحب «يزد»[٢] ، وابن مستحفظ «تكريت» ، ـ فى العراق ـ وكثير من قواد بركياروق ، الأمر الذى يدل على تغلغل النزاريين فى حكومته ، حتى أن أحد وزرائه مات مقتولا على أيدى جنوده السنيين ، لأنهم شكوا فى إخلاصه ، واتهموه بالميل إلى النزارية . وهذا يدل على أن تأثير النزاريين فى الناس كان عظيما ، ولا غرو فقد وضع الحسن الصباح مبادىء وطرقا مغرية ، يتسلط بها الدعاة على عقول الناس . وإذن فإن الحركة النزارية الصباحية كانت حركة فكرية سياسية ، تشتبك فيها حرب الأعصاب وحرب المبادىء والعواطف من جهة ، وحرب السيوف والخناجر من جهة أخرى .

ونلحظ كذلك أنه على الرغم من إشادة المؤرخين السنيين بأعمال السلطان بركياروق ضد النزارية ، فإن عدد المقتولين من هذه الطائفة على يديه كان صغيرا إذا قورن بعددهم الحقيقى ، ويدلنا هذا على أن السلطان بركياروق لم يتمكن من استئصالهم . يقول أبو المحاسن[٣] فى حوادث سنة ٤٩٤ ﻫ : «قتل هذا السلطان خلقا من الباطنية ، وكانوا ثلثمائة ونيفا ، وكتب إلى

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٩٤ .

(٢) مدينة تتوسط نيسابور وشيراز وأصبهان انظر ياقوت .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (دار الكتب سنة ١٩٣٥ م) ، ج ٥ ص ١٦٦ .

الخليفة العباسى بالقبض على من اتهم أنه منهم» . مما يؤكد أن العمل الذى قام به هذا السلطان ضد النزارية لم يكن حاسما .

ونعتقد أن بركياروق لو كان مخلصا حقا فى ثورته على حلفائه النزارية ، لأعلن عليهم الحرب ، وأرسل إليهم الجيوش تلو الجيوش ، واقتلعهم من قلاعهم . والذى فعله فقط هو محاولة إزالة خطرهم عن بلاده ومن بين رعاياه ، لأنه اعتبر بقاء النزارية بين السنيين خطرا على ملكه ، ونظر إليهم كما ننظر اليوم إلى الجواسيس الخطرين ، أو إلى من نسميهم «طابورا خامسا» ، فكأن الذى أملى عليه سياسته ضد النزارية ، إنما هو عاطفة الحكم وحب الرياسة ، لا عاطفة الدين والمذهب .

ومن الأمور التى نلاحظها أيضا فى هذا السبيل، أن الاتهام باعتناق هذا المذهب كان سبة ومهانة ، وكثيرا ما اتخذ وسيلة للتشفى والانتقام . يقول الأصفهانى(١) : «ولما عرفوا جد السلطان فى إبادة القوم سعى بعض الناس ببعض ، وأحب وصمه بالإلحاد لسابق عداوة وبغض ، ووصمه باسم لم يمحه عنه غير السيف ، ولم يجد مبررا عن التزام الحيف ، وبقى فى هذه الاصطكاكات(٢) والاصطدامات خلق كثير ، وجم غفير ، ولم يبق الأكابر فى دفع ما عرا رأى ولا تدبير» .

وهكذا كانت حكومة السلاجقة فى عهد السلطان بركياروق تنظر إلى

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق (مصر ١٩٠٠) ، ص ٦٣ .

(٢) اصطك : اصطك القوم بالسيوف : تضاربوا بها .

بعمله هذا «أزال الشكوك التي حامت حوله ، حتى حسم هذا الأمر[١]» .

ويصح أن نستنتج من انتقاض بركياروق على النزارية - أنصاره بالأمس - في سنة ٤٩٤ هـ أمورا منها ، كثرة انضمام كبار السنيين إلى هذه الطائفة ، من هؤلاء صاحب «يزد»[٢]، وابن مستحفظ «تكريت» ، - في العراق - وكثير من قواد بركياروق ، الأمر الذي يدل على تغلغل النزاريين في حكومته ، حتى أن أحد وزرائه مات مقتولا على أيدي جنوده السنيين ، لأنهم شكوا في إخلاصه ، واتهموه بالميل إلى النزارية . وهذا يدل على أن تأثير النزاريين في الناس كان عظيما ، ولا غرو فقد وضع الحسن الصباح مبادىء وطرقا مغرية ، يتسلط بها الدعاة على عقول الناس . وإذن فإن الحركة النزارية الصباحية كانت حركة فكرية سياسية ، تشتبك فيها حرب الأعصاب وحرب المبادىء والعواطف من جهة ، وحرب السيوف والخناجر من جهة أخرى .

ونلحظ كذلك أنه على الرغم من إشادة المؤرخين السنيين بأعمال السلطان بركياروق ضد النزارية ، فإن عدد المقتولين من هذه الطائفة على يديه كان صغيرا إذا قورن بعددهم الحقيقي ، ويدلنا هذا على أن السلطان بركياروق لم يتمكن من استئصالهم . يقول أبو المحاسن[٣] في حوادث سنة ٤٩٤ هـ : «قتل هذا السلطان خلقا من الباطنية ، وكانوا ثلثمائة ونيفا ، وكتب إلى

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٩٤ .

(٢) مدينة تتوسط نيسابور وشيراز وأصبهان انظر ياقوت .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (دار الكتب سنة ١٩٣٥ م)، ج ٥ ص ١٦٦ .

الخليفة العباسي بالقبض على من اتهم أنه منهم». مما يؤكد أن العمل الذى قام به هذا السلطان ضد النزارية لم يكن حاسما.

ونعتقد أن بركياروق لو كان مخلصا حقا فى ثورته على حلفائه النزارية، لأعلن عليهم الحرب، وأرسل إليهم الجيوش تلو الجيوش، واقتلعهم من قلاعهم. والذى فعله فقط هو محاولة إزالة خطرهم عن بلاده ومن بين رعاياه، لأنه اعتبر بقاء النزارية بين السنيين خطرا على ملكه، ونظر إليهم كما ننظر اليوم إلى الجواسيس الخطرين، أو إلى من نسميهم «طابورا خامسا»، فكأن الذى أملى عليه سياسته ضد النزارية، إنما هو عاطفة الحكم وحب الرياسة، لا عاطفة الدين والمذهب.

ومن الأمور التى نلاحظها أيضا فى هذا السبيل، أن الاتهام باعتناق هذا المذهب كان سبة ومهانة، وكثيرا ما اتخذ وسيلة للتشفى والانتقام. يقول الأصفهانى(١): «ولما عرفوا جد السلطان فى إبادة القوم سعى بعض الناس ببعض، وأحب وصمه بالإلحاد لسابق عداوة وبغض، ووصمه باسم لم يمحه عنه غير السيف، ولم يجد مبررا عن التزام الحيف، وبقى فى هذه الاصطكاكات(٢) والاصطدامات خلق كثير، وجم غفير، ولم يبق الأكابر فى دفع ما عرا رأى ولا تدبير».

وهكذا كانت حكومة السلاجقة فى عهد السلطان بركياروق تنظر إلى

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق (مصر ١٩٠٠)، ص ٦٣.

(٢) اصطك: اصطك القوم بالسيوف: تضاربوا بها.

النزارية ، كما تنظر الحكومات الديمقراطية اليوم ، إلى معتنق المبادىء الفاشية والبلشفية مثلا ، وتلقى بأصحابها ومعتنقيها فى غياهب السجون ، والفرق بين ما تعمله الحكومات اليوم ، وما كانت تعمله الحكومات السلجوقية ، هو أن الفاشيين والبلاشفة فى البلاد الديمقراطية يلقى بهم فى غياهب السجون ، بحجة أنهم خطر على كيان الأمة التى ينتمون اليها ، أما النزارية فكان السلاطين السلاجقة يعتبرونهم خطرا على كيان الأمة ودينها معا ، ويعتبر القتل جزاء لهم ، لأن المبادىء الأولى مبادىء سياسية ، على حين تعتبر مبادىء النزارية مبادىء دينية وسياسية معا .

ونلاحظ أيضا أنه كان لهذه المذبحة على صغرها أثر كبير فى توجيه الدعوة النزارية ببلاد الشام ، فإن الداعى أبا إبراهيم الاستراباذى ـ أحد زعماء النزارية وأحد كبار موظفى السلاجقة ـ حين قتل سنة ٤٩٤ هـ فر أحد أقربائه إلى بلاد الشام ، وأخذ فى ترويج الدعوة النزارية هناك فكان لجهوده كبير الأثر فى نجاح النزارية بالشام . يقول ابن الأثير فيه : « وكتب بركياروق إلى بغداد بالقبض على أبى إبراهيم الأسداباذى الذى كان قد وصل اليها رسولا من بركياروق ، ليأخذ مال وزيره مؤيد الملك . وكان من أعيانهم ورؤسائهم (أى من أعيان النزارية) ، فأخذ وحبس ، فلما أرادوا قتله قال : هبوا أنكم قتلتمونى ! أتقدرون على قتل من بالقلاع والمدن ؟ فقتل ، ولم يصل أحد عليه ، وألقى خارج السور . وكان له ولد كبير قتل بالعسكر معهم »(١) وفرّ ابن اخته إلى بلاد الشام ، فنظم الدعوة النزارية بها .

---

(١) ابن الأثير : الكامل : جـ ١٠ ، ص ١٢٠ .

وقد أخذ بعض كبار الأمراء السنيين يقلد السلطان بركياروق فى الفتك بالنزارية ، حتى أن الأمير « جاولى سقاو » ، وكان واليا على البلاد الواقعة بين رامهرمز (١) وأرجان (٢) ، لما أدرك خطر النزارية ، بعد استيلائهم على الكثير من القلاع فى خوزستان وفارس ، وبعد قطعهم الطرق فى تلك البلاد ، عمل على التخلص منهم والفتك بهم ، واحتال عليهم وأفنى منهم عددا غير قليل (٣) .

ولم يقف أتباع الحسن مكتوفى الأيدى إزاء ذلك العدوان السنى ، بل أخذوا يردون على تلك الأعمال العدوانية بما هو أشد منها ، فاستولى الكيابزرجميد، كبير دعاتهم فى رودبار، على إحدى القلاع القوية فى سنة ٤٩٥ هـ، ووضع السيف فى رقاب أهلها، بعد أن رفضوا الدخول فى مذهب النزارية . ومن ثم أصبح مركز الكيابزرجميد فى رودبار وزميله المظفر فى خراسان ، من أخطر الأمور على دولة السلاجقة فى عهد السلطان بركياروق ، ومن وليه من السلاطين .

وكذلك انتقم النزارية لأنفسهم بقتل وزير السلطان بركياروق على أبواب أصفهان ، بين يدى السلطان ، وتحت سمعه وبصره (٤) . وليس هذا فقط ، بل فعلوا ما كان القرامطة يفعلونه من الفتك بالحاج ، ونهب أمتعتهم

(١) رامهرمز : انظر المصور .

(٢) أرجان »

(٣) ابن الأثير: الكامل ، ج ١٠ ص ١٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١٠ ص ١٢١ .

فقد اجتمع فى سنة٤٩٨هـ (١١٠٥م) قفل الحاج «مما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد ، فوصلوا إلى جوار الرى ، فأتاهم الباطنية [النزارية] وقت السحر ، ووضعوا فيهم السيف ، وقتلوهم كيف شاءوا ، وغنموا أموالهم ودوابهم ، ولم يتركوا شيئا » (١) .

نستطيع أن نتبين من هذا كله أن النزارية فى عهد الصباح أضحوا قوة يخشى بأسها ، فأصبحوا كدولة وسط الدولة العباسية السنية ، وأضحوا فى زمن السلطان بركياروق (٤٨٧ - ٤٩٨ هـ) قوة مرهوبة الجانب ، عملها انتهاز الفرص ، والإفادة من الظروف السيئة التى غمرت الدول السنية التى تحيط بها ، كما نتبين أن قاعدتهم « آلموت » لم تتعرض فى عهد بركياروق للأخطار التى تعرضت لها فى حكم ملكشاه أو ابنه السلطان محمد مثلا .

(ب) صراع نزارية الحسن الصباح مع السلطان محمد $\frac{٤٩٨}{٥١١}$ هـ $\frac{١١٠٥}{١١١٨}$ م

كان السلطان محمد بن ملكشاه أشد على النزارية من أخيه السلطان بركياروق ، فلما ولى الملك فى سنة ٤٩٨ هـ ، جعل دأبه قصد الباطنية ، مدفوعا فى ذلك بعاطفة الانتقام منهم ، لانضمامهم إلى أخيه بركياروق عليه ، وتهديدهم ملكه ؛ فقد باتت قلعة «آلموت» تهدد خراسان ، وأضحت دار الدعوة ، فى أصفهان تهدد فارس . بل أصبحت مملكة السلاجقة مجالا حيويا للنزارية أنفسهم ، ينشرون فيها نفوذهم. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان للعاطفة الدينية ، أو التظاهر بتلك العاطفة أثر كبير فى تحريك الهمم ضد النزارية فى عهد السلطان محمد ، الذى رغب فى جذب السنيين عامة

---

(١) ابن الأثير الكامل ، ج ١٠ ص ١٤٧.

إليه، حتى لا يرمى بالتقرب إليهم، كما رمى أخوه بركياروق به من قبل، وليس هذا فقط، بل لقد اتضحت له خطورة هذه الطائفة، حين رأى رضوان ابن عمه تتش بن ألب أرسلان، صاحب حلب، يعتمد على النزارية، ويقيم لهم ببلاده دورا للدعوة، فأدرك السلطان محمد، خطورتهم على ملكه فى الشرق والغرب، واعتقد أنه بالقضاء عليهم فى فارس وخراسان، سوف يقضى عليهم فى بلاد الشام كذلك.

وكان يهم هذا السلطان القضاء على نزارية قلعة «شاه دز» المجاورة لحاضرة ملكه، أصفهان، وبخاصة بعد أن احتلها «كبير الدعاة» الثانى، أحمد ابن عبد الملك بن عطاش، وبعد أن احتل الكيا بزرجميد قلعة قوية أخرى فى إقليم «رودبار»، وبعد أن استقرت حكومة النزارية فى «آلموت»، وقويت. وقد كان مشروع السلطان محمد يرمى إلى التخلص من قلعة «آلموت»، ومن قلعة «شاه دز» معا، لأنه بالقضاء على الحسن الصباح فى «آلموت»، وابن عطاش فى «شاه دز»، يقضى على الزعامة النزارية الممثلة فى شخصيهما.

١ — السلطان محمد وابن عطاش

ونستطيع أن نتبين من استيلاء ابن عطاش على قلعة «شاه دز»، براعة النزارية فى التحايل والدهاء، فإنه على الرغم من تظاهر كبير الدعاة ابن عطاش، بالتبرؤ من المذهب الإسماعيلى، عمل على جذب سكان القلعة إلى مذهبه بطريق سرية ملتوية، مما يدل على أنه إنما تظاهر بالتبرؤ من النزارية تقية. وكان السلطان ملكشاه قد وضع خزائن ملكه بهذه القلعة، كما وضع

بها خزائن سلاحه ، وغلمان قصره ووصيفاته ، وجعل عليها حراسا من الديالمة ، فتمكن أحمد بن عبد الملك بن عطاش من الدخول إلى القلعة ، كمدرس يعلم الفتيان بها ، وكتاجر يبيع للفتيات بها ما يحتجنه . وقد اعتاد هذا الزعيم النزارى الثانى ، الاتصال بالحراس الديلم ، وإلقاء الدروس الدينية عليهم ، فعقدت بينه وبينهم أواصر المحبة . وأخذ عليهم العهود ، وأصبح بهذه الطريقة - على مضى الزمن - الحاكم المطاع فى القلعة ، فاستولى عليها ، ونهب ما بها .

ولم يكتف أحمد بن عبد الملك بن عطاش بذلك ، بل أنشأ عند باب مدينة أصفهان « دار دعوة » "Dawat Khana" ، حتى اعتنق كثير من أهل أصفهان المذهب الإسماعيلى ، وبلغ عددهم بها أكثر من ثلاثين ألف نسمة ، فقوى أحمد بن عبد الملك بهم ، وأخذ يغير على المسلمين السنيين ، كما أخذ الباطنية يخطفون الناس من الطرقات . وقد افتضح أمرهم ، ورأى السلطان محمد ضرورة الإنهاء عليهم . يقول ابن القلانسى (١) : إن أحمد بن عبد الملك « كان شديد البأس ، لا يسمع بأمير له صولة ، ولا عالم له منزلة ، إلا بعث إليه من يفتك به » .

ويظهر أن امتلاك أحمد بن عبد الملك قلعة « شاه‌دز » إنما حدث فى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ، لأنه بقى بها اثنى عشر عاما ، حتى استردها منه السلطان محمد فى سنة ٥٠٠ هـ (١١٦٠ م) (٢) يؤكد هذا ما ذكره

(١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥١ .

(٢) مما يدل على استغلال النزارية النزاع بين أبناء السلطان ملكشاه ، فقد انضموا إلى بركياروق ، فتغاضى هذا عنهم ، ثم استولوا على قلعة « شاه دز » على مرأى منه .

ابن الجوزى[1] فى قوله : « وكان ابن عطاش لما مات ملكشاه قد تحيَّل عليها وملكها ، وأقام بها اثنتى عشرة سنة » .

بهذا كله ترى أن السلطان محمد بن ملكشاه كان مجبرا ، أمام قوة النزارية ، على أن يفتك برئيسهم فى «شاهدز» ، فقد نال المسلمين السنيين من هذه القلعة أذى كثير ، فقتل النزارية من رعاياه كثيرين ، واضطرت قرى السلطان محمد ـ المجاورة لها ـ أن تدفع الجزية لابن عطاش ، وتمادى النزارية ، وفرضوا على الناس ضرائب عدة ، فكان حتما على السلطان ، بعد أن صفا له الجو ، أن يدافع عن السنة ، وعن الرعية معا ، بإعلانه الحرب على « شاهدز » وعلى « آلموت » .

ولم يكن ذلك إلا لأنه قد « صار لابن عطاش عدد كثير وبأس شديد ، واستفحلت أموره بالقلعة ، فكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال . وقتل من قدروا على قتله ، فقتلوا خلقا كثيرين لا يمكن إحصاؤهم ، وجعلوا على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ، ليكفوا عنها الأذى . فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراه ، والناس بأملاكهم ، وتمشى لهم الأمر بالخلف الواقع بين السلطانين بركياروق ومحمد ؛ فلما صفت السلطنة لمحمد ، ولم يبق له منازع ، لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربهم ، والانتصاف للمسلمين [السنيين] من جورهم وعسفهم »[2] .

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ورقة ١٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٦٢ .

وفوق ذلك اجترأ نزارية هذه القلعة على قتل وزير السلطان سنجر، شقيق السلطان محمد بن ملكشاه، فرأى هذا أن ينتقم لكرامة أخيه منهم، وأن يدفع غائلة النزارية عن السنيين، وبعبارة أخرى اتفق السلطانان: سنجر ومحمد على البدء بنزارية قلعة «شاه دز». يقول ابن الجوزى: «ويقال: إن الباطنية النزارية لما قتلوا فخر الملك وزير سنجر، كتب سنجر إلى محمد يقول: إن هؤلاء لا يبقون على ولا عليك، والواجب قلعهم عن الأرض وإبادتهم؛ فسار إلى قلعة ابن عطاش وفعل ما فعل» (١).

وعلى أية حالة، رأى السلطان محمد البدء بقلعة «شاه دز»، لأنها قريبة من أصفهان، قاعدة ملكه، ولأن ضررها على رعاياه السنيين كان بليغا حقا، أو بالأحرى، لأن الأذى بها أكثر من غيرها، «وهى متسلطة على سرير عسكره» (٢).

ولما أدرك نزارية هذه القلعة ما اعتزمه السلطان محمد، ملأ أنصارهم من الموظفين الحكوميين الجو شائعات، نتج عنها تأخير سير الحملات إليها، فأظهروا أن ثورة اندلعت ببغداد، وأخرى بخراسان، ولكن السلطان محمدا، خرج بنفسه إلى قلعة «شاه دز» فحاصرهم - على ما يقول ابن الأثير - فى سادس شعبان سنة خمسمائة (١١٠٧ م)، «وكان قد عزم على الخروج أول رجب، فساء ذلك من يتعصب لهم [للنزارية] من العسكر، فأرجفوا أن قليج أرسلان بن سليمان، ورد بغداد وامتلكها، وافتعلوا فى ذلك مكاتبات،

---

(٢) ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ ٨ ورقة ١٤.

(٣) العينى: عقد الجمان، جـ ٢٠ ورقة ٦١٢.

ثم أظهروا أن خللا قد تجدد بخراسان ، فتوقف السلطان لتحقيق الأمر ، فلما ظهر بطلانه ، عزم عزيمة مثله ، فقصد حربهم »[١].

ويتضح اهتمام السلطان محمد بحرب ابن عطاش، من أنه كان على رأس الجيوش المحاربة، وأنه صعد بنفسه جبلا مقابلا لقلعة «شاه دز» التي اعتصم بها النزارية ، وأمر بإحكام حصارها ، حتى لا يستطيع ابن عطاش ومن معه الإفلات منها ، كما نظم القتال بطريقة فعالة تضمن له النجاح ، وجعله بالتناوب بين أمرائه، وقد انضم إلى جيوشه ألوف من سكان تلك النواحي - نواحي أصبهان - ممن يرغبون في الانتقام من النزارية ، حتى أنه «اجتمع له من أصبهان وسوادها ، لحربهم ، الأمم العظيمة ، للذحول[٢] التي يطالبونهم بها » . ويظهر أن هذه الجيوش كانت من الكثرة بحيث قال فيها ابن القلانسي[٣] : «وتوجه [السلطان محمد] إليها في عساكره الدثرة[٤]، المتناهية في القوة والكثرة » .

وقد بذل نزارية ابن عطاش أرواحهم رخيصة في الدفاع عن قلعتهم، ولما قلت مؤونتهم وأوشكت على النفاد ، سلكوا مسالك شتى، للحصول على الذخيرة ، وإطالة أمد الحرب ، فكانوا يرسلون جماعات منهم لنهب جيوش السلطان على غرة ، كي يملئوا بطونهم ، ويطيلوا أمد الحصار

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ١٦١ .

(٢) الذحول : الأخذ بالثأر .

(٣) ذيل تاريخ دمشق (بيروت سنة ١٩٠٨ م) ، ص ١٥١ .

(٤) الدثرة : الكثيفة .

دون التسليم ، كما لجئوا إلى التظاهر بالإسلام ، واعتناق مبادئ السنة ، وطلبوا من السلطان محمد أن يعرض أمرهم على فقهاء السنيين ، وإليك نص ما عرضوه عليه : « مايقول السادة الفقهاء ، أئمة الدين ، فى قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر وكتبه ورسله ، وأن ما جاء به محمد ، عليه الصلاة والسلام ، حق وصدق ، وإنما يخالفون فى الإمام ، أيجوز للسلطان مساعدتهم ومهادنتهم ومواعدتهم [١] ، وأن يقبل طاعتهم ؟ [٢] » .

وكاد النزارية أن ينجحوا فى هذه السبيل ، لأن كثيرا من الفقهاء السنيين أفتوا بجواز ذلك ، إلا واحدا امتنع وقال : « يجب قتلهم . ولا ينفعهم اللفظ بالشهادتين ، وحجته فى ذلك أن النزارية يطيعون إمامهم إذا أباح لهم ما حرمته الشريعة الغراء » ، فأخفقت محاولتهم أمام هذا الإصرار السنى . ونحن لا نستبعد أن يكون للنزارية أنصار فى صفوف رجال السلطان السلجوقى ، حتى من بين الفقهاء أنفسهم ، لأنه على الرغم من إقناع هذا الفقيه السنى زملاءه الفقهاء ، طال أمد المناظرة .

على أن النزارية لجئوا إلى مماطلة أخرى ، لأنهم كانوا يعتمدون على عنصر الزمن ، الذى كان فى صالحهم وحدهم . فطلبوا من السلطان محمد أن يرسل إليهم الفقهاء ليناظروهم فى أصول دينهم وعقائدهم . فلما صعد الفقهاء إلى قلعتهم ، لم يتفقوا على شىء . وقد أدرك السلطان محمد مايرمى إليه النزارية من إطالة أمد الحرب ، كى يلعب أنصارهم بأصابعهم فى الجيش السلطانى ، فشدد الحصار عليهم .

---

(١) هكذا ورد فى الذهبى : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ورقة ٥١٧ .

(٢) المصدر نفسه .

وقد لجأ النزارية إلى حيلة جديدة أخرى ، فحاولوا ترحيل أكبر عدد ممكن منهم من قلعة « شاه دز » ، وطلبوا من السلطان محمد أن يسلم إليهم قلعة أخرى ، يحتمون بها من العامة السنيين ، ولما أجيبوا إلى ذلك ، طلبوا من السلطان أن يمدهم ببعض إمدادات يعتمدون عليها فى أثناء ارتحالهم عن هذه القلعة الأولى ، فكان « قصدهم المطاولة ، انتظارا لفتق ينفتق ، أو حادث يتجدد »[1] على أن النزارية لم ينفذوا شروط الاتفاق ، « وأقاموا تلك المدة يجمعون ما يقدرون عليه من الأطعمة ، ووثبوا على بعض الأمراء وقتلوه[2] » .

اضطر السلطان محمد إلى تخريب القلعة التى قصدوا الذهاب إليها ، وحينئذ عرضوا على السلطان الذهاب لبعض قلاعهم الأخرى ، على أن يبقى بعض منهم بقلعة «شاه دز» ، إلى أن يتم وصول الأولين إلى تلك القلاع النزارية ، وكان من تبقى منهم فى قلعة « شاه دز » ، وعلى رأسهم كبير الدعاة أحمد بن عبد الملك بن عطاش ، قد اتخذوا لهم فى هذه القلعة مكانا تحصنوا فيه ، وصفه السلطان محمد بقوله : «واعتصم ابن عطاش بقلة[3] أخرى ، تسمى «دالان» مع نخب أصحابه من المقاتلة . وهذه القلة من أمنع المواقع من القلعة وأحصنها ، وأوعرها مسلكا وأحزنها[4] . فقد نقل إليها ما كان بقى لهم من الميرة وسائر ما يستظهر به من السلاح والذخيرة »[5] .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٦٢ .
(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ١١٦ .
(٣) : القلة = القمة .
(٤) أكثرها ارتفاعا وانخفاضا .
(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (بيروت سنة ١٩٠٩) ، ص ١٥٤ انظر الملحق رقم ١ .

والحق أن ابن عطاش لجأ إلى تلك القمة ، بعد أن نصحه بذلك جواسيسه فى قصر السلطان محمد ، وعلى رأسهم الوزير - سعد الملك - يتضح هذا كله من رسالة السلطان محمد إلى الخليفة العباسى المستظهر، وفيها يقول : « وأمامنا من المستخدمين وأصحاب الدواوين نفر تصغى إليهم أفئدتهم، فيما كانوا عليه من مخالفة، يتوصلون بمكرهم من نقض ما يبرم وتأخير ما تقدم ، ويوهمون أنها من النصائح التى تقبل وتلزم ، حتى يتطاول دونه ذلك الآن (١) ، وبان من القوم المعتقد ، واتضح لنا من صائب التدبير ما يعتمد » ، وقد أوضحت الرسالة فى مكان آخر ، انتقام السلطان من صنائع الحسن الصباح ، وابن عطاش ، فقالت : « ثم انتقمنا من المستخدمين الغادرين بالملك والدين ، حتى ساقهم الحين المتاح إلى حين(٢) فلم يفلت منهم صاحب ولا مصحوب ، إن الشقاء على الأشقين مصبوب » (٣) .

أما انضمام وزير السلطان محمد ، المدعو سعد الملك ، إلى جماعة النزارية ، فيتضح من اتهام كبار أصفهان له بذلك ، وإعراض السلطان عن تصديقهم أول الأمر، غير أنه تأكد من صحة هذا الاتهام بعد حين ، فعلم أن هذا الوزير كان يراسل ابن عطاش فى محنته الأخيرة ، فقد أرسل الرئيس النزارى إليه يقول: لم يعد لدينا ما يكفينا من المؤن ، وقد كانت

---

(١) الآن : الزمان .

(٢) الحَيْنُ : النهاية .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (بيروت سنة ١٩٠٩ م) ، ص ١٥٤ انظر ملحق (١) .

سواعد رجالنا ، ونحن راغبون فى تسليم القلعة » . فطلب منه الوزير الصبر أسبوعا واحدا ، حتى يقضى فيه على ذلك «الكلب» - أى السلطان محمد - ولهذا تآمر سعد الملك مع فاصد ، أعتاد أن يفصد السلطان كل شهر، ومنحه ألف دينار، فى مقابل سم السلطان . ولم يكن الوزير وحده هو المتآمر على قتل السلطان محمد ، بل كان حاجبه على علم بتلك المؤامرة ، فأفشى سرها إلى زوجته ، وهذه أفشتها إلى من أخبر بها السلطان . فلما تحقق هذا من صحة المؤامرة ، فتك بالوزير سعد الملك . وكان من أثر الفتك بالوزير الخائن ، أن سلم ابن عطاش القلعة بعد قتله بيومين اثنين(١).

ومهما يكن من أمر فإن الهجوم على النزارية كان شديداً . وقد برهن ابن عطاش على مقدرة حربية نادرة المثال ، وقوة أعصاب حديدية ، إذ لم يكن يحارب جحافل السلطان محمد إلا بثمانين رجلا، وموه على أعدائه، فأقام أسلحة على هيئة الرجال فى بعض المواقع ، ودافع عن البعض الآخر ، وكان من أثر استيلاء السلاجقة على تلك القلعة ، والقبض على أحمد بن عبدالملك بن عطاش ، وعلى ولديه ، والتمثيل بهما فى شوارع مدينة أصفهان ، ثم قتلهما ، وإرسال رأسيهما إلى بغداد ، زعيمة السنيين حينئذ. وبقتله أيضا قضى السلطان محمد على عدو خطير ، طالما أنكى فى السنيين . وكانت قلعته ، « شاه دز » ، شوكة فى ظهر السلاجقة وسيادتهم ، وبهذا تمكن السلطان محمد من أن يوجه كل قواه ، بعد ذلك ، إلى الزعيم

---

(١) تاريخ السلاجقة . (مخطوط بباريس— ترجمة براون فى المجلة الأسيوية الملكية سنة ١٩٠٢) ، ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

الثانى - الحسن الصباح - بقلعته « آلموت » ، فى جبال « إلبورز » ، جنوبى بحر قزوين .

على أن القضاء على ابن عطاش أفاد الحسن الصباح نفسه كثيراً ، لأن زعامته كانت محدودة فى حياة ابن عطاش ؛ وبهذا نرى أن الحسن الصباح لم يجمع السلطة كاملة فى يده إلا بعد وفاة ابن عطاش (١) ، ولا غرو ، فقد كان ابن استاذه ، كما كان موضع احترام النزارية جميعا .

(٢) السلطان محمد والحسن الصباح

بعد قضاء السلطان محمد على ابن عطاش النزارى ، فى سنة ٥٠٠ ﻫ ، وجه جيوشه جميعها إلى قلعة « آلموت » ، وقوّد عليها وزيره أبا نصر أحمد بن نظام الملك ، أكبر عدو للنزارية ، فى ذلك الحين ، فكان اهتمامه بآلموت كاهتمامه « بشاه دز » ، كما كانت كراهيته للحسن الصباح أكثر من كراهيته لابن عطاش . ويهمل بعض المؤرخين ذكر المجهودات التى بذلها السلطان محمد ضد النزارية فى « آلموت » ، فور قضائه على ابن عطاش ، ولا يذكرون عنها شيئا إلا فى سنة ٥٠٥ ﻫ .

ولا مراء فى أن السلطان محمد ، لما علم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم ، وإخراب ديارهم ، وملك حصونهم وقلاعهم ، جعل قصدهم دأبه (٢) . وإن فى إرساله وزيره أبا نصر بن نظام الملك ، استثارة لما فى نفس ذلك الوزير ، من حقد دفين على النزارية ، الذين قتلوا أباه ، نظام الملك ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٣ ص ٢٨٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٩٩ .

بالأمس ، فكان اختيار السلطان محمد بن ملكشاه هذا الوزير دون غيره ، دليلا على ما عزم عليه من استئصال شأفة النزارية .

ويختلف المؤرخون فى تحقيق الوقت الذى أرسلت فيه تلك الحملة الأولى ضد «آلموت» ، فيرى ابن القلانسى أنها كانت فى ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) ، ويرى ابن الفرات وابن الأثير ، أنها فى سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) . فيقول ابن القلانسى[1] فى حوادث سنة ٥٠١ هـ : إن الوزير «أظفره الله بهم ، ونصره عليهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وخرب منازلهم وقلاعهم » . ويقول ابن الفرات [2] فى حوادث سنة ٥٠٣ هـ : إن حصار الوزير قلعة « آلموت » كان شديدا ، حتى كادت أن تقع فى قبضة يده ، لولا «هجوم الشتاء عليهم ، وسقوط الثلوج ، فاقتضى الرأى العود عنه ، وعن حصار آلموت ولم يبلغوا منه غرضا » .

وقد عمل الحسن الصباح على الانتقام من وزير السلطان محمد ، فشيع وراءه جماعة من فداويته ، لحقوه فى بغداد ، حين دخل مع السلطان محمد ، فأصابوه بجروح ، شفى منها بعد علاج طويل ، ومجهود طبى متصل . ويدلنا على خطر تآمر الحسن ضد الوزير السنى أنهم «أخذوا الباطنى ، وسقى الخمر بغير اختياره ، فلما سكر ، سئل عن أصحابه ، فأقر على جماعة بمسجد المأمونية[3]» .

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٢ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط مصور) ، ج ١ ورقة ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ص ١٨١ ، والمأمونية : محلة كبيرة فى بغداد . ويدلك هذا كله على مدى تأثير النزارية فى الدولة الإسلامية حتى فى بغداد ذاتها .

وإذا كانت حملة السلطان محمد الأولى على «آلموت» قد أخفقت ، فقد أعد فى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م) ، جيشا آخر برياسة قائده الكبير «أنوشتكين شيركير» ، الذى كان مربيا لابنه الأمير طغرلبك. وكان قبلا من أنصار السلطان بركياروق ، فلما أدرك ميله إلى النزارية تبرأ منه ، وقصد إلى السلطان محمد ، فعظمت منزلته لديه . ووصفه الأصفهانى بقوله (١) : «كان شهما شديدا ، وسهما سديداً ، وسما زعافا على العدو ، وموتا زؤاما على أهل الإلحاد والعتو» .

ويرى ميرخوند أن الحملات التى وجهها السلطان محمد ضد النزارية فى «آلموت» ، منذ سنة ٥٠٠ هـ حتى سنة ٥١١ هـ (١١١٧م) ، كانت بقيادة الوزير أبى نصر بن نظام الملك، وهذا عكس ما يراه ابن الفرات وغيره . ويظهر أن السلطان محمد ، حين أدرك ضعف هجوم هذا الوزير على النزارية ، قرر استئصال شأفتهم ، بالاستعانة بقائد ذى خبرة فى جميع الفنون الحربية ، متشرب بكره النزارية .

ومهما يكن من أمر ، فإنه عهد إلى أنشتكين بفتح جميع بلاد «رودبار» ، جنوبى بحر قزوين ، وضمها إلى ابنه طغرلبك. وكان دأبه تخريب قلاعهم ، وإتلاف مزروعاتهم ، وإفناء رجالهم ، كما كانت غايته النهائية تتركز فى الاستيلاء على قلعة «آلموت»(٢) ، وجعلها أثرا بعد عين ، ولذلك عمل على استلاب كل ما يحيط بها من قلاع الدعوة ، غير أنه كان يرسل سكان تلك القلاع إلى قلعة «آلموت» .

وقد يعتقد المرء أن ما فعله القائد الكبير شيركير من أكبر الأخطاء الحربية،

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٠٧ .

(٢) Defremery ; Nouvelles Recherches (J. A. 1848) p. 34

لأنه كان يعمل على تقوية جيوش «آلموت». غير أن ذلك القول ليس صحيحا في جملته، لأن شيركير إذا ما أحكم الحصار حول «آلموت» فإن ذلك العدد الكبير سوف يصبح عالة على الحسن الصباح، وسوف يعجز عن تموينهم. وسترينا الحوادث صحة هذا الرأى، فقد كان حصار «آلموت» وإماتة من بها غايته، ولذلك بنى حولها المساكن، وجعل الحرب ضدها مناوبة بين قواده، وأخذت الإمدادات تتدفق عليه، الأمر الذى يدل على اهتمام القائد والسلطان معا، ب رب النزارية وإبادتهم.

يصف ابن الفرات [1] مهارة القائد شيركير بقوله: «وكان هو صاحب العزيمة والبصيرة فى قتالهم: من جودة رأى وشجاعة. فبنى عليها [أى على آلموت] مساكن يسكنها هو ومن معه، وعين لكل طائفة من الأمراء شهورا يقيمونها، وكانوا يغيبون ويحضرون، وهو ملازم الحصار». وقد نجحت خطته، حتى ضاق الأمر بالحسن الصباح ومن معه، وقلت الأقوات لديهم. وعلى الرغم من دقة الحسن الصباح ومهارته الفائقة فى تموين نزارية «آلموت» ومن لجأ من أشياعه إليها، إلا أنه رأى ألا طاقة له بذلك الحصار، الذى أحكمت حلقاته حوله.

وقد لجأ الحسن فى تخفيف ضغط القائد شيركير عليه إلى طريقة بارعة، فأخرج النساء والأطفال مستأمنين، وطلبوا السماح لهن ولرجالهن بالخروج من قلعة «آلموت». ولما كان هم شيركير ينحصر فى إماتة النزارية

---

(١) تاريخ الدول والملوك، جـ١ ورقة ١٠٩.

صاغها بيديه ، إذ بفضل هذا كله ، أمر السلطان الجديد ، بفض الحصار عن قلعة « آلموت » ، ثم القبض على القائد « شيركير » . ويرينا هذا بطلان ما ذهب إليه جمهرة المؤرخين من أن الجيوش التى كانت تحاصر « آلموت » ، حين سمعت بموت السلطان محمد ، عادت أدراجها من غير نظام .

والحق أن الأوامر التى صدرت إلى هذه الجيوش إنما أصدرها الوزير ، الدركزينى ، والسلطان الجديد - محمود بن محمد بن ملكشاه - ، دون أخذ رأى القائد شيركير ، فحاول هذا أن يبين لمن معه من القواد خطورة التقهقر الفجائى ، وحتّم عليهم وجوب الانتظار مدة من الزمان ، يستطيعون خلالها ترحيل مؤنهم وذخائرهم ، كيلا تقع فريسة فى يد العدو . وقد ذهب ابن الأثير (١) إلى القول بأن شيركير فوجىء مفاجأة تامة برحيل جيوشه دون أخذ رأيه فيقول : إن هذا القائد قال لمن معه : « إن رحلنا عنهم وشاع الأمر ، نزلوا إلينا ، وأخذوا ما أعددنا من الأقوات والذخائر ، والرأى أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها ، وإن لم يكن المقام ، فلابد من مقام ثلاثة أيام ، حتى ينفذ منا ثقلنا وما أعددناه ، ونحرق ما نعجز عن حمله ، لئلا يأخذه العدو » .

ولكن « الدبلوماسية » التى أمرت الجيوش بالارتداد ، تمكنت من التفرقة بين آراء القواد ، إذ على الرغم من الجهود التى بذلوها ، والعهود التى أخذوها على أنفسهم بالبقاء ، حسبما أشار القائد شيركير عليهم ، « رحلوا بغير ترتيب ، ولم يبق غير هذا الأمير ، ونزل إليه الباطنية من قلعة « آلموت » ، فدافعهم وقاتلهم ، فقتلوا من العسكر خلقا كثيرا . وحمى الأمير

---

(١) الكامل : جـ ١٠ ص ١٩٩ .

شيركير من تخلف من سوقة العسكر وأتباعه ، ولحق بالعسكر »[١] .

وقد نتساءل عن السر الحقيقى فى ذلك التقهقر : فهل كان معنى هـذا إقرار السلاجقة بعجز جيوشهم الجرارة أمام خناجر الفداوية والنزارية ؟ إن صح ذلك الافتراض ، دل على مدى قوة النزارية ، وعجز السلاجقة . أم أن ذلك يرجع إلى خيانة الوزير الدركزينى وحده؟ قد يكون ذلك صحيحا ، خصوصا بعد أن عرفنا كيف رغب هـذا الوزير فى التودد إلى النزارية ، ليستغل خناجرهم ضد أعدائه ، ولـكن هـذه الخيانة لا يصح أن تـكون السبب الأوحد فى ذلك التراجع المخزى . والذى يظهر لنا ـ فوق ما تقدم ـ أن هذا الوزير أدخل فى روع السلطان الجديد أن الجيش الذى يحاصر «آلموت» قد يستخدم ضده ، ومن الواجب تقهقره ، حتى لا يستغله القائد شيركير لصالح ربيبه وولى نعمته ، طغرلبك بن السلطان محمد .

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل قبض القواد على هـذا القائد المخلص ، بأمر من السلطان محمود نفسه ، أو بعبارة أخرى ، « لما لحق الأمير شيركير بالعسكر ، أظهر الأمراء الذين كانوا معه أن كتب السلطان محمود وردت عليهم بالقبض عليه »[٢] .

وأما نهاية القائد شيركير ، فقد صاغها بأيديهم أنصار الدعوة النزارية من موظفى القصر السلطانى ، حيث تمكن الدركزينى من إيغار قلب السلطان محمود عليه ، فأمر بقتله ، وبعمله هـذا ترك الدولة السلجوقية عرضة لخناجر الفداوية ، يسلطونها على من يشاءون من الوزراء والأمراء .

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط مصور) ، ج ٢ ورقة ١٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ورقة ١٧ .

يصف الأصفهانى[١] خيانة الوزير الدركزينى ، وموقفه من القائد شيركير ، وعلاقته الطيبة بالنزارية فى قوله : «وكان سبب ميل الباطنية إلى الدركزينى أن الأمير شيركير - رحمه الله - كان مشتغلا بحصار قلعة «آلموت» . . . فلما توفى السلطان محمد ، وتولى ابنه محمود ، وتمكن الدركزينى من الدولة ، أعمل الحيلة فى استدعاء شيركير من القلعة ، ثم لم يزل يدقق الاحتيال ، حتى جعل لشيركير عند السلطان ذنوبا اختلقها ، ومساوىء لفقها ، حتى اعتقل ذلك الأمير مع ولده شرف الدولة . ولم يزل يطلب غرة[٢] السلطان فى أمرهما حالتى سكره وصحوه ، حتى أخذ رخصته فى سفك دمهما الحرام ، وأذهب بقتلهما قوة الإسلام ، واتخذ بذلك عند ذوى الإلحاد يدا ، واستكثر له من أعوانهم مددا» .

وأما نتائج تلك المعركة المحتدمة بين التشيع والسنية Shiism&Sunnism فتتلخص فى أن سيادة الحسن الصباح ودسائسه بين السنيين كان لها من الأثر الطيب ما يعادل موت السلطان محمد . وأن الدعوة النزارية خرجت من تلك الجولة ظافرة . على عكس ما نالها على يد ابن عطاش ، فكان هذا النجاح عاملا هاما فى زيادة قوة الحسن وجماعته فى المشرق والمغرب[٣] ، هذا إلى الأثر المادى الكبير ، الذى ربحه النزارية ، فقد استولوا على جميع مؤن الجيش وذخيرته ، حيث «نقلوا إلى القلعة من العدد الكثيرة ، والأزواد

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٣٢٣ .

(٢) الغرة : الطلعة .

(٣) المقصود بالمشرق : فارس وخراسان ، أما المغرب هنا فيقصد به بلاد الشام .

والميرة (١) . ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار » (٢) وما أعظمها فى فى ذلك الزمن السحيق !

ولا ننس أنه قد أصبح للنزارية فى ديوان السلاجقة رئيس ، بل رؤساء على مذهبهم ؛ فهذا الدركزينى يجذب إليه السلطان الجديد - محمود - ويؤثر كثيرا فى نفوذ عمه السلطان سنجر بن ملكشاه ، حتى ليكاد هذا السلطان يمتنع عن حرب النزارية ، وإذا أصبح الوزير والسلطان على هوى النزارية أفرخت دعوتهم ، وآتت أكلها مرتين .

كما لا ننس أن الدولة السلجوقية السنية ، فقـــدت قائدا من خيرة قوادها ، الذين كانوا يتحمسون ضد النزارية . لكل هذه الأسباب قوى مركز النزارية ، وامتد نفوذهم شرقا وغربا ، كما أنه بموت السلطان محمد سنة ٥١١ . وتخلص النزارية من رجل كان القضاء عليهم دأبه ، « واستئصال شأفتهم مقصده » (٣) ، حتى كان أهم ما رثاه الشعراء به منصبا على جهوده ضد الحسن الصباح ونزاريته . ويتشكك فوق همر فى موت السلطان محمد ، ويحاول أن يرمى النزارية بسمه ، معتمدا فى ذلك ، « على أن هؤلاء القوم، كانوا قد برعوا فى استعمال السم، براعتهم فى استعمال الخنجر» (٤).

ومما لاشك فيه أن زعامة «آلموت» على جميع قلاع الدعوة الإسماعيلية ، إنما تقررت منذ ذلك اليوم الذى ارتدت فيه جيوش السلاجقة عنها، فى سنة

(١) الميرة : الطعام .

(٢) الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١١٣.

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط بدار الكتب) ،ج ١ ورقة ٣٩

(٤) Von Hammer : Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 112

٥١١ هـ (١١١٨م)، فأصبحت القاعدة الرئيسية التي تتركز فيها قوتهم، ويقيم بها رئيسهم الأكبر. إذ لو قدر «لآلموت» ما قدر «لشاهدز» لنالت إحدى قلاع الدعوة الأخرى، شرف الزعامة واستقرار الرئيس الأكبر بها(١).

وقد قام النزارية بسلسلة عنيفة من الاضطهادات ضد السنيين، فقتلوا فخر الملك، أبا المظفر، بن نظام الملك، وكان وزيرا للسلطان سنجر، انتقم النزارية منه في سنة ٥١١ هـ، لأنه كان حربا عليهم، في عهد السلطان بركياروق (٤٨٧ — ٤٩٨ هـ)، ولأنه نشر الإشاعات الكاذبة عن انضمام السنيين إليهم، مما آلم الصباح، وكذلك حاول النزارية قتل وزير السلطان محمد، ويسمى ضياء الملك، أحمد بن نظام الملك، وجرحوه جرحا بليغا (٢). وأشاعوا الذعر بين العلماء الشافعية خاصة، فكان لهذا كله أثر في نشر الرعب بين القواد والأمراء والعلماء والرعية.

(ح) صراع الحسن الصباح مع السلطان سنجر وابن أخيه محمود :

ولي السلطان سنجر زعامة العالم السني، بعد وفاة أخيه السلطان محمد في سنة ٥١١ هـ، وكان شديد الحزن على أخيه، كما كان معجبا بأعماله ضد النزارية، ولذلك «أمر الخطباء أن يذكروا السلطان محمد بمحاسن أعماله في قتال الباطنية» (٣). ولما كان النزارية قد قتلوا وزيره فخر الملك — فقد كان من المنتظر أن يكون موقفه من النزارية أكثر حزما من موقف

---

(١) ابن الجوزي : مرآة الزمان (مخطوط بدار الكتب)، جـ ٨ ورقة ١٤ .
(٢) العيني : عقد الجمان (مخطوط بدار الكتب)، جـ ٢٠ ورقة ٦١٨ .
(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، جـ ٣ ورقة ١٨

أخيه ، محمد ؛ غير أنه ، نظرا للحروب الأهلية التى اندلعت بينه وبين ابن أخيه السلطان محمود بن محمد ، ونظرا لخوفه الشخصي من خناجر الفداوية، وحبه الانتقام من أعدائه بهذه الخناجر نفسها ، نظرا لهذا كله لم يقم بما كانت توجبه عليه الزعامة الإسلامية السنية ، التى جلس على عرشها ؛ فكان مترددا فى سياسته مع النزارية ، يحاربهم تارة ، ويتفق معهم ويتملقهم تارات أخرى .

ومن حسن حظ النزارية، أن أصبح السلطان محمود بن السلطان محمد ألعوبة فى يد الوزير الدركزينى ، الذى كون له جماعة من أنصاره الباطنية النزارية، كان عملهم أن يطردوا من لا يدين بمذهبهم فى الإخلاص للصباح ، من الديوان السلجوقى . وكان أول عمل قامت به هذه الجماعة . زحزحة جيش شيركير عن قلعة «آلموت» ، كما رأينا . ثم اتخاذ خناجر النزارية وسيلة للتشفى ، والتخلص من أعدائهم .

يصف ابن الفرات(١) تلك الجماعة الموالية للنزارية بقوله : «فأبطلت الحقوق ، وعطلت الحدود ، وجاوزت هذه الجماعة الحال ، ثم إنهم قالوا . إن مماليك السلطان لا يطيبون نفسا بطاعتنا ، ولا يجيبون إلى موافقتنا . فأخذوا فى إعمال الحيلة فى تشتيت شملهم ، وتفريق جماعتهم ، حتى صار كل واحد إلى جهة ، وختموا ذلك بأن رحلوا العساكر التى كانت محاصرة « لآلموت » ، وقد شارفت أخذها ، وقاربت فتحها » .

ويقول فى موضع آخر عن الدركزينى : «وشرع فى ارتكاب الأمور

---

(١) تاريخ الدول والملوك ، ج ٢ ورقة ١٦ .

المحظورة، وكشف الحرم المستورة ، وقد صار بينه وبين الباطنية أمور ، وانتمى إلى مذهبهم ليبلغ مراده من أضداده » (١) . وقد شعر النزارية بقوتهم بعد ذلك ، فأحرقوا «مسجد أصفهان » وهو من أعظم الجوامع وأحسنها ، أحرقه قوم من الباطنية [النزارية] ليلا » (٢) .

غير أن سياسة السلطان سنجر مع الحسن الصباح قد بدأت باتخاذ وسائل القمع هذه ، أو بالحرى . عمل هذا السلطان على الاستمرار فى سياسة أخيه محمد مع النزارية . فحاول حصار قلعة «آلموت» ، وشدد التنكير عليها، ولقد حاول الحسن الصباح أن يثنى السلطان سنجر عن عزمه مرات عدة ، فلما عجز عن إدراك بغيته ، لجأ إلى طريقة الخداع والإرهاب ، فتمكن من جذب بعض وصيفات السلطان ، أو أحد عبيده ، وأغراه بغمس خنجر بالقرب من سرير السلطان سنجر ، حتى إذا ما استيقظ هذا ، ارتاع ، وهذه طريقة خطيرة من حرب الأعصاب ، تؤثر فى النفس ، حتى تجعل صاحبها عرضة للفزع والأوهام .

وقد أتبعها الحسن بما هو أشد منها ، فأرسل إلى السلطان سنجر رسالة هدده فيها قائلا : إن من يستطيع أن يغمس ذلك الخنجر فى الأرض الصلدة ، يسهل عليه أن يغمسه فى صدر السلطان (٣) ! وادعى فى الوقت نفسه ، أن الذى منعه من قتله هو حب النزارية له ، مما أجبر السلطان سنجر على فك الحصار عن « آلموت » . وكان قصد الحسن من

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٢ ورقة ١٠٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ١٠ ص ٢٢٦ .

(٣) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 112

تلك الحيلة ألا يضم إلى أعدائه عدوا قويا مثل السلطان سنجر ، ولكنه بهذه الطريقة الفذة يمكنه أن يجذبه إليه .

ويرى حمد الله المستوفى (١) أن الحسن الصباح كتب إلى السلطان سنجر فى إنذاره يقول : «إنه على الرغم من أنى أعيش فوق تلك الصخرة ـ آلموت ـ فإن أولئك الذين فى خدمتك، هم طوع أمري ورهن إشارتى». ولقد ضرب الحسن بهذا السلوك مثالا أخذ يحتذيه النزارية ، فى الشام خاصة ، حتى لقد لقى نور الدين زنكى ، وصلاح الدين الأيوبى ، على يد النزارية ، ما لاقاه سنجر سواء بسواء ؛ واهتزت قلوبهم هلعا ، كما اهتز قلب السلطان سنجر أمام التهديد النزارى (٢).

وأما أثر تلك الرسالة ، فيظهر من تخلى السلطان سنجر عن الاستمرار فى حصار قلعة «آلموت» ، ومن اتفاقه مع الحسن الصباح ، في معاهدة خطيرة سنة ٥١٣ هـ ، كان من أثرها أن أخذ نفوذ النزارية فى الازدياد والنمو ، وأخذوا من جانبهم بعد ذلك يفتكون بمن يرونه خطرا عليهم . ومن أهم شروط هذه المعاهدة ما يلى :

أولا : أن تبقى قلاع الدعوة النزارية كما هى ، فلا يزيد النزارية فى تحصينها . وهذا الشرط لا فائدة فيه لغير النزارية ، لأن السلطان سنجر لم يكن يرسل إلى القلاع من يخبره بما أحدثه هؤلاء فيها من زيادة أو نقص . وعندنا أن السلطان سنجر لم يوافق على هذا الشرط المهين، الذى

(١) تاريخ جوزيده ، ج ١ ص ٤٩٦ .

(٢) انظر كتابنا «اسماعيلية الشام من أقدم العصور حتي اليوم» .

لافائدة فيه ، إلا ذرا للرماد فى العيون ، كى يحفظ هيبته أمام عامة السنيين بوجه خاص .

ثانيا : ألا يشترى النزارية آلات للحرب ، أو أية أسلحة جديدة . وهذا الشرط كسابقه ، لا يفيد سوى النزارية ؛ لأنه من غير المعقول أن يستطيع السلطان سنجر الإشراف على تنفيذ هذا الشرط إشرافا دقيقا ، وبهذا يستطيع النزارية شراء الأسلحة والعدد دون علم هذا السلطان ، ويخبرنا التاريخ أنهم فعلوا بعد المعاهدة أكثر مما كانوا يفعلونه قبلها ، مما يدل على أنهم لم يعبأوا بتلك المعاهدة ولا بتنفيذ ما جاء بها .

ثالثا : أخذ النزارية على أنفسهم ، ألا يضموا إلى جماعتهم مدعوين آخرين ، ويظهر أن السلطان سنجر أراد أن يظهر للمسلمين السنيين أنه حد من نفوذ النزارية ، وأن عددهم سوف يقف عند الحد الذى وصلوا إليه ، ولكنه نسى أو تناسى أنه من المستحيل عليه ، وعلى جميع السنيين ، أن يمنعوا الناس من اعتناق المذهب النزارى ، لأنه مذهب سرى ، والدعوة إليه سرية كذلك ، فمن غير المعقول إذن أن يتمكن أحد من تنفيذ ما جاء فى ذلك البند . وبهذا نرى أن جماعة النزارية كانوا يعطون فى الظاهر للسلطان سنجر أمورا ، والحق أنهم لم يخسروا شيئا .

وأما ما تعهد به السلطان سنجر للنزارية فأمور ، أهمها :

أولا : أن يعفى هذا السلطان السلجوقى جميع إسماعيلية منطقة «كردكو» بخراسان ، من جميع الضرائب ، مما سهل على السنيين الانضمام إلى النزارية ، تخلصا من تلك الضرائب التى كانوا يدفعونها للسلاجقة ، وبذلك نرى أن الإسماعيلية أضحوا عنصرا ممتازا عن باقى عناصر رعية دولة سنجر ،

بعد أن كانوا من العناصر التى لا يؤبه بها .

ثانيا : تعهد السلطان سنجر بأن يؤدى للنزارية سنويا جزءا من دخل إقليم « قومس »[١]. وترى فى هذا الشرط كل أنواع المهانة ، التى يكتبها أى سلطان على نفسه ، إذ كيف تكون الدولة مرهوبة الجانب ما دامت تؤدى ضريبة لجماعة ثائرة ، كان يجب عليها تأديبها ، اللهم إلا إذا كانت الدولة تعترف لتلك الجماعة بالسلطان والقوة ، كما تعترف على نفسها بالمهانة والذلة .

والذى نستطيع أن نخلص إليه من تلك المعاهدة ، أن السلطان سنجر أعطى للنزارية كثيرا ، ولم يأخذ منهم شيئا ، وأنه كان على هواهم ، أو على الأقل كان يعمل على مداراتهم . وقد استاء الفقهاء والعلماء السنيون من مسلكه ، ورفضوا رفضا باتا أن يتكلموا عن هذه المعاهدة ، أو يسمعوا شيئا عنها ، كما تسرب الشك إلى أذهان كثير من الناس فى عقيدة السلطان سنجر ، واتهموه بأنه على دين النزارية .

يقول الذهبى[٢] « فسخط كثير من الناس على هذا الأمان ، ونقموه على السلطان سنجر » ، وعلى الرغم من هذا ، عقد السلطان السلجوقى الصلح ، ونفذ الكثير من شروطه ، غير أننا لم نسمع بأن الحسن الصباح أوفى بشىء

---

(١) قومس : كورة كبيرة بين الرى ونيسابور ، قاعدتها دامغان ، سالفة الذكر . ومن مدنها بسطام .

(٢) تاريخ الإسلام (مخطوط بدار الكتب) ، جـ ٣ ورقة ٥٠٤ .

مما تعاهد عليه » [١] .

ويرجع تاريخ هـذه المعاهدة إلى سنة ٥١٢ هـ أو إلى سنة ٥١٣ هـ ، ومن أهم آثارها زيادة نفوذ الحسن الصباح [٢]، ومهما يكن من شيء فقد كان لسنجر إزاء النزارية سياستان : أولاهما سياسة التقرب ، والأخرى سياسة العداء . وقد رأينا مدى ما وصل إليه فى سياسته العدائية المتراخية للنزارية.

أما سياسة التقرب فنرى أن سنجر ، وهو فى طريقه إلى العراق ، يزور إقليم الدامغان ، الذى كان أهله يدينون بعقائد المذهب النزارى ، كما كان على رأسه رجل من ولاة السلاجقة، هو الأمير المظفر، الذى ثار عليهم ، واعتنق المذهب النزارى ، وأصبح من كبار رجال الحسن الصباح . وقد تمكن بدهائه من أن يحصل من السلطان سنجر على خزائن « والى إقليم الدامغان السابق» . ولما عزم بعض قواد السلاجقة على استرداد ما استلبه الرئيس الإسماعيلى المظفر، رفض السلطان سنجر ذلك، وأثنى الثناء الجميل على هذا الداعى ، وسنرى كيف استغل السلطان سنجر ميل النزارية إليه ، وأخذ يوجه خناجرهم ضد منافسيه ومن يريد التخلص منهم .

كما لا ننس أن كبار رجال سنجر كانوا يميلون إلى النزارية ، وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى رجال السلطان محمود ابن أخيه - ولم يهتم السلطان سنجر بما أحدثه نزارية الحسن من الاعتداء على المساجد بالحرق والفقهاء والوزراء بالقتل ، ونقضهم معاهدة سنة ٥١٣ هـ تبعا لذلك , مما زاد فى شك الرعية فى إخلاص سنجر الدينى. والخلاصة أن السلطان سنجر لم يوجه

(١) D'Ohsson ; Hist. des Mongoles, vol. III, p. 161

(٢) المستوفى : تاريخ جوزيدة ، جـ ١ ص ٤٩٧ .

جهوده الحربية ضد الحسن الصباح ، بعد معاهدة سنة ٥١٣ هـ .

وقد أدرك الحسن الصباح مدى ما وصل إليه من نجاح ، فعبر عن ذلك لأحد أنصاره وقال : إنه سوف يعمل على أن يرتقى بدعوته دينيا مثل رقيها سياسيا [١] . وهكذا لم يمت الحسن الصباح ، حتى كان قد « استغوى طوائف من الناس ، وفشى مذهب الباطنية ونما ، واعتقده خلق من الأكابر فى باطن الأمر ، وما يزال يستفحل أمرهم »[٢] .

(ى) تقدير أعمال الحسن الصباح فى بلاد المشرق :

نجح الحسن الصباح نجاحا كاملا فى تكوين مجتمع إسماعيلى بحت ، وفى الانتصار على السلاجقة فى بلاد المشرق ، وهذا أقصى ما وصل إليه داع إسماعيلى فى تلك البلاد ، فقد استطاع هذا الزعيم الإسماعيلى المتطرف ، أن يكوِّن جبهة قوية من قلاع الدعوة المنيعة التى لا يمكن لأحد أن يخترقها ، كما استطاع أن يضرب لخلفائه من رؤساء الدولة النزارية ، المثل العليا ، التى يجب عليهم أن ينهجوها ، حتى يعيشوا فى مأمن من خطر السلاجقة وغيرهم من السنيين . فاعتاد الأتباع أن يعيشوا فى قلاع الدعوة ، التى كانت تربض فوق قمم الجبال ، بمنأى عن متناول الأيدى .

---

(١) المستوفى : تاريخ جوزيدة ، ج ١ ص ٤٩٦ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٢٠ .

واستطاع الحسن فى الوقت نفسه أن يبعث بنبغاء أتباعه إلى بعض المدن السنية ، مثل أصفهان، ليعيشوا بجانب السنيين ، ويعملوا على زعزعة عقائدهم ، وبلبلة أفكارهم ، ويتجسسوا على السلاجقة ، ويضموا إلى صفوفهم كثيرا من موظفيهم ، الأمر الذى جعل لهـذه الطائفة مركزا ممتازا فى أمهات المدن الإسلامية .

على أن أهم ما يميز الصراع بين السلاجقة والحسن الصباح فى فارس وخراسان، هو استماتة النزارية فى الدفاع عن أنفسهم وعن رئيسهم ومذهبهم، فقد استطاعوا أن يصمدوا أمام جيوش السلطان ملكشاه وولاته ، وأن يلقنوا السنيين دروسا لا تنسى، فى الاستماتة وشدة البأس، ويبرهنوا لهم بشتى الوسائل على أن النزارية أصبحوا قوة يُخْشَى بأسها ، فلم يكونوا كعامة الإسماعيلية الأوائل الذين كانوا يعيشون على التجسس وابتداع التقية، وغير ذلك من الصفات التى حتمت على السلاجقة أن يقفوا منهم موقفا سلبيا ، أما الحسن الصباح وأنصاره ، فكان موقفهم الإيجابى من السنيين عاملا حاسما فى تاريخ إسماعيلية فارس وخراسان ، الذين دأبوا منذ أيام الحسن الصباح ، على مناوأة السنيين والكيد لهم .

على أن نجاح الحسن فى صراعه مع خلفاء ملكشاه كان أبعد أثرا ، فقد اعترف به بعض سلاطينهم كرئيس دينى ، وعقدوا معه المعاهدات ، وجعلوا يتوددون إليه ، ويعاملونه كما يعامل الملوك . فكان هذا السلوك اعترافا صريحا بالحسن الصباح ودولة النزارية .

ولم يمت الحسن الصباح فى سنة ٥١٨ هـ إلا بعد أن استقامت له

الأمور ، وبعد أن أقام دولة فريدة فى نوعها ، تتكون من قلاع متناثرة فى أقاليم مختلفة ، ولكنها جميعا كانت تدين له بالطاعة والولاء . وكذلك نسب إلى الحسن الصباح إرسال نبغاء دعاته إلى بلاد الهند ، لنشر المذهب النزارى أولا ، والاصطراع مع الإسماعيلية المستعلية ، أتباع المستعلى بن المستنصر . فوضع بذلك نواة النزارية المحدثين ، أتباع سمو أغا خان ، الذين يعرفون اليوم باسم «الخوجات» Khodjas أى الرؤساء الدينيين، أو « الأغاخانية » نسبة إلى أغاخان .

الباب الخامس

جهود الحسن الصباح فى بلاد الشام ومصر
(فى الشرق الأدنى)

١ – حالة بلاد الشام فى عهد الحسن الصباح .

فى الوقت الذى أتيح فيه ظهور الحسن الصباح على مسرح السياسة الإسلامية ، كانت بلاد الشام تموج بالاضطراب ، فقد ظهر السلاجقة ، وقبضوا على صولجان الحكم فى الدولة العباسية ، فأتاح لهم هذا فرصة الاصطدام بالفاطميين، فانتهزوا فرصة قيام ثورة البساسيرى[١]، ومعاونة الفاطميين للقائمين بها معاونة جدية . واستغلوا هذا ضد الفاطميين، فحاولوا فى أخريات عهد المستنصر الاستيلاء على بلاد الشام كلها ، وهددوا مصر بالهجوم عليها ، غير أنهم وإن استقروا فى بلاد الشام ، وانتزعوها من الفاطميين ، فقد عجزوا عن أن يحققوا أملهم فى مصر نفسها . والحق أن بلاد الشام كانت مسرحا للصراع العنيف بين الفاطميين والسلاجقة ، أو بالأحرى ، بين أنصار السنة وأنصار التشيع . حدث ذلك كله فى الوقت الذى ظهر فيه الحسن الصباح .

ومهما يكن من شىء ، فقد كانت زعامة بلاد الشام ملقاة فى يد تتش بن ألب أرسلان، الذى حاول الاستقلال بتلك البلاد، وظهر خطره على وحدة العالم الإسلامى السنى ، بعد موت أخيه السلطان ملكشاه ،

(١) ثار أبو الحارث البساسيرى على العباسيين والسلاجقة فى سنة ٤٥٠ هـ وخطب للمستنصر الفاطمى على منابر العراق عاما كاملا (٤٥٠ – ٤٥١ هـ) .

فاندفع يعمل مستقلا ، وانضم إلى السلطانة « خاتون » زوجة أخيه ملكشاه ، ضد ابن زوجها بركياروق ، كي تصفو له بلاد الشام جميعها . غير أن وحدة هذه البلاد قد تعرضت بعد موته للتفكك ، فاستبد ابنه الملك رضوان بإقليم حلب ، وابنه دقاق بإقليم دمشق ، وفتك رضوان بأخويه بعد ذلك . ولم يلبث أن استبد الأمراء ـ الأتابكة ـ بالأمر ، دون البيت السلجوقي .

ومعنى هذا أن بلاد الشام كانت نهبا مشاعا بين الفاطميين والسلاجقة من جهة ، ثم بين السلاجقة أنفسهم من جهة أخرى ؛ فإن هؤلاء لم يستطيعوا الاحتفاظ بوحدة تلك البلاد ، وكذلك زاد الأتابكة الحالة انقساما . ومعنى ذلك أيضا أن السلاجقة أضعفوا الوحدة التي كانت قائمة بين الشام ومصر ، الأمر الذي أدى إلى ضعف بلاد الشرق الأدنى ، فوقعت طعمة في أفواه الصليبيين .

نعم ! كان لتلك الحروب العنيفة التي استعرت بين الفاطميين والسلاجقة أولا ، ثم بين أفراد البيت السلجوقي نفسه ثانيا ، ثم بين السلاجقة والأتابكة ، وبين الأتابكة بعضهم وبعض ثالثا ، كان لهذا كله أثره الكبير في نجاح الصليبيين في تلك البلاد ، فقد استطاع هؤلاء أن يعبثوا ببلاد الشام ، ويمتلكوا خير بقاعها ، ويقيموا فيها إمارات لاتينية لا تمت في نظمها ولا في حياتها الاجتماعية إلى الشرق بصلة ، فجاء وصول الصليبيين إلى الشرق ضغثا على إبالة ، الأمر الذي زاد في تفكك وحدة البلاد الشآمية . لكل هذه العوامل كانت بلاد الشام مرعى خصيبا ترعرعت فيه « الدعوة النزارية » .

ولا ننس صلاحية بلاد الشام لنشر مبادىء المتشيعين بها ، ولا غرو ، فقد كان للفاطميين الإسماعيلية بها عظيم الأثر ، منذ كانت سلمية - بالقرب من حمص - مركز القوة الطاردة للمذهب الإسماعيلى ، فى القرن الثالث خاصة ، واستمر الفاطميون يغذون بلاد الشام بدعاتهم طيلة العصر المغربى (٢٩٦ هـ — ٣٥٨ هـ) ، والعصر المصرى ، منذ عهد المعز حتى عهد المستعلى (٣٥٨ هـ — ٤٩٤ هـ) ، أضف إلى ذلك صلاحية بلاد الشام لترويج المذاهب الغالية ، كالمذهب الدرزى، ومذاهب النصيرية . كل هذه الأمور ساعدت على نجاح حركة النزارية فى بلاد الشام ، نجاحا لا يقل خطرا عن نجاحهم فى خراسان وفارس .

أدرك الحسن الصباح إذن تلك الفرصة . وأرسل دعاته إلى بلاد الشام ، فنجحوا نجاحا هائلا ، وكونوا هناك جماعة من النزارية ، لعبت دورا خطيرا فى تاريخ الحروب الصليبية . وقد اشتهر ذلك الفرع النزارى فى التاريخ باسم « الحشيشية » ، والواقع أنهم نوع من النزارية ، أتباع الحسن الصباح .

وبهذا نرى أن القلقشندى لم يكن مصيبا فى اعتبار هؤلاء النزارية من المستعلية - أنصار الدعوة القديمة - وقد أخطأ كذلك بعض العلماء المحدثين ، حين نقلوا ما ذكره القلقشندى وغيره ، نقلا دون تمحيص ؛ فنرى القلقشندى يقول عن الإسماعيلية « ولما افترقوا إلى مستعلوية ونزارية ... أخذ من منهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية ، عملا بدعوة ابن الصباح . . . وأخذ من منهم بالشام بقلاع الإسماعيلية ، بمذهب

المستعلوية ، وصاروا شيعة لمن بعد المستعلى من خلفاء الفاطميين بمصر » (١) .

ونقل الأستاذ محمد كرد على ذلك النص بعينه فى خططه (٢) ، والحق أن العلماء لم يصيبوا فى اعتقادهم أن أصحاب الدعوة الهادية « هم شيعة الخلفاء الذين كانوا بمصر ، وتسموا بالفاطميين . . . وأن كل من ملك مصر كان مظهرا لدينهم » (٣) ، لأن هؤلاء ثاروا على الفاطميين ، ولم يعترفوا بزعامتهم ، منذ عهد المستعلى بن المستنصر ، وينتمى هؤلاء للدعوة النزارية الجديدة ، على حين ينتمى أنصار الفاطميين للدعوة القديمة ـ المستعلية ـ ولم نعرف أن « لصاحب مصر يتشيع هؤلاء الفداوية »(٤)

٢ — محاولة النزارية الاستقرار بحلب

لجأ الحسن الصباح فى بلاد الشام إلى سياسة التقرب من الأمراء السنيين ، على عكس سياسته التى كان ينهجها فى بلاد المشرق ، مع سلاطين السلاجقة ، فكان دائم العراك معهم . أما فى بلاد الشام فقد حتم على دعاته الاتصال بأمراء تلك البلاد ، وتقديم خدماتهم لهم ، حتى يستطيعوا التأثير فى نفوسهم ، والحصول على كل ماتصبو نفوسهم إليه من الاستقرار الدائم هناك .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٥٤٥ .
(٢) محمد كرد على : خطط الشام (دمشق سنة ١٩٢٨) ، ج ٦ ص ٢٦٢ .
(٣) ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، ص ٢٦٥ .
(٤) المصدر نفسه .

ونحن نعلم أن الحسن قد قسم مناطق نفوذه إلى أقاليم رئيسية ، أطلق على كل منها اسم «جزيرة» ، وخصص لكل من هذه الجزر داعيا من كبار دعاته الذين كان يثق فيهم ، والذين عرفوا بذكائهم ولباقتهم . وقد وقع اختيار الحسن الصباح لرياسة « جزيرة » الشام على داع جرىء ، عرف باسم «الطبيب المنجِّم» ، فأرسله إلى هذه البلاد فى أواخر القرن الخامس الهجرى .

وكانت وجهة هؤلاء النزارية الأوائل مدينة حلب ، وقد استطاع هذا الداعى أن يجذب إليه الملك رضوان بن تتش بن ألب أرسلان ، الذى آلت إليه ولاية حلب ، بعد موت أبيه تاج الدولة تتش . فأصبح هذا الملك طوع بنانه ، وكان هذا وحده من أهم عوامل نجاح النزارية فى ذلك الدور ، حتى لقد رمى بعضهم هذا الأمير باعتناق المذهب النزارى .

ولا يخفى علينا أن رضوان بن تتش إنما استغل خناجر الفداوية ، مقابل منحهم بعض امتيازات ، لم يوافق عليها السنيون بالطبع ، فكان يداريهم ويغمض عينيه عن مثالبهم ، ويقيم لهم الملاجىء التى يلجأون إليها ، وليس أدل على ذلك مما ذكره المؤرخ كمال الدين (١) من علاقة داعى الحسن الصباح ـ الطبيب المنجم ـ بالملك رضوان فى تلك العبارة : «واستمال الحكيم رضوانا إلى الباطنية جدا ، وظهر مذهبهم فى حلب ، وشايعهم رضوان ، وحفظ جانبهم ، وصار لهم بحلب الجاه العظيم . والقدرة الزائدة ، وصارت لهم « دار دعوة » بحلب فى أيامه ، وكاتبه الملوك فى أمرهم ، فلم

(١) كمال الدين : تاريخ حلب (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين) ، ج ٢ ص ٥٨٠ . ومن هذا نرى أن دعاة النزارية كانوا يتخذون الطب وعلم النجوم وسيلة للتأثير فى النفوس ، حتى كان رئيسهم بالشام طبيبا منجما ، كما رأيت .

يلتفت ولم يرجع عنهم». من هذا نرى أن الدعوة النزارية وجدت لها من حكام حلب أكبر عون ، فكان هذا دليلا على نجاحها هناك فى المستقبل .

ولقد قام هـذا الداعى النزارى بدور هام فى تاريخ شمالى سورية ، فى أواخر القرن الخامس ، وساعد فى الوقت نفسه فى تفكك العالم الإسلامى وإضعافه أمام الصليبيين ، فقد تآمر «الطبيب المنجم» مع الملك رضوان فى سنة ٤٩٥ هـ ، على قتل جناح الدوله ، صاحب حمص ، وزوج أم رضوان ، بعد أن اتضح للنزارية أنه يتآمر عليهم ، وثبت لهم أنه يسعى بحليفهم رضوان ، وينعى عليه اتصاله بالنزارية ، وفى سبيل ذلك هاجمه وتبرأ منه ، واتصل بأخيه دُقاق بن تتش ، صاحب دمشق ، غير مرة ، وما زال يسعى برضوان . ومن ثم عول النزارية على التخلص منه ، دفاعا عن أنفسهم أولا ، وعن حليفهم رضوان ثانيا .

يوضح كمال الدين ذلك بقوله[1]: «وسار جناح الدولة إلى سرمين[2]، فكبس عسكر الملك رضوان ، وانهزم رضوان وأكثر عسكره ... وطلب الحكيم المنجم ، فلم يظفر به». وكان هذا الداعى قد أفسد بين رضوان وبينه ، وفتك النزارية به ، فى سنة ٤٩٥ هـ ، بعد أن هاجموه فى زى متصوفين ، وقتلوه بمسجد مدينة «حمص»[3].

والذى أفاد من هذا هم الصليبيون وحدهم ، فقـد كان جناح الدولة عنيفا فى صراعه معهم ، وكان يعد العـدة لطردهم عن بعض الحصون فى إقليم طرابلس . يقول ابن الوردى : «وسار صنجيل (سان چيل)

---

(١) تاريخ حلب (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين) : ج ٣ ص ٥٩٠ .
(٢) سرمين : من أعمال حلب ، يعتنق معظم أهلها المذهب الإسماعيلى .
(٣) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ورقة ٤٢٣ .

الفرنجي ، وحصر حصن ابن حماد بطرابلس ، ثم صولح على مال حملوه إليه . ثم فتح صنجيل «انطرسوس» ، وقتل المسلمين بها ، ثم حصر حصن الأكراد ، فأعد جناح الدولة ، صاحب حمص ، العسكر ليسير إليه ، فوثب باطنى على جناح الدولة بالجامع ، فقتله ، وبلغ ذلك صنجيل ، فنازل حمص ، وملك أعمالها » .

ويقول كمال الدين(١): « ووصل صنجيل الفرنجى ونزل على حمص بعد قتل جناح الدولة بثلاثة أيام ، فسيرت زوجته خاتون أم الملك رضوان تستدعيه ، أى تستدعى رضوانا لتسلم إليه حمص ، ويدفع الفرنج ، فكره المقدمون ذلك ، وخافوا منه لسوء رأيه » . والحق أن قتل جناح الدولة كان ضربة قاضية وجهت إلى وحدة المسلمين فى الشام ، ولولا مهارة دقاق بن تتش صاحب دمشق والأتابك طغتكين، لسقطت حمص فى يد الصليبيين(٢). ولم يعمر الباطنى بعد مقتل جناح الدولة ، وقتل بعد بضعة عشر يوما من مقتله .

وبقتل الداعى الطبيب المنجم ، تلقف زعامة الإسماعيلية فى الشام داع آخر ، أكثر جرأة وإقداما منه ، يعرف بأبى طاهر الصائغ أو العجمى الصائغ ، ولكن زعامة تلك الطائفة كانت موزعة بين أبى طاهر هذا وبين داع آخر يدعى أبا الفتح السرميني ، وكان مركزه فى الشام شبيها بمركز كبير دعاة النزارية فى «جزر» الدعوة الرئيسية. وقد لعب كل من هذين الزعيمين دورا خطيرا فى تنشئة تلك الجماعة فى إقليم حلب ، ولعب

(١) تاريخ حلب ، من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين ج ٣ ص ٥٩٠.

(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان، ج ٨ ورقة ٤٢٣

النزارية فى عهدهما دورا كبيرا فى احتلال قلعة « أفامية »(١) تحت ستار اسم الملك رضوان ، صاحب حلب ، الأمر الذى يدل على امتزاج تاريخ نزارية الشام ، بتاريخ السلاجقة هناك ، وبتاريخ الصليبيين أيضا .

وذلك أن مدينة «سرمين» ، جنوب حلب بمرحلة واحدة . وقعت فى أيدى الصليبيين وكان أكثر أهلها على دين النزارية (٢) ، ففر قاضيها أبو الفتح السرميني، وكان من زعماء النزارية ، وقصد إلى قلعة «أفامِيَّة» فى سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٦ م) ، طالبا النجدة من صاحبها ، خلف بن ملاعب الكلابى (٣)، الذى كان قد استبد بها دون الفاطميين ، فوقع من قلبه موقعا جعله يثق به، ويعتمد عليه . ولما كان دأب النزارية الاستيلاء على القلاع ، فقد اتصل السرميني النزارى بأبى طاهر الصايغ ، زعيم النزارية فى حلب ، وتآمر معه على الفتك بخلف بن ملاعب . وقد تسربت أخبار هذه المؤامرة إلى أبناء خلف ، فلما نصحا والدهما لم ينتصح ، وتمكن أبو الفتح بدهائه ومواهبه من التظاهر بالإخلاص لمضيفه ، وحينئذ ضاعف أبو الفتح السرميني هذا جهوده ، واشترك رضوان مع أبى طاهر الصايغ

---

(١) مدينة كبيرة ، وكورة من كور حمص ، ويقال لها فامية .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، جـ ٣ ورقة ٥٦١ .

(٣) كان خلف يحكم حمص فى عهد تتش ، الذى حنق عليه ، بسبب سوء تصرفه ، ففر إلى مصر ، وبقى بها ، إلى أن طلب صاحب «أفامية» السلجوقي ، من الفاطميين ، وكان على عقيدتهم ، نائبا من قبلهم يسلم له القلعة ، فألح ابن ملاعب على الفاطميين ، حتى صرحوا له بحكم هذه القلعة ، فلما استقرت له الأمور بها خلع طاعة الفاطميين .

فى مؤامرته (١).

وهناك أمور جديرة بالنظر فى أمر أفامية ؛ منها أن الملك رضوان ، صاحب حلب، قد اندمج مع النزارية فى مؤامراتهم ، فخدعوه وادعوا أنهم يفتحون « أفامية » له لا لسواه . وبهذا نرى أن رضوان كان يعتمد فى توسيع ملكه على خناجر الفداوية ، ولكنه لم يستطع الإبقاء على ذلك الملك الجديد، بل عبثت به مطامع النزارية ومطامع الصليبيين، على ماسنرى.

وما كاد الداعى أبو طاهر الصايغ زعيم النزارية بحلب ، يعلم بوقوع «أفامية» فى قبضة زميله ، أبى الفتح السرمينى ، حتى أسرع بالذهاب إليه ، وهو يؤمن إيمانا جازما أن «أفامية» ستصبح فى قبضته ، ولكنه لم يستطع الاتفاق مع أبى الفتح السرمينى ، لأن كلا منهما كان يريد أن تكون له الزعامة فيها ، ومهما يكن من أمر ، فإنه لما « سمع الصايغ خبر « أفامية » ، سار إليها وهو لا يشك أنها له ، فقال له القاضى : إن وافقتنى وأقمت

(١) مضمون تلك المؤامرة أن يرسل الملك رضوان بن تتش ثلثمائة رجل من أهل سرمين ، ومعهم خيول مما أسرها من الفرنجة ، ويذهب هؤلاء الرجال إلى خلف ، بدعوى أنهم فروا من رضوان ، وأنهم حاربوا الفرنجة وهم فى طريقهم إلى أفامية ، وأخذوا منهم ما معهم من الخيول ، فاذا ما أذن لهم خلف بن ملاعب بالاقامة معه ، أعملوا الحيلة مع أبى الفتح السرمينى ، وقتلوا خلفا ، وقد كان لهم ما أرادوا ، إذ اتفق أبو الفتح السرمينى مع النزارية فى داخل القلعة ، ودلى هؤلاء له الحبال ، فصعد القلعة ومعه نفر من أنصاره من أهل سرمين ، فقتلوا خلف بن ملاعب ، وأصبحت القلعة فى يد النزارية .

ويرى ابن الجوزى (ج ٨ ورقة ١١) أن أبا الفتح السرمينى كان داعيا للنزارية فى أفامية ، واتفق مع أهلها على الغدر بخلف بن ملاعب ، فنقبوا السور ، وهجموا عليه ، فقتلوه .

حمى ، فعلى الرحب ، ونحن نحلمك[١] ، وإلا فارجع من حيث جئت ،
فأيس منه »[٢] .

نتبين من هذا ميل أبى الفتح السرمينى إلى الزعامة ، ولا غرو فقد كان يمت إلى مؤسس المذهب النزارى ـ الصباح ـ بالقرابة ، كما لا يبعد أن يكون الحسن الصباح قد عينه رئيسا للدعوة فى تلك النواحى. ونعتقد أن ما فعله الداعى أبو الفتح مع زميله أبى طاهر خدعة ،يرمى من ورائها إلى شل يد الملك رضوان عن التدخل فى شئون « أفاميَّة » ، إذ لا يعقل أن يقف النزارى المخلص من أخيه النزارى هذا الموقف الجاف ، لأنهم جميعا ما أتوا إلى بلاد الشام إلا ليعاون بعضهم بعضا .

ونفهم من هذه الحادثة أيضا كيف انتقض حاكم «أفاميَّة» السلجوقى على رئيسه رضوان ، لأنه كان على المذهب الإسماعيلى المستعلوى ، «وبعث بطاعته إلى صاحب مصر» [٣]. وإذن لا يبعد أن يكون انتقاض والى «أفاميَّة» السلجوقى على السلاجقة ، إنما هو ثورة الإسماعيلية المستعلية على السنيين . يؤيد ذلك ما ذهب ابن ميسر إليه حيث يقول : « إن أهل « أفاميَّة » قدموا إلى مصر ، وكانت مذاهبهم إسماعيلية ، وسألوا واليا يكون عليهم ، فوقع الاختيار على ابن ملاعب »[٤].

كما أن انتقاض خلف بن ملاعب على الفاطميين المستعلية ، واتفاقه

---

(١) نحلمك : نرحب بك .
(٢) العينى : عقد الجمان ، جـ ٢ ورقة ٥٩٢ .
(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ص ١٨٩ .
(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ، جـ ٢ ص ٣٧ .

فى بادى أمره مع أبى الفتح السرمينى النزارى ، مع إغراق هذا فى مبادىء النزارية ، دليل على أن ابن ملاعب لا بد أن يكون قد تمشق المذهب النزارى . وبذلك يكون انتقاضه على الفاطميين ، لو صح ما ذهبنا إليه ، انتقاض النزارية على المستعلية ، خصوصا وأنه كان على صلة طيبة بمقدم الدعوة فى الشام ، أبى الفتح السرمينى . ولا بد كذلك أن يكون قد حدث نزاع بين المستعلية والنزارية فى قلعة «أفاميَّـة» ، وتغلب الأخيرون ، وانضوى الباقون تحت لوائهم .

وأما علاقة الصليبيين بذلك الحادث ، فنراها واضحة فيما قام به تنكريد ، Toncrede صاحب أنطاكية ، وأحد كبار الصليبيين ، ويسميه العرب «طنكرى» ، فإنه أتى إلى «أفاميَّـة» عقب احتلال النزارية لها ، وحاول الاستيلاء عليها ، فرده الداعى أبو الفتح السرمينى عنها ، وتعهد له بدفع مقدار كبير من المال[1]. غير أن أحد أبناء خلف بن ملاعب ، فر إلى الصليبيين ، وأغراهم بالنزارية ، وشرح لهم ضعف مركزهم ، فأعاد تنكريد الكرة ، وحاصر قلعة «أفاميَّـة» ، حتى سلمت له فى سنة ٥٠٠ هـ[2] (١١٠٦م) ، وقتل أبا الفتح السرمينى ، وأسر أبا طاهر الصايغ ، وجماعة من أشياعه ، ولم يتركه الصليبيون إلا بعد ان افتدى نفسه بمال كثير[3].

وهكذا مهد النزارية للصليبيين فى احتلال بعض بلاد المسلمين ، مما يدل على التفكك ، الذى عرا العالم الإسلامى فى بلاد الشام وقتئذ ... فالسلاجقة منقسمون على أنفسهم ، والنزارية يحاربون السنيين ، كما يستعين السنيون

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٥٠ .
(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان (مخطوط) ، جـ ٨ ورقة ١١ .
(٣) الذهبى : تاريخ الإسلام (مخطوط) ، جـ ٣ ورقة ٥١٧ .

فى الكثير من الأحيان بالصليبيين على النزارية، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار. وعلى أية حال: «إن مصبح بن (خلف بن) ملاعب، الذى أفلت من نوبة «أفاميَّة»، التجأ إلى طنكرى، صاحب أنطاكية، وحرضه على العودة إلى «أفاميَّة»، وأطمعه فى أخذها، لقلة القوت بها، فنهض إليها، ونزل عليها وضايقها، إلى أن تسلمها بالأمان، فى الثالث عشر من المحرم سنة خمسمائة، فلما حصَل أبو الفتح السرمينى الباطنى فى يده، قتله بالعقوبة، وحمل أبا طاهر الصائغ معه وأصحابه أسرى ... ولم تزل الأسرى فى يده، إلى أن فدوا نفوسهم بمال بذلوه لهم، فأطلقهم، ووصلوا إلى حلب»[١].

وتعتبر الطريقة التى اتبعها النزارية فى الاستيلاء على حصن أفامية إحدى طرق نزارية المشرق فى استلاب القلاع من أهلها. ولا يبعد أن يكون الحسن الصباح وجماعته بالمشرق، هم الذين أوحوا بذلك إلى أبى الفتح السرمينى ورفاقه النزارية. يدل على هذا ما سنراه من اتصال الحسن الصباح بنزارية الشام ومراسلته معهم، حين حاولوا اغتصاب حصن شيزر[٢] بعد ذلك بقليل.

وكان الملك رضوان صاحب حلب، لا يزال على حبه النزارية، فاستقبل «أبا الطاهر الصائغ» النزارى، حين عودته من الأسر، خير استقبال[٣]، وتظاهر للسلطان محمد السلجوقى بن ملكشاه بأنه يبغض النزارية، وذلك حين بعث هذا السلطان إليه يحرضه بالنزارية. والحق أنه كان لا يزال على حبه

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ١٥٠ .

(٢) Von Hammer ; Hist. de l'Ordre des Assassins, p. 166

(٣) Defremery : Nonvelles Recherches (J. A. 1854) p.386

لهم ، وأنهم كانوا لا يزالون يخلصون له أيضا . وبسياسته المزدوجة هذه ، استطاع أن يضع السيف فى غمدين .

يقول ابن الفرات : « ورد كتاب السلطان محمد إلى الملك رضوان صاحب حلب بفتح حصون الباطنية ، فأمر بضرب البشائر ، وتزيين البلد ، واتصل بالملك رضوان بعد ذلك أنه ذكر فى مجلس السلطان محمد ، فلعنه الأمراء ، وقالوا : إنه يشايع الباطنية ويحرس جانبهم ، ويواصلهم بالإنعام والإحسان ، وحين وصل هذا الكلام إلى الملك رضوان ، أمر أبا الغنائم ، أخا أبى الفتح السرمينى ، بالخروج من حلب فيمن معه ؛ فانسل من حلب بعد أن تخطف الناس جانبهم ، وقتل منهم جماعة »(١).

والدليل على أن رضوان كان لا يزال على حب النزارية والاستعانة بهم ، وأنه لم يفعل ما فعل إلا ليبعد الشبهة عن نفسه ، أو ليرضى السلطان محمد ، أنه فى سنة ٥٠٥ ﻫ (١١١١ م) ، حين خرجت جيوش السلطان محمد لحرب الصليبيين فى بلاد ما بين النهرين ، وحاصروا مدينة الرها ، وعلى الرغم من أن رضوان أفاد كثيرا مما نهبه المسلمون من بلاد الصليبيين ، بفضل جيوش السلطان محمد هذه ، فإنه اغلق أبواب حلب فى وجوه قواد السلطان ، ولم يمكنهم من أخذ الميرة منها ، فحاصرها هؤلاء طويلا واحتمى هو بقلعتها ، وعمل على حفظ النظام فى حاضرة ملكه ، مستعينا فى ذلك بالنزارية ، الأمر الذى يدل على اعتماد رضوان على سواعد هذه الطائفة وخناجرهم ، ويدل فى الوقت نفسه على أن حلب لم تخل منهم ، ولكن ضررهم كان بليغا ، « فقد كانت النكاية بهم أشد من نكاية الذين

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك (مخطوط) ، ج ١ ورقة ٢٩ .

في ظاهر البلد »(١) وما أحسن ما قاله طغتكين أتابك دمشق، في رضوان «وما أظنه إلا رقيق الدين. وإني خائف أن يملك الباطنية هذا الثغر بسببه وعلى يديه »(٢).

ويثبت اعتماد رضوان في ذلك الدور على خناجر الفداوية، أنه تآمر معهم على الفتك بطغتكين، أتابك دمشق «فشاور في أمره أخا لأبي الفتح السرميني الباطني، وكان يسكن بحلب، وكان عند جماعة من الباطنية، فخرج الباطني من حلب يروم غرة [طلعة] الأمير طغتكين، فلم يمكنه ذلك لشدة احتراسه من رضوان ومكايده»(٣). وهكذا لم يطرد رضوان الباطنية من حلب عن إخلاص وصدق عزيمة.

وقد شعر الملك رضوان في أخريات حياته، أنه أخطأ خطأ فاحشا، باعتماده على خناجر الفداوية. فقد أثار حنق السنيين جميعا عليه، وكاد أن يقع هو نفسه تحت طائلة خناجر هذه الطائفة، إذ بدءوا يتآمرون عليه، ويعملون على احتلال قلعة حلب ذاتها. ومن تفصيل تلك المؤامرة التي دبرها النزارية ضده(٤). نرى أن خمسمائة رجل من النزارية أتوا من بلاد المشرق لإتمام احتلالها. ولا يبعد أن يكون الحسن الصباح هو الذي وضع مشروع احتلال قلعة حلب، على الرغم من أن رضوانا كان يتحيز إلى جانب الباطنية دائما. ونرى أيضا أن أصحاب أبي طاهر الصايغ

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، جـ ١ ورقة ٥٤.

(٢) المصدر والصفحة.

(٣) المصدر نفسه: جـ ١ ورقة ٥٥.

(٤) أنظر الملحق رقم (٢).

ونائبـه ـ أبا الغنائم ـ كانوا على علم بها ، فاشتراك هؤلاء النزارية فيها جميعا دليل على خطورة ما أقدموا عليه . ولا يبعد مطلقا أن يكون غرض النزارية قلب الفرع الملكى السلجوقى فى بلاد الشام ، لأن رضوانا كان أهم من يمثل الفرع الملكى السلجوقى هناك ، ثم تكوين دولة نزارية ، فى الشام عاصمتها حلب . كما أن تلك المؤامرة كانت من العوامل التى نفرت الملك رضوان من الباطنية . ومن المحتمل جدا أن يكون لهذه الحادثة أثر فى جعل الملك تاج الملوك ألب أرسلان بن رضوان ينتقم من الباطنية ـ على ما سنرى .

ونستنتج من هذا كله أن النزرية في الشام كانوا فى فجر القرن السادس الهجري قوة لا يستهان بها . ولو قدر لهم الاستيلاء على قلعة حلب لكان لهم فى هذه المنطقة الشمالية شأن آخر . ومن الغريب أنهم فى أخريات حياة الملك رضوان بدءوا يتصلون بأتابكة دمشق ، فدل هذا على شعورهم بأنهم أخفقوا فى الشمال وحاولوا الاتجاه نحو الجنوب . ويظهر أن طغتكين ، أتابك دمشق ، أراد أن يقلد الملك رضوانا صاحب حلب فى الاعتماد على خناجر الفداوية ، فاعتضد بهم ، واتخذهم أسلحة يوجهها ضد أعدائه ، على الرغم من تشنيعه عليهم وتبرئه منهم .

ولندرس حادثة مقتل الأمير مودود ، أتابك الموصل فى سنة ٥٠٧ لنرى منها كيف بدأ نفوذ النزارية يتوغل فى الجنوب ، وكيف أضحوا خطرا على جميع الأمراء السنيين المعارضين ، وكيف كانوا بعملهم هذا يتيحون الفرص النادرة للصليبيين كى يهجموا على المسلمين . ويتشفوا منهم ؛ ففى سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣ م) قتل الأمير مودود فى دمشق ، وهو يصلى الجمعة مع

طغتكين، أتابك دمشق ، قتله الباطنية ، فكثرت الإشاعات حول مقتله ، ورمى « طغتكين » بالتآمر على منقذه « مودود » ، ودافع البعض عن طغتكين ؛ وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في معرفة المحرض الحقيق على قتل مودود ، فإنهم يكادون يتفقون على أن القتلة من النزارية .

ومن أشهر العلماء الذين دافعوا عن «طغتكين» المؤرخ الكبير، سبط ابن الجوزى ، حيث يقول : «فقلق أتابك لوفاته على هذا الوجه ، وحزن حزنا شديدا » . ويقول فى موضع آخر : « وذكر بعضهم أن أتابك خاف منه ، فوضع عليه من قتله ، وليس بصحيح ؛ فإن طغتكين كان أحب الناس إليه . وحزن عليه حزنا لم يحزنه أحد على أحد ، وشق ثوبه عليه ، وجلس فى عزائه سبعة أيام ، وتصدق عنه بمال جزيل» (١)

إلا أن حجة ابن الجوزى ضعيفة ، لأن المعروف أن اتفاق رضوان وطغتكين خفف من حدة الأخير على النزارية . ولا يبعد على طغتكين أن يستخدم خناجر هؤلاء ضد أعدائه . ولما كان مودود (٢) من أكثر

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان (مخطوط)، ج ٨ ورقة ٣١ .

(٢) مودود : «ابن ألتونتاش» ، أحد قواد ملكشاه، الذين حاربوا النزارية المشارقة فى صرامة وعنف ، أسندت إليه إمارة الموصل سنة ٥٠٣ ، وقد استنجد طغتكين به ، ليقف فى وجه مطامع بلدوين ، ملك بيت المقدس ، لأن هذا الصليبي تابع هجماته على دمشق ، فاجتمعت جيوش اسلامية كثيرة ، ووالى أمراء المسلمين الضغط على بلدوين وحلفائه، حتى تم لهم النصر فى نهاية خريف ٥٠٧هـ ، فعاد مودود إلى دمشق، وسرح جيشه ، على أمل معاودة الهجوم فى ربيع العام القابل (٥٠٨ هـ). وبقى هو وخاصته فى دمشق ، فوثب عليه نزارى فى مسجد هذه المدينة ، وقتله ، وقطعت رأس النزارى ، ليعرف شخصه فما عرف [ابن الجوزى، ج ٨ ورقة ٣١].

الأمراء السنيين طموحا ، وأن نجمه أخذ يتألق فى سماء الحروب الصليبية ، وأن السلطان محمد بن ملكشاه ، أخذ يعتمد عليه فى كل ما هو خاص بتلك الحروب ، لذلك كله ، حقد عليه طغتكين ، وخافه فى الوقت نفسه ، لأنه كان يعد نفسه الزعيم الأول فى بلاد الشام ، وود التخلص من منافسه الجديد - مودود - وقد وجد من نزارية الشام أذنا مصغية . يقول ابن الأثير (١) : « خافه طغتكين ، فوضع عليه من يقتله » . ويقول ابن الفرات(٢) : « إن طغتكين عرف من مخايل أحواله ... أنه عازم على أخذ دمشق ، فعاجله على ماعزم عليه ، فرتب هذا الرجل (النزارى) لقتله » .

هكذا انتقم النزارية لأنفسهم من مودود ، لبغضه لهم أولا ، ولما فعله أبوه « ألتونتاش » معهم فى المشرق ثانيا . والحق أن تلك المؤامرة ترينا بدء توغل النزارية فى دمشق ، وترينا أيضا أن فتكات النزارية إنما كانت لغرض الإبقاء على المذهب ، سواء أكان ذلك بالفتك بأعدائه ، أو الاتفاق مع أنصاره ، ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين اتهموا طغتكين بقتل مودود ، بل إن الفرنجة أنفسهم - على ما يقول ابن الفرات - أرسلوا إلى طغتكين يقولون : « إن أمة قتلت عميدها فى بيت معبودها ، فى يوم عيدها ، لحقيق على الله أن يبيدها »(٣).

هذا وقد أفاد الصليبيون من مقتل مودود ، نخف ضغط السنيين عليهم بعد مقتله ، مما يدل على أن النزارية كانوا عونا للصليبيين ، بفتكهم بكبار أعدائهم من السنيين .

---

(١) الكامل ، جـ ١٠ ص ١٨٧ .
(٢) الدول والملوك ، جـ ١ ورقة ٧٨ .
(٣) المصدر نفسه ، جـ ١ ورقة ٨٩ .

من هذا كله نرى أن النزارية فى حلب ظلوا قوة لايستهان بها فى عهد الملك رضوان بن تُتُش ، الذى لم يستطع القضاء عليهم ، رغم تآمرهم عليه، كما نرى أنهم بدءوا ينشرون نفوذهم ومبادئهم فى إقليم دمشق جنوبا .

(ب) خذلان النزارية فى الاستقرار بحلب وآثاره :

لم يستطع النزارية الاستقرار الدائم فى مدينة حلب ، فلم يتمكنوا من اتخاذ قلاع يعيشون فيها ، أو الاستيطان فى مدن خاصة بهم ، ولكنهم على الرغم من إخفاقهم فى جميع محاولاتهم ظلوا قوة مرهوبة الجانب ، يخشاهم الأمراء والملوك ، ويهابهم العامة . فكانوا يقتلون من أرادوا قتله، ويتخذون من دور دعوتهم فى هذه المدينة الكبرى ، قواعد يوجهون منها ضرباتهم المميتة ، فأخذوا يقتلون الناس فى الطرقات ، دون أن يجدوا معارضة تذكر . ومما زادهم قوة ، أنهم ثاروا على القوانين المعمول بها فى تلك الأيام، وانضم إليهم كل ثائر على النظام، وكل خارج على القانون .

ولنترك العلامة كمال الدين [١] يصف لنا فى كتابه « تاريخ حلب » قوة النزارية وقتذاك ، فيقول: « وكان أمر الباطنية قد قوى بحلب . فى أيام رضوان ، وبايعهم خلق كثير على مذهبهم ، طلبا لجاههم . وصار كل من أراد أن يحمى نفسه من قتل أوضيم التجأ إليهم » ، «وصار لهم بمدينة حلب « دار دعوة » ، وعظم شأنهم . وصار كل من جنى جناية وانتسب إليهم منعوه وحرسوه ، وكاتبوا الملوك فى أمره ، حتى يخلصوه . فكثر بذلك

---

(١) Recueil des Historiens des Croisades Orientaux, vol. iii, p. 603.

أتباعهم ، واشتهر أمرهم ، واشتدت شوكتهم . وصار الرجل منهم يلق الرجل من غيرهم ، فينزع عنه ثيابه ، ولا يقدر على الامتناع منه ، ولا يجد ناصرا. ويلق أحدهم المرأة والصبي فى الطريق فيقبضه ، ويذهب به أنى شاء ، ولا يقدر أحد على استخلاصه . وليس هذا فقط ، بل إنهم رغبوا - كما رأينا - فى أخذ قلعة حلب » (١).

هذه هى حال النزارية، وتلك هى قوتهم ، فى أواخر عهد الملك رضوان ابن تتش ، وقد تطلعت النفوس إلى إبنه الملك «ألب أرسلان» ، الملقب بتاج الملوك ، وكان شابا لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، فراسله عمه السلطان محمد ابن ملكشاه ، وحتم عليه الفتك بالنزارية ، والتبرؤ مما فعله أبوه رضوان. ومما لامراء فيه أن إرسال السلطان محمد ، إلى ألب أرسلان ، دليل قاطع على اهتمام السلاجقة الأوائل بقطع دابر النزارية واستئصال شأفتهم ، ودليل أيضا على خطورة مركزهم فى بلاد الشام ، وكان مما قاله السلطان محمد لتاج الملوك : « والدك كان يخالفنى فى الباطنية ، وأنت ولدى ، فأحب أن تقتلهم » (٢) .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن جماعة هذا شأنها، مآلها تكتل السنيين عليها والثورة بها . وكان حتما على هذه الجماعة أن تعمل على استمالة أتابكة حلب وأمرائها ، بعد موت الملك رضوان ، والتظاهر أمام السنيين بأنهم لا يبغضون دينهم . ويخيل إلينا أن العلماء السنيين إنما كانوا يكيلون

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ ورقة ٧١ .

(٢) Recueil des Historiens des Croisades Orientaux vol. iii., p. 603.

لهم التهم جزافا ، لأن جماعة النزارية كانوا يحاربون السنيين بالمبادىء ، ويعتقدون أن حركتهم حركة إصلاحية شاملة ، فلا يعقل إذن أن يستخدموا الخنجر وحده لنشر دعوتهم والانتصار لمذهبهم ، ولا بد أن صراعهم مع السنيين كان صراعا كلاميا وصراعا دمويا كذلك . شأن كل المذاهب الدينية والسياسية فى جميع العصور والأماكن .

ومهما يكن من شىء فقد ضاق السنيون فى حلب وغيرها ذرعا بالنزارية ، ودوا لو تخلصوا منهم . وقد سنحت الفرصة للسنيين فى حلب بموت الملك رضوان ، حليف النزارية ، واستطاع زعماء هذه المدينة ، الوصول إلى قلب « ألب أرسلان » ، وأوهموه بأن قتال النزارية جهاد فى سبيل الله ، يثاب المرء عليه ، ويبرء من وباء فتاك ، « وأعلموه أن فى قتالهم وقتلهم أعظم القرب إلى الله تعالى ، مضافا إلى ما فيه من تخليص الناس من معرتهم ومضرتهم »[(١)]

وكان من أثر ذلك أن صدرت أوامر الملك ألب أرسلان بالقبض على زعماء النزارية ، وأصدر أمرا آخر حتم فيه على رعيته قتل جميع من يعثرون عليه من الباطنية ، وقد تمكن ابن بديع من القبض على كثير من زعمائهم ، وتمكن البعض الآخر منهم من الفرار ، فمن قبض عليهم أبو طاهر الصائغ ، ثانى رؤسائهم بالشام ، وابنه ، الذى قتل « صبرا على باب العراق ، ورجمته العامة ، وأحرقت شلوه [(٢)] ، وطيف برأسه فى بلاد الشام » وكذلك قتل الداعى إسماعيل ، أخو الطبيب المنجم ، داعى النزارية الأوائل فى تلك البلاد .

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، جـ ١ ورقة ٧٢ .
(٢) الشلو : الجثة .

وممن أفلت من زعماء النزارية فى حلب داعيان كبيران، يسمى أحدهما «حسام الدين ابن دملاج»، حيث فر إلى مدينة الرقة، وبقى بها حتى مات، ويدعى الآخر، إبراهيم العجمى الداعى، وكان لهذا الرجل شأن يذكر فى عهد الملك رضوان، فقد كان من نوابه فى حفظ القلعة بحلب، وترجع أهمية إبراهيم هذا فى تاريخ النزارية بالشام، إلى أنه تمكن من الفرار إلى حصن شيزر[1] وعمل على الاستيلاء عليه بمؤامرة، سنرى تفصيلها بعد.

وأما ما نال عامة النزارية فى حلب، فكان أشد هولا مما نال زعماءهم، إذ صودرت أملاكهم، وقتل منهم بظاهر حلب ثلثمائة، كما قبض على مائتين من كبارهم. وقتل بعضهم صبرا، وألقى ببعضهم من أعلى القلاع، وبالبعض الآخر فى السجون، وكثر الاتهام باعتناق المذهب النزارى. وهذا الاتهام كان يعتبر سبة فى نظر السنى المخلص، حتى قتل الكثيرون من الأبرياء، وأخذ النزارية يقتلون بعضهم بعضا، ليتخلصوا من تبعة هذا الاسم، على أن جماعة منهم تمكنوا من الإفلات، ففر بعضهم إلى الفرنجة، وتفرق البعض الآخر هنا وهناك، والخلاصة «أنه لم يبق بحلب منهم [بعد هذه المذبحة] من يعرف»[2].

وتعتبر مذبحة نزارية حلب من أهم الأحداث فى تاريخ هذه الطائفة فى الشام، فقد كانت معيارا صحيحا للحيوية الكامنة فى جسم هذه الجماعة، وخير محك لما تتمتع به من قوة معنوية. وقد خيل للبعض أن هذه المذبحة فيها نهاية النزارية بالشام، ولكن الحيوية الكامنة فى جسم هذه الجماعة هى التى بعثتها بعثا جديدا، فلم تلن قناتهم أمام عاصفة السنيين

(١) يقع على مسافة نصف يوم من حماة، كما يقع على نهر العاصى.
(٢) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، جـ ١ ورقة ٧١.

المدمرة هذه ، وإنما قابلوها بابتسامة الساخر الصابر ، الذى يسخر من عبث الحياة ، ويصبر على الضيم ، ومن ثم كان لزاما على القائمين بشئون تلك الجماعة فى بلاد الشام، أن يوجهوها وجهة جديدة ، فيغيروا الأسلوب الذى سلكوه من قبل ، ويصححوا الأوضاع الخاطئة التى وقعوا فيها ، ويضعوا الخطوط الرئيسية للسياسة الجديدة ، التى يجب على هذه الجماعة أن تسلكها بعد تلك المذبحة .

ومهما يكن من شيء فقد كان لهذه المذبحة آثار بعيدة المدى ، منها أن النزارية فقدوا كثيراً من زعمائهم ، غير أنه كان من حسن حظهم ، حدوث تلك المذبحة المروعة، بعد رواج دعوتهم فى أنحاء الشام ، وبذلك لم يتأثروا بها كثيرا ، ولكن الذى فقدوه حقا ، هو عدم تحقيق أمنيتهم الكبرى فى اتخاذ مدينة حلب قاعدة أساسية لدعوتهم فى بلاد الشام ، إذ أنهم على الرغم من افتضاح أمرهم واكتشاف مؤامرتهم ، التى كانوا يرمون من ورائها إلى احتلال قلعة هذه المدينة قبل هذه المذبحة ، على الرغم من ذلك ، فإن نفوذهم فى حلب ظل قويا ، ولم يفقدوا أملهم فى الاستيلاء على قلعتها ، ولكن تلك المذبحة «لم تبق منهم بحلب من يعرف».

وقد دل هذا على أنهم وقعوا فى خطأ كبير من جراء تركيز قوتهم فى مدينة كبيرة كهذه ، فإن معظم أهلها من السنيين ، وقد خالفوا بعملهم هذا سنة نزارية المشرق ، الذين كان دأبهم الاستيلاء على القلاع، وتكوين المجتمعات الإسماعيلية الخالصة . وسنرى أنهم أصيبوا فى دمشق بأكثر مما أصيبوا به فى حلب ، بسبب مخالفتهم هذا المنهاج السليم ، وهو امتلاك القلاع الجبلية ، وتكوين المجتمعات الإسماعيلية البحت . وسنرى أن نجاحهم

الحقيقي سوف لا يكون إلا فى القلاع وحدها (١) .

ومن أهم نتائج هذه المذبحة أيضا، محاولة النزارية الاستيلاء على بعض الأماكن ذات الموقع الاستراتيجى الهام، وتكوين مجتمعات إسماعيلية خالصة بها، تستطيع مقاومة الأنواء السنية : السياسية والدينية، وكانت محاولتهم فتح «شيزر» بعد ذلك خير دليل على هذا الاتجاه الجديد، فإن الداعى إبراهيم العجمى، أحد زعماء الإسماعيلية، تمكن من الإفلات من هذه المذبحة، ولجأ إلى جماعة من النزارية كانوا يقطنون فى «شيزر»، وأخذت فلول النزارية يتكاثفون حوله بها، ويفدون عليها. فلما كثر عددهم، تآمروا على امتلاكها فى سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣م) . يوضح ابن القلانسى ذلك بقوله : «ورد الخبر من «شيزر» بأن جماعة من الباطنية من أهل «أفاميه» و«سرمين» و«معرة النعمان» (٢)، و«معرة مصرين» (٣)، فى فصح النصارى، وثبوا فى حصن «شيزر» على غفلة من أهله، فى مائة راجل، فملكوه وأخرجوا جماعته، وأغلقوا باب الحصن، وصعدوا إلى القلعة، فملكوها وأبراجها» (٤).

كان احتلال النزارية حصن «شيزر» نتيجة طبيعية لمذبحة حلب، لأنهم أرادوا باحتلاله أن يتخذوا مكانا يلجأون إليه، بعد أن أصابهم ما أصابهم. لذلك يقول ابن الفرات (٥) : إنه «بعد الإيقاع بالإسماعيلية

(١) أنظر كتابنا «اسماعيلية الشام من أقدم العصور حتى اليوم» .

(٢) معرة النعمان : بين حلب وحماة ، وهى مدينة مشهورة من أعمال حمص، وينسب إليها أبو العلاء المعرى الشاعر المطبوع .

(٣) كورة بنواحى حلب ومن أعمالها .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٩٠ .

(٥) الدول والملوك ، جـ ١ ورقة ٧١ .

الباطنية فى حلب ، تجمعوا إلى «شيزر» ، وصار بها جماعة كثيرة ، ورتبوا أحوالهم ، وفكروا فى تحصين حصن «شيزر» . والذى جذبهم إلى هذا الحصن حسن موقعه ، فقد كان يستقر فوق جبل منيع يتعذر الوصول إليه ، ويقع بالقرب من نهر الأورنت ـ العاصى ـ فكأن الدافع إلى امتلاكه هو حسن موقعه أولا ، والرغبة فى الاستقرار ببلاد الشام ثانيا .

أما طريقة احتلالهم هذا الحصن ، فإنه ما كاد أمراؤه من بنى منقذ ، يخرجون منه يوم الشعانين(١) لمشاهدة حفلات ذلك اليوم ، حتى انقض النزارية عليه واحتلوه ، وهكذا « اغتنم الإسماعيلية الباطنية ، الذين تجمعوا بشيزر ، خلو البلاد من العامة ، وخلو القلعة من الأمراء والجند ، واجتمعوا ، ووثبوا فى الحصن ، وملكوه (٢) » .

إلا أنه على الرغم من هذا النجاح الوقتى ، لم يتمكن النزارية من الإبقاء على هذا الحصن طويلا ، لأن أصحابه ، الذين لم يكونوا يشكون يوماً فى إخلاص هؤلاء النزارية اللاجئين إليهم ، لما تيقنوا من خيانتهم ، تسلقوا إلى الحصن بمساعدة نسائهم ، وأحاطوا بالباطنية ، وأفنوهم عن آخرهم ، وعلى رأسهم الداعى إبراهيم بن إسماعيل العجمى السابق الذكر ، وتتبعوا جميع من كان على مذهبهم فى «شيزر» وفتكوا بهم .

وكانت خسارة النزارية جسيمة ، وخاصة بعد أن نالهم ما نالهم فى حلب ، وقد أدرك زعيمهم الأكبر فى « آلموت » ـ الحسن الصباح ـ ذلك ، فأرسل إليهم يُعزيهم ويشجعهم فى الوقت نفسه . ليكونوا مُثُلاً عليك

(١) أحد أعياد المسيحيين المشهورة .

(٢) ابن الفرات : الدول والملوك ، جـ ١ روقة ٧١ .

يحتذيها إخوانهم النزارية الآخرون ، فى بلاد الشام . وفى ذلك يقول ابن الفرات[١] «ووجد بنو منقذ مع الإسماعيلية رقعة من حسن بن الصباح ، فيها : رحمكم الله يا إخواننا ! لن يصاد من الطير إلا من يحسن التسبيح لا غير» ، والذى نستطيع استنتاجه من تلك الرسالة المقتضبة ، أن الحسن الصباح كان على علم تام بكل مايحوط نزاريته فى بلاد الشام بطريق الحمام الزاجل ، وأنه هو نفسه الذى كان يضع خطط الهجوم على القلاع بتلك البلاد ، وكان ذلك فى سنة ٥٠٧ ﻫ

ومعنى هذا أن النزارية خذلوا فى «شيزر» ، كما خذلوا فى حلب ، ولكنهم رغم هذا كله ، كانوا لا يزالون قوة يخشى الأمراء بأسهم ، فقد تنفسوا الصعداء بموت ألب أرسلان - تاج الملوك - ابن رضوان ، صاحب حلب ، وسروا لتولية «إيلغازى» ، أتابك ماردين[٢] وحلب مكانه ، وجذبوه إلى مجلتهم ، فكان يتودد إليهم ، مقلدا الملك رضوان فى ذلك السبيل ، ولهذا عاد نفوذهم قويا فى مدينة حلب ، وبذلوا جهودا متصلة فى سبيل الاستيلاء على قلعة الشريف ، المجاورة لهذه المدينة .

وقد نفذ هذا الأسلوب الجديد ، فى الاستيلاء على القلاع ، داع له شهرته فى تاريخ النزارية ، هو سلف مقدم الدعوة سنان ، ويدعى الشيخ أبا محمد ، ولا نعرف عنه شيئا كثيرا ، اللهم إلا أنه كان قد أرسل فى سنة ٥٠٠ ﻫ ، إلى الشام داعيا بسيطا[٣] ، وأنه استطاع الإفلات من مذابح حلب وشيزر ،

(١) تاريخ الدول والملوك ، جـ ١ ورقة ٧١ . وفى الأصل إلا من يحسن التسبيح ، والصواب إلا ما يحسن التسبيح

(٢) ماردين . قلعة منيعة ، تشرف على مدينة نصيبين . ذات موقع حسن يتحكم فى السهول المجاورة .

وتصادق آخر الأمر مع « نجم الدين إيلغازى »، وتمكن بهذه الصداقة من أن يعيد للنزارية نفوذهم فى هذه المدينة . ولا نستبعد أن يكون المقدم ، أبو محمد ، هو الذى تمكن من جعل إيلغازى ، نجم الدين ، يشرك طغتكين ، صاحب دمشق ، فى الاستعانة بالنزارية والتحالف معهم ، ولا يبعد كذلك أن يكون مقدم الدعوة ، أبو محمد هذا ، على اتصال بالداعى بهرام ، زعيم النزارية بدمشق ، كما لا يبعد أن يكون هو الذى أرسل الداعى بهرام إلى دمشق ، لتكوين هيئة نزارية منظمة هناك ، بعد أن فشلت تجارب الشمال «حلب ، أفامية ، شيزر» .

والذى لا نستطيع إنكاره هو صداقة المقدم أبى محمد النزارى لنجم الدين إيلغازى ، ولذلك حين أرسل هذا الداعى الكبير رسولا إليه ، يطلب منه قلعة الشريف ، كان مع الرسول النزارى هدايا كثيرة ، تدل على تلك الصداقه. وإن رد «إيلغازى» على النزارية يؤيد ذلك . أوضح ابن الفرات[١] هذا كله فى قوله : «وخرج رسول أبى محمد ، رئيس الإسماعيلية فى حلب ، إلى «ماردين» ، إلى عند نجم الدين إيلغازى، ومعه هدية سنية ، وقود[٢] كثير، وكان بينه وبين إيلغازى مصادقة ، ومعه كتاب فيه : إننا ضيوفك وقد كثرت نقلتنا ، ونريد أن تمن علينا بإطلاق قلعة الشريف ، لنتخذها مسكننا وملاذا نأوى إليه » .

---

(١) الدول والملوك ، جـ ٢ ورقة ٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) القود : القصاص ، وقتل القاتل مقابل القتيل ، والمعنى أخذوا معهم دواب وهدايا كثيرة .

وقد أجاب «نجم الدين» (١) إيلغازى النزارية بما يدل على اللباقة، ولكنه يدل فى الوقت نفسه على الخوف من النزارية، فقد تظاهر لهم بأنه أمر بتخريب هذه القلعة قبل أن يصل الرسول النزارى إليه بقليل، وأشار إشارة ذات معنى لكاتبه، فأرسل هذا رسالة لحماة القلعة، عن طريق الحمام الزاجل، يأمرهم فيها بتهديم السور الذى يفصل بين مدينة حلب وبين القلعة، كما سلم إلى الرسول رسالة أخرى، وفيها يأمر بتسليم القلعة إليه، فلما وصل الرسول إليها، كان الأمر على غير مارغب النزارية. ونستطيع أن نستبين من أسلوب «إيلغازى» مدى حسن العلاقة بينه وبينهم، ومدى خوفه منهم أيضا.

وكان ما حدث صدمة كبيرة أصابت الإسماعيلية، الذين كانوا يبنون الآمال الكبار على أخذ هذه القلعة، للاستقرار فيها، وتقوية مركزهم فى

---

(١) جاء فى عبارة ابن الفرات (جـ ٢ ورقة ٤٠) المستفيضة ما يلى: « فقال الأمير إيلغازي للرسول من غير توقف ولا تؤدة : والله قد أمرت البارحة بهدمها، ولو تقدم قدومك لسلمتها إليكم، والتفت إلى كاتبه، وقال: اكتب له كتابا بتسليم القلعة إليهم إن كانت على حالها. ففهم الكاتب مراده، فتباطأ بالرسول. وأمر الأمير إيلغازى كاتبه أن يكتب على جناح طائر بهدم السور الذى بينها وبين حلب، وتقصير سورها الخارجى، وبصلب جماعة من أهل الحبوس [السجون] الذين وجبت عليهم الديات، ويشاع عنهم أنهم كمنوا فيها، وأرادوا تسليمها إلى الفرنج، وأن يصعد إليها جماعة من وجوه الحلبيين ببيوتهم وأهاليهم، وألا يؤخر ذلك. وكتب للرسول كتابا فى آخر النهار وأرسله، فجاء، فوجدها قد انهدمت، وقد سكنها جماعة من وجوه الشيعة والسنة ».

بلاد الشام ، ولهذا طلبوا من جديد أخذ القلعة ، وتعهدوا بإصلاحها وإقامة سورها . فكان رد إيلغازى لثانى مرة دليلا آخر على أنه يريد ألا يفسد ما بينه وبين النزارية من مودة ، إذ أجابهم أنه عاجز أمام أهل المدينة السنيين ، وخطأهم فى عدم الاتصال سرا به . ومهما يكن من أمر . فقد أعاد الداعى أبو محمد الرسالة . وفيها « نحن نأخذها ونعمرها » فقال لهم إيلغازى : هذا ثغر قريب من الفرنج ، وقد صعد إليه وجوه المدينة وأهل الدين ، ولا يمكننى مناصبتهم [معاداتهم] ، فإنى أخاف أن يفسد حال البلد . ولو أنكم أتيتمونى فى السر ولا تظهرون ذلك ! . » وقد فعل مثل هذا عماد الدين زنكى ، وابنه نور الدين محمود .

وهكذا كان أمراء المسلمين يخافون صولة النزارية فى الشام ، كيلا تقع فى أيديهم . ومما لا مراء فيه ، أن امتلاك النزارية القلاع المجاورة للمدن الكبيرة ، كحلب وغيرها ، يعتبر من أكبر دواعى نجاحهم فى نشر الدعوة ، ومد نفوذهم ، ونشر الرعب والذعر بين مخالفيهم فى تلك المدن . وقد أدرك ابن الفرات (١) ذلك فقال : « ولولا ما وفق الله تعالى إيلغازى ، والأمير عماد الدين زنكى ، وولده العادل نور الدين محمود ، فيما لقيهم إياه من هذا الطريق ، الذى صدوا به هذه الطائفة الملحدة الخبيثة ، لكانوا قد استولوا على هـــذه البلاد ، وسرت دعوتهم الخبيثة فى الوهاد والنجاد » .

وبهذا نرى أن النزارية فى بلاد الشام أخفقوا فى مسعاهم فى سبيل أخذ قلعة الشريف ، كما أخفقوا فى الاستيلاء على حصن « شيزر » وقلعة حلب من قبل ،

(١) الدول والملوك ، ج ٢ ورقة ٤٠ .

وبعبارة أخرى ، لم يستطع النزارية بالشام أن يصلوا إلى أغراضهم بالعنف أو باللين ، ومن ثم لجأوا إلى طريقة أخرى واتجاه آخر . يتلخص فى نشر دعوتهم فى بلاد الجزيرة ، وفى إقليم حلب ، ما دام «نجم الدين إيلغازى» صاحب «ماردين» على هواهم ، وبفضل هذه السياسة الجديدة ، أخذ نفوذهم يزداد كثيرا فى بلاد ما بين النهرين ، وبلاد الجزيرة ، وعلى الأخص فى مدينتي آمد[1] وديار بكر ، ولم تأت سنة ٥١٨ هـ حتى أصبحوا خطرا على السنيين فى مدينة آمد ، ودبر لهم هؤلاء السنيون مؤامرة ، كتلك التى دبرت فى حلب ، وفتكوا بعدد كبير منهم ، مما يدل على كثرة عددهم . وهكذا «ثار أهل آمد بمن فيها من الإسماعيلية ، وكانوا قد كثروا ، فقتلوا منهم نحو سبعمائة رجل ، فضعف أمرهم بها ، بعد هذه الوقعة »[2].

والحق أن أهل «آمد» ثاروا بالنزارية حين أدركوا أنهم يسعون إلى احتلال مدينتهم ، مما يدل على أن محاولة احتلال هذه المدينة ، إنما هو مرحلة أخرى من مراحل استقرارهم فى هذه البلاد . يقول ابن الجوزى[3] «ووصل الخبر بأن الباطنية وثبوا فى آمد ليملكوها ، فظهر عليهم أهل البلد ، فقتلوا من الباطنية سبعمائة » ، ولو قدر للنزارية النجاح فى هذه الجهات ، لسهل عليهم الاتصال بالفرع النزارى الرئيسى فى فارس ، ولأصبحت بلاد الجزيرة معبرا يعبره النزارية إلى إقليم قوهستان وبلاد

---

(١) مدينة آمد : من أعظم مدن ديار بكر فى شمال العراق .

(٢) ابن الفرات : الدول والملوك ، جـ ٢ ورقة ٨٩ .

(٣) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ورقة ٦٩ .

الديلم وغيرهما ، وليسهل عليهم بعد ذلك تحقيق أمنيتهم الكبرى فى جعل العالم الإسلامى منطقة نفوذ لهم .

كانت سلسلة النكبات التى حاقت بالنزارية مذ وطئت أقدامهم بلاد الشام، خير درس لهم ، فقد تعلموا من هذه الحوادث جميعا ، أن شمال الشام لم يعد أرضا صالحة لدعوتهم ، ومن ثم ولوا وجوههم شطر دمشق ، بعد أن رأوا صاحبها - طغتكين - يعطف عليهم عطفا شديدا ، وبعد أن لمسوا بغض « بلاق بن بهرام » خليفة إيلغازى ، فقد احتل مدينة حلب فى سنة ٥١٧ ﻫ (١١٢٧ م) ، ولم يمض غير قليل ، حتى قبض على زعيم النزارية فى هذه المدينة ، وأمرهم جميعا بمغادرتها « فخرجوا منها بمتاعهم وأموالهم وعائلاتهم »[١] ، وولوا وجوههم نحو دمشق .

وبهذا نرى أن نزارية الشام ساعدوا على ضعف إخوانهم الفاطميين الإسماعيلية ، فأزالوا ما بقى لهم من نفوذ فى تلك البلاد ، ولا غرو فإن العداء بين هؤلاء وأولئك كان محتدما، منذ وفاة المستنصر ، وإن ما عمله النزارية - أتباع الحسن الصباح - مع الفاطميين فى بلاد الشام، هو نوع من ذلك الصراع . كما ساعدوا الصليبيين أيضا فى ذلك الدور بما قاموا به من اغتيالات منظمة ضد الزعماء السنيين ، فقد كان لقتلهم جناح الدولة أثر فى زيادة نفوذ الصليبيين فى شمال الشام . أضف إلى ذلك أن ما أحدثوه فى أفامية سنة ٤٩٩ ﻫ . ساعد الصليبيين على احتلالهم هذا الحصن الخطير ، ذا الموقع الحربى البديع ؛ كل هذا يدل دلالة قاطعة على أن النزارية بالشام كانوا عونا للصليبيين فى هذا الدور على الأقل .

---

(١) Defremery; Nouvelles Recherchs (J.A. 1854), p. 408

أضف إلى ذلك أن النزارية استطاعوا أن يجذبوا إليهم كثيرا من أمراء الشام وأتابكتها . فقد خضع لنفوذهم ـ على ما رأينا ـ رضوان السلجوقى ـ صاحب حلب ـ واستمالوا إليهم خليفته «نجم الدين إيلغازى» ، وبدأ نفوذهم فى أخريات حياة الحسن الصباح فى الاتجاه إلى دمشق جنوبا ، وفى هذا خير دليل على نجاح النزارية فى الشام من الناحية الدبلوماسية .

أما محاولاتهم الكثيرة التى بذلوها للاستقرار فى تلك البلاد ، فقد منيت جميعها بالفشل ، لأنهم ركزوا جهودهم فى الاستيلاء على المدن أو قلاعها ، ولو اتجهوا ـ كإخوانهم المشارقة ـ إلى القلاع الجبلية ، فبنوا بعضا واغتصبوا مثلهم بعضا ، لأراحوا أنفسهم ، وحقنوا دماءهم التى فقدوها فى حلب وشيزر وآمد . هذا وقد عجز النزارية عن مذهبة البلاد ، التى زاد نفوذهم فيها ، بالمذهب الإسماعيلى ، ولو استطاعوا فعل ذلك ، لما نكبوا بحلب أو غيرها . وبعبارة أخرى ، كان نفوذ السنيين قويا ضدهم فى شمال بلاد الشام ، طيلة عهد الصباح ، فلم يستطيعوا أن يحققوا آمالهم كاملة هناك ، وليس معنى ذلك أنهم لم يكونوا قوة يؤبه لها ، فقد كان إيلغازى يتملقهم لقوتهم ، كما قلده طغتكين أتابك دمشق فى ذلك ، واستمروا فى الوقت نفسه يعملون فى استتار ، ومهدوا الطريق لراشد الدين سنان ، مقدم النزارية فى عهد صلاح الدين ، ودوخوا الصليبيين ، وأربكوا نور الدين محمود ـ صاحب الشام ـ ثم صلاح الدين الأيوبى من بعده (١) .

---

(١) انظر كتاب « اسماعيلية الشام من أقدم العصور حتى اليوم » للمؤلف . وكذلك كتاب «أئمة النزارية أجداد أغاخان » .

وهكذا نجح الحسن الصباح نجاحا منقطع النظير فى بلاد فارس وخراسان ، ولكنه لم يستطع أن يحقق أمنيته كاملة فى بلاد الشام ، فترك مهمة الاستقرار فى هذه البلاد إلى خلفائه من بعده ، حيث استطاعوا أن يقلدوه ، فيستقروا فى قلاع الدعوة المشهورة فى جبال لبنان ، تلك القلاع التى ظلت قذى فى أعين الصليبيين والسنيين قرنين من الزمان ، حتى استطاع الظاهر بيبرس ، فى أواخر القرن السابع الهجرى ، أن يضمها إلى ملكه ، ويزيل ما بقى للنزارية من نفوذ فى بلاد الشام .

(٤) صراع الحسن الصباح مع المستعلية

رأينا أن الحسن الصباح لم يثر على الفاطميين فى عهد الخليفة المستنصر ، فظل على إخلاصه لهذا الخليفة ، لكنه ثار عليهم بعد تولية ابنه المستعلى ، الذى قتل أخاه الأكبر نزارا ، وهكذا ، كما يقول النويرى : « انفصل أهل « آلموت » عن العبيديين (أى الفاطميين) من ذلك الوقت ، وشرع الإسماعيلية فى افتتاح الحصون ، وأخذوا قلعة وبنوا أخرى ، وأظهروا شغل السكين » (١) .

وقد ادعى الحسن أنه نائب عن الإمام نزار ، أو بالأحرى نائب الإمام المستور ـ كما رأينا ـ ولم يعترف بقتله ؛ وادعى أنه لم يمت ، وانهم « ما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم » . ولكى يبرهن لهم على صحة دعواه ، اخترع من الآراء ما يلائم أذهان الباطنية فى فارس ، ويتفق مع

---

(١) النويرى : نهاية الأرب (مخطوط بدار الكتب) ، ج ٢٨ ورقة ٧٥ .

فلسفتهم الدينية ، فادعى أن نزارا تجسم فى بطن امرأة ، وأنه حضر إلى «آلموت» على تلك الصفة ، فكان هذا لونا جديدا من ألوان الصراع مع المستعلية الفاطميين ، لأن الصباح ثار على الإمامة الفاطمية الظاهرة ، بمناداته بالإمامة النزارية المستورة .

يقول النويرى [١] : « وكان الصباح . . . لما قتل نزار طالبوه به ، فقال : إنه بين أعداء كثيرة ، فى بلاد بعيدة ، ولا يمكنه الحضور . وقد عزم على أن يختفى فى بطن امرأة ، ويجىء سالما ، ويستأنف الولادة ، فقنعوا بذلك ، فأحضر لهم جارية ، وقال : إنه قد اختفى فى هذه ، فعظموها ، فولدت ابنا سماه « حسنا » ، وقال : تغيير الاسم لتغيير الصورة » .

نرى أن تلك القصة مفتعلة على الحسن ـ على ما يظهر ـ لأنه لم يترك فى كتابه « ساراجوزاشت » مثل تلك القصة الخيالية ، على أن القلقشندى [٢] يبالغ ، فيرى أن النزارية كانوا يعتقدون أن نزارا خرج من الإسكندرية حملا فى بطن امرأة ، تقية على نفسه ، وخاض بلاد الأعداء ، حتى صار إلى « آلموت » ، مع أننا نعلم أن نزارا مات فى سنة ٤٨٨ هـ مدفونا بين جدارين ، فى قصر الخلافة بالقاهرة .

وأهم من ذلك، ما ذهب الفارقى إليه ، من دعواه أن الحسن الصباح زوج ابنته من نزار بن المستنصر حين كان بمصر ، فأنجبت هذه أبناء من نزار

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ورقة ٧٦ .

(٢) صبح الأعشى ، جـ ١٣ ص ٢٣٧ .

ابن المستنصر، ويدعى أيضا أن نزارا قصد قلعة «آلموت»، وعاش، هناك مع الحسن ؛ فيقول : « خرج نزار من مصر ، ومضى إلى خراسان ، إلى بيت الصباح ، فى قلعة «آلموت»، واتصل إليهم ، وأولد هذا الابن (أى محمد بن نزار) من بنت الصباح ، ومات هناك[1] » . ولا يمكننا تصديق ذلك ، ما دام التاريخ الصحيح يؤكد أن الحسن للصباح لم يصاهر نزارا . إلا أن هذه الدعاوى تبين لنا العداء المستحكم بين النزارية والمستعلية .

على أن هناك رأيا يكاد يكون أقرب إلى الصحة من تلك الآراء جميعا ، وهو ما ذهب البندارى إليه ، من أن الخليفة المستنصر الفاطمى ، أرسل فى أخريات حياته مع بعض خواصه من المقربين إليه طفلا ، ليعيش فى « آلموت » ، بعيدا عن مؤامرات قصر الخلافة بالقاهرة ، وكان ذلك الطفل أحد أبناء نزار بن المستنصر[2] . ولو صحت هذه الرواية ، كانت دليلا على صحة ماذهب إليه النزارية ، من أن المستنصر وضع الإمامة فى بيت ابنه نزار دون المستعلى ، وأن المؤامراة التى حيكت ضد بيت نزار هذا ، قد بدأت فى عهد المستنصر نفسه ، الذى كان يعطف على ابنه نزار ، ويود استقرار الإمامة فيه ، وفى أبنائه من بعده .

وعلى الرغم من هـذا الاختلاف فى الآراء ، فإنها جميعا تدل على سمو مركز الحسن الصباح فى عالم دعوة نزار ، سواء أكان ذلك فى مصر أو فى بلاد فارس . وقد صدق فان برشم[3] فى قوله : « ما كاد الحسن

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٩ .

(٢) الأصفهانى : تاريخ السلاجقة ، ص ٣٨ .

(٣) Berchem : Epigraphie, (J. A, 1897) p. 272

الصباح يستقر فى « آلموت » ، حتى هجر الأسرة الحاكمة (الفاطميين) ، كى يطير بنفس أجنحتها » . ولا غرو فقد كان يعتقد أنه يمثل الفاطميين الحقيقيين ، على حين كان يعتبر المستعلى وبيت بدر الجمالى فى مصر ، من الثوار على الفاطميين أنفسهم .

ولا يبعد أن يكون إرسال الحسن دعاته إلى الشام ، إنما هو لمقاومة المستعلية الذين كان نفوذهم سائدا في تلك البلاد . وآية ذلك ، ما رأيناه من سلوك أبى الفتح السرمينى ، كبير دعاة الحسن الصباح فى بلاد الشام ، الذى حاول أخذ « أفامية » ، ونشر المذهب النزارى ، ومحاربة المذهب المستعلى بها ، لأن واليها السابق وكثيرين من أهلها كانوا يدينون بمبادىء الدعوة القديمة (الدعوة المستعلية) .

وقد أدرك الفاطميون المستعلية نوايا النزارية بالشام ، فأخذوا يتجسسون عليهم ويتعرفون أحوالهم ، وإليك حادثة تبين لك صحة هذا القول . ذلك أنه فى سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠م)، وثب باطنى نزارى بدمشق ، على رجل من أهل مدينة حلب ، فقتله . واجتهد الناس فى تخليصه ، فلم يقدروا . ولما قتله الباطنى لم يعرضوا له ، خوفا من هذه الطائفة ، وادعى الباطنى أن هذا الحلبى يتجسس عليهم ، ويوصل أخبارهم إلى الأفضل بن أمير الجيوش ، وزير الديار المصرية (١) . مما يدل على كراهة النزارية والمستعلية بعضهم لبعض ، ويدل فى الوقت نفسه على خوف الفاطميين من نزارية الشام خاصة .

ويقال : إن النزارية هم الذين قتلوا الأفضل شاهنشاه فى سنة ٥١٥ هـ ، واجترءوا بعد ذلك ، فعملوا على مد نفوذهم فى مصر نفسها . غير أن الوزير الجديد ، المأمون البطائحى ، كان شديد الاحتراس والخوف منهم .

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، جـ ٢ ورقة ٤٠

ويهمنا هنا أن نوضح سياسة الحسن الصباح إزاء الفاطميين فى مصر نفسها، فقد اتخذ له جواسيس بمدينة القاهرة، حاضرة الفاطميين، وأخذ يرسل الأموال إليهم وكله أمل فى الفتك بالخليفة الآمر، ووزيره الجديد، المأمون البطائحى (٥١٥هـ — ٥١٩هـ). زاد ابن ميسر[1] هذا الأمر وضوحا فقال: «فلما ولى المأمون، بلغه أن ابن صباح والباطنية فرحوا لموت الأفضل وقتله، وأنه قد امتدت آمالهم لقتل الآمر والمأمون (البطائحى) معا، وأنهم أرسلوا رسلا لأصحابهم المقيمين فى مصر، ومعهم أموال للتفرقة عليهم».

ويبين لنا هذا مدى توغل جاسوسية النزارية فى مصر وخطرها. فقد كان لهم بها جماعات كبيرة، حتى كان أساتذة أبناء الخليفة الآمر من النزارية. ولا مراء فى أنه كان لمهارة الوزير البطائحى فى البحث عن النزارية أثره الطيب فى اكتشاف أمرهم، وإخفاقهم فى مصر. ولو نجحوا فى تلك البلاد، لأزالوا نفوذ الدعوة القديمة منها، كما أزالوه من فارس والشام.

ولشدة خوف الفاطميين من النزارية أوقفت حكومتهم نشاطها على البحث عنهم، وتقصى أخبارهم، لا بل اتخذوا لهم جواسيس تقتفى آثار النزارية فى فارس، الذين يخرجون من بلادهم، فكان الكثير من نشاطهم يعرفه الفاطميين، فيدرءون الخطر قبل وقوعه. ولذلك كان من السهل على الخليفة الآمر ووزيره البطائحى، أن يجنبا دولتهم خطر النزارية. وتبعا لهذا النشاط الفاطمى الفذ تلاشى خطر النزارية عن مصر أو كاد، فمن اكتشف أمره منهم قتل، ومن خرج من بلاده متجها إلى مصر قتل، قبل أن يصل إليها.

(١) ابن ميسر: أخبار مصر، ج ٢ ص ٦٥.

- يقول ابن ميسر(١) فى مهارة البطائحى ونشاطه ضد النزارية : « ثم إنه أركب فى يوم من الأيام جماعة من العسكر وفرقهم ، وأمر بمسك من عينه ، فمسك منهم جماعة كثيرة ، منهم رجل كان يقرىء أولاد الخليفة الآمر، ومسك معهم المال الذى سيره ابن صباح، برسم نفقة مصر، فأخذه ، وكانت هذه الفعلة من المأمون من عجائب الحذق ، وبث مع ذلك الجواسيس فى أقطار الأرض . وكان الباطنى إذا خرج من « آلموت » لا تزال أخباره تصل إلى المأمون متعاقبة ، حتى يصل إلى المأمون ، وحتى يصل إلى بلبيس ، فيمسك بها ، ويحمل إليه ، فيقتله » .

ويتمثل الصراع بين الفريقين فى شحذ كل فريق منهما ذهنه وهمته فى دحض آراء خصمه وتفنيدها ، بتأليف الكتب وإذاعتها بين الأتباع ، فقد وقف الحسن يقارع المستعلوية حججهم ، ويملأ مكاتب « آلموت » ، وقلاع الدعوة بالمؤلفات الكثيرة التى يثبت فيها صحة إمامة نزار بن المستنصر ، وبطلان إمامة المستعلى . كما أوقفت الدولة الفاطمية أقلام مؤلفيها ودعاتها وفقهائها ، للرد على النزارية ، وتفنيد دعاويهم ، التى تنادى بصحة إمامة نزار بن المستنصر . وبهذا وضع الحسن الصباح لخلفائه المنهاج الذى يجب عليهم أن يسلكوه حيال الفاطميين .

٥ — خاتمة القول فى الحسن الصباح

(ا) أخلاق الحسن الصباح

يعتبر الحسن الصباح من الزعماء القلائل الذين يضن الدهر بهم ، والذين يظهرون من حين إلى حين فى هذا الكون ، فيملئونه إعجابا بهم

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٦٦ .

وتقديرا لهم . وقد امتاز الحسن الصباح بالتحلى بصفات جعلته فى مصاف كبار زعماء الإسماعيلية ، بل زعماء المسلمين السنيين ، واستطاع بفضل ما كان يتمتع به من خلال طيبة ، أن يكون دولته النزارية وسط أعاصير السنيين ومذاهبهم .

ومن أهم ما كان يتمتع به هذا الزعيم بعد نظره . فقد كان لهذه الخلة - بعد النظر - أثرها الكبير فى حياته . انظره وقد تنبأ للخيام الشاعر بالنبوغ العلمى ، ولأنوشروان بن خالد ، وزير السلطان محمود فيما بعد ، بالنبوغ السياسى كذلك ، فعقد أواصر الصداقة معهما ، حتى يستغل نفوذهما فى المستقبل . ثم أليس فى تركه المذهب الاثنا عشرى الذى مل أنصاره انتظار إمامه ، وانتقاله بعد ذلك إلى المذهب الإسماعيلى ، الذى يتيح للرجل العامل النابه أن يظهر على مسرح السياسة ، ويحقق آماله وطموحه ؟ أليس هذا الانتقال دليلا قويا على بعد نظر الحسن الصباح ؟ فقد أصبح بسبب بعد نظره هذا فى مركز لا يقل عن مركز الملوك والأباطرة .

حقا ! جر بعد نظر الحسن عليه كثيرا من المتاعب ، غير أن الزعماء لا يهتمون بما ينالهم فى سبيل تحقيق مآربهم الكبيرة . يدل على هذا ، ذلك الصدام العنيف الذى احتدم بينه وبين بدر الجمالى ، وزير المستنصر ، فقد أدرك بثاقب نظره أن الدعوة الإسماعيلية فى مصر سوف تنهار على أيدى هؤلاء الوزراء النفعيين ، وقرر الاصطدام معهم بعد ذلك . ولو لم يكن الحسن الصباح بعيد النظر لثار على الفاطميين منذ احتلاله «آلموت» ، واستشعاره القوة والنفوذ ، ولكنه آثر الانتظار . فلما مات المستنصر سنة ٤٨٧ هـ ، وقتل الخليفة المستعلى أخاه نزارا فى السنة التالية ، نادى بإمامة نزار هذا ، واستقل بإسماعيلية الشرق عن إسماعيلية مصر . فكان ما ناله

الحسن من نجاح كبير أثرا من آثار بعد نظره . ثم إن اعتماد الحسن الصباح على القلاع القوية فى قلل الجبال واتخاذها دور هجرة للإسماعيلية النزارية دليل آخر على بعد نظره . فقد استطاع بفضلها أن يحتفظ بقوته سليمة لم يمسسها سوء .

وفى الحق أن الحسن الصباح كان نهازا للفرص كذلك ، فلم يترك فرصة تمر إلا استغلها ، فقد انتهز فرصة توظفه فى حكومة السلاجقة ، وحاول اكتساب رضاء السلاطين أنفسهم ، حتى أوشك أن يصل إلى الوزارة ، وانتهز فرصة الحروب الأهلية التى أعقبت موت السلطان ملكشاه ، وقوى فرقته ، فبنى قلاعا واشترى وأصلح أخرى ، بل لقد اندمج فى هذه الحروب الأهلية ، فأعان جماعة من أبناء ملكشاه على إخوتهم ، على الرغم من أنه كان يبغض الجميع ، كما كان هو نفسه مبغضا للجميع .

ويدلنا على جبلة الحسن الانتهازية ، أنه ما كاد يرى بلاد الشام مضطربة ، يسودها الشقاق ، ويغمرها اختلاف أمراء السلاجقة وأتابكتهم ، ويمزقها صراع السنيين والفاطميين مع الصليبيين . ما كاد يرى هذا كله حتى حزم أمره ، وبعث بدعاته إلى تلك البلاد ، علّه ينال منها غرضا . كل هذه الأمور خير دليل على بعد نظر الحسن وانتهازه الفرص .

ويعتبر الصبر من أبرز الصفات التى كان الحسن يتحلى بها ، حقا ! كان الحسن الصباح شهما جلدا ، لا تقرعه الحوادث ، فكان يتغلب عليها بثباته وجلده . انظره وقد عصفت العواصف الجامحة بالسفينة التى كانت تقله فى البحر الأبيض . أثناء عودته إلى بلاده ، وهو ثابت متجلد ، فى الوقت الذى ملأ اليأس والفرق قلوب رفقائه ، حتى لقد أذهل بتجلده

وصبره هؤلاء الرفقاء، وأعجبوا به أيما إعجاب، ولا غرو فقد كان رجلا يصرع الحوادث فلا تستطيع هي أن تصرعه. وخير دليل على صبره وجلده أنه استطاع، ومعه سبعون رجلا، أن يقاوم جحافل السلاجقة، وأن يدير دفة هذه الحروب الميئوس من نجاحها، إدارة تدل على الثبات والقوة. ولو أن رجلا غير الحسن كان على رأس ذلك النفر القليل، لخارت قواه أمام تلك الأهوال، لكنه صبر. فكان صبره من أكبر عوامل نصره.

على أن ميل الحسن الصباح إلى الدقة والنظام كان من أبرز صفاته أيضا؛ فقد كان يهمه أن يكوّن جماعة منظمة، تسير في سياستها وحروبها، وفي نشر دعوتها، على نظام ثابت، وكان يعتقد أن هذا النظام هو عنصر النجاح الفعال، لذلك اعتمد في اتخاذ قلاع دعوته على النظام والدقة، فجعل هذه القلاع منظمة بحيث لا تستقبل غير المستجيبين، واتخذها بحيث يمكن الاتصال بها جميعا، وبحيث تكوّن شبكة من وسائل الدفاع القوية التي لا يمكن اختراقها، وجعل من كل قلعة مملكة صغيرة، تخضع لرئيسها المباشر، وجعل القلاع في كل إقليم تخضع لقلعة رئيسية، وضع عليها زعيما يعترف له بالطاعة جميع النزارية في إقليمه بالطاعة. ومن ثم لم نسمع عن اعتصاب في قلعة ما، أو نسمع عن ثورة في هذه القلاع، بل كانت الطاعة رائد الجميع، كل هذا يرجع إلى حسن تنظيم الحسن الصباح لأعماله.

ومما يدل على أن النظام كان من أبرز صفات الحسن أنه استطاع بحسن دقته وهو موظف في ديوان السلاجقة، أن ينجز في أربعين يوما، عملا عجز نظام الملك نفسه عن إتمامه في عامين، ما ذلك إلا لأنه لجأ

إلى النظام ، واستعان بالموظفين المختصين ، فنال النجاح . ولما أحدث نظام الملك الاضطراب فى تقرير الحسن ، عجز هذا عن شرحه ، لأنه لم يعتد الفوضى ، ولم يعرف غير النظام .

على أن تنظيم الحسن المجتمع النزارى يعتبر خير دليل على حبه النظام والدقة ، فقد استطاع بفضل هذا التنظيم الدقيق أن يكون مجتمعا مرتبطا بعضه ببعض تمام الارتباط ، وأن يجعل جميع أعضاءه يشعرون له بالتبعية ، ويقدسونه ، فقسمهم إلى طبقات . كل طبقة تشعر بكيانها ، وتحترم غيرها من الطبقات الأخرى ، وجعل من نفسه المشرف الأول عليها جميعا . ويكفيه فخرا أنه استطاع بلباقته وحسن تنظيمه أن يخلق جماعة الفداوية ، وأن يعلمهم كيف يكونون آلة طيعة فى يديه ، فقد كان لاغتيالاتهم السياسية المنظمة دويها الكبير فى الشرق والغرب . وإنك لو تتبعت حركات الفداوية ودرست أساليبهم فى تعقب ضحاياهم ، لأدركت الدقة والنظام ، اللذين بفضلهما نالوا ما نالوه من نجاح ، وحققوا كثيرا من أغراضهم .

وليس هذا فقط ، بل لقد وضع الحسن لنشر « الدعوة الجديدة » طرقا دقيقة تدل على اتخاذه النظام وسيلة للنجاح ، فحتم على دعاته أن ينهجوا مناهج غاية فى النظام والدقة : حتم عليهم أن يدرسوا نفسية المستجيب دراسة وافية ، كما يدرس الطبيب حالة المريض ، وأن يعالجوه بعد ذلك بالعلاج الذى يستطيع هضمه ، متدرجين معه ، فى نظام ودقة ، فى درجات حددها لهم ، حتى يصلوا به فى النهاية إلى أعلى الطبقات . وعندنا أنه لولا هذا التنظيم ، لما استطاع الحسن الصباح أن يخلق مجتمعه النزارى الفذ .

أما طموح الحسن الصباح، فكان من أهم صفاته . يدل على ذلك أنه لم يستطع أن يعمل موظفا صغيرا من موظفى ديوان السلاجقة ، فأخذ يسعى للوصول إلى الوزارة نفسها ، مما كان سببا فى طرده . وكذلك لم يشأ الحسن أن يعمل داعيا بسيطا من دعاة الإسماعيلية، بل قاده طموحه إلى النبوغ ، فقصد مصر، حتى عينه المستنصر « حجة » له على خراسان . على أن الرجل الطموح لا تهدأ نفسه ، أو ترضى بما قرر لها ، ولذلك لم يكتف الحسن بوظيفة « الحجة » ، رغم أنها وظيفة سامية ، يتطلع إليها ألوف الدعاة ، ومن ثم سعى إلى خلق دولة تدين له بالطاعة ، فدعا لنزار ابن المستنصر ، وأقام من نفسه نائبا عنه ، ولا ندرى من أين أتته هذه النيابة ، أمن المستنصر حين أخبره بأن نزارا ولى عهده ؟ أم أنه استبد بالأمر دون الرجوع إلى أحد . والمهم أنه انفصل بدعوته الجديدة عن مصر ، فأصبح السيد المطاع بين إسماعيلية فارس وخراسان ، وما وراء النهر ، وبلاد الشام ، فكان بفضل طموحه يتمتع بكل ما يتمتع به الملوك والسلاطين والأباطرة .

وهكذا كان طموح الحسن وما ناله من نجاح يدفعانه إلى الظفر بنجاح آخر ، وخلاصة القول أنه لولا طموح الحسن لظل موظفا بسيطا من موظفى الدولة السلجوقية ، أو لبقى داعيا بسيطا من دعاة الإسماعيلية فى المشرق ، ولكن طموحه ، وقوة شخصيته الطاغية ذللا أمامه جميع العقبات ، حتى تربع على عرش النزارية .

وقد كان لطموحه أثر كبير فى أسلوب حياته . كان لا يريد أن يعترف لأحد بالزعامة عليه إلا إذا كان هذا الاعتراف مما يشبع طموحه ،

وكان يخضع المستنصر خضوعا أعمى ، ويرفض أن يخضع لبدر الجمالى ، لأن خضوعه للمستنصر يحقق آماله ، ويتفق مع ميوله المذهبية والسياسية ، وأما خضوعه لبدر الجمالى ، فكان مما لا يتفق وطبيعة طموحه ، أو تربيته الدينية . وقد دفعه طموحه إلى أن لا يخضع لبيت ابن عطاش ، رئيس الدعوة بالمشرق قبله ، وعلى الرغم من حسن علاقته بأحمد بن عبد الملك ، مهد هو الأمور لنفسه ، كى يصبح زعيما عليه . وهكذا كان طموح الحسن عظيم التأثير فى حياته .

أما تقوى الحسن الصباح ، فكانت مضرب المثل . كان الحسن تقيا ورعا ، عمل على تنشئة مجتمعه على التقوى والزهد ، ولا غرو ، فقد كان مثال الرجل القانع ، كما أنه أنشأ أشياعه على التعلق بظاهر الشريعة ، ولم يأمرهم بالخروج عليها ، على ما ذهب إليه بعض ، فلم يشرب واحد من أتباعه الخمر ، وقتل واحدا من أبنائه لاتهامه بشرب الخمر والزنا (١) ، وطرد من « آلموت » رجلا من أنصاره ، ، لا لسبب إلا لأنه كان يتسلى بمزماره ، كما نشَّأ بناته ونساءه على كسب حياتهن عن طريق الغزل(٢) ، مع أنه لم يكن فقيرا ، بل كان ذلك الرجل الذى « قطع أوداج الجبابرة » . ولا غرو فإنه لم يخرج من داره فى « آلموت » قاعدة ملكه طيلة حكمه الطويل (٤٨٣ — ٥١٨) سوى مرتين ، ولم يصعد إلى سطح القاعة غير مرة واحدة . وكان يقضى وقته فى الصلاة والتأليف فى أصول عقيدة الإسماعيلية

---

(١) Defremery : Nouvelles Recherches (J.A.1849) pp.36-37

(٢) المستوفى : تاريخ جوزيدة ، ج ١ ص ٤٩٧ .

أو التعليق على كتب أهل السنة والرد عليها . وعلى الرغم من تمسك الحسن بظاهر الشريعة الإسلامية ، إلا أن كتابته فى المذهب النزارى لم تكن تختلف كثيرا عن الأسس التى وضعها مؤسس المذهب الإسماعيلى ، عبد الله بن ميمون [١] . ولا غرو ، فقد كان كل منهما ، بالإضافة إلى تكوينه نظاما دينيا سياسيا بارعا ، يعتقد أنه من كبار المصلحين الذين أنجبتهم الحياة[٢] .

وبهذه الصفات وغيرها ساد الحسن الصباح ، وأضحى من كبار الشخصيات فى العصور الوسطى .

(ب) وفاة الحسن الصباح :

توفى الحسن الصباح فى سنة ٥١٨ هـ ، بعد أن مهد الأمور لخليفته ، فعهد بالأمر بعده لرجل اشتهر بالإخلاص والتفانى فى حب المذهب النزارى ، ذلك هو «الكيا بزرجميد»[٣] . التى كان حاكما عاما على قلاع إقليم «رودبار» .

ونفهم من نزول الحسن الصباح إلى «الكيا بزرجميد» عن العرش ، أنه لم يهتم بمبدأ الوراثة ، حتى لقد كان حبه المذهب النزارى يطغى على حبه أبناءه . وغلا بعض فاعتقد أن الحسن قتل أولاده حتى لا يتقيد بمبدأ الوراثة ، ويبرهن لأنصاره أن عنصر الوراثة ، هو الذى يجب أن يسود بين النزارية ، والحق أن مبدأ الوراثة لم يجد له فى نفس الحسن أثرا ،

---

(١) Ivanow. (J. R. A. S. 1931), p. 534

(٢) Ibid. p. 535

(١) الكيا . معناه الرئيس . وبزرجميد : معناه : من يهب الأمل والرجاء .

وكأن هذا الزعيم رغب فى أن يعطى لخلفاته درسا فى جعل عنصر الصلاحية ، له مكان الصدارة بين النزارية .

وقد حاول الحسن قبل موته أن يجمع قلوب أتباعه حول خليفته «الكيا بزرجميد» ، الذى كان موضع ثقته ، فأمرهم جميعا ، وبخاصة كبار أنصاره ، بالالتفاف حوله ، ومعاونته فى كل صغيرة وكبيرة ، حتى يستطيع أن يحتفظ للنزارية بهيبتهم ومذهبهم [١] .

ومهما يكن من شىء ، فإنه بموت الحسن الصباح لم نعد نسمع شيئا عن أسرته، وانتقل الأمر إلى أسرة «الكيا بزرجميد» . وظل فيها ردحا طويلا من الزمن ، حتى انتقل فى أسرة نزار نفسه ، على ما ادعاه الحسن الثانى فى سنة ٥٥٩ ﻫ .

(ح) مدى نجاح الحسن الصباح :

إن ما قام به الحسن الصباح من أعمال مجيدة لا يقل أثرا عن أعمال أبى عبد الله الشيعى، الذى قامت الدولة الفاطمية على يديه، فقد استطاع الحسن أن يكوّن دولته وسط بحر خضم من السنيين ، الذين يحنقون على المذهب الإسماعيلى ، وبفضل قلاع الدعوة المنيعة ، وتلك الدور المعروفة بدور الدعوة ، استطاع الحسن أن ينشر المذهب النزارى وهو آمن مطمئن . ومهما يكن من شىء فقد استطاع الحسن الصباح أن يقيم دولته من القلاع القوية المتناثرة فى جبال طبرستان ، وقوهستان ، وخراسان ، وجبال لبنان بالشام . واستطاعت هذه الدولة الفريدة فى نوعها ، الشيعية المذهب ، أن تعيش قرنين من الزمان (٤٨٣ — ٦٥٤ ﻫ) كانت فيها موضع رهبة العالم السنى .

---

(١) المستوفى : تاريخ جوزيدة ، ج ١ ص ٤٩٧ .

وتدين هذه الدولة النزارية فى بقائها إلى الحسن الصباح ، فهو الذى سن سنة الاستيطان فى قلاع قوية منيعة ، وهو الذى نظم حدود الدعوة تنظيما روحيا وماديا متقنا، ووضع للدعوة خطوات كان لها أثر بالغ فيما نالته من نجاح . ناهيك عن نظام الفداوية البديع ، وبفضل هذا كله استطاع الحسن أن يكوّن جاسوسية منظمة فى العالم السنى ، كما استطاع أن يخيف الملوك والسلاطين ، فحارب السلطان ملكشاه تارة ، واشتبك مع أبنائه تارة أخرى . فنشأ خلفاؤه من الدعاة على غراره ، لايعرفون سوى سياسة الخنجر والحديد والدم

ويدين سمو أغاخان وأنصاره بوجودهم اليوم إلى الحسن الصباح هذا ، وهنا يجب أن نعرّف القارىء علاقة سمو أغاخان وأنصاره بالحسن الصباح وبالفاطميين : نحن نعلم أن نزارا بن المستنصر دعا لنفسه فى مدينة الإسكندرية ، وحارب أخاه المستعلى ووزيره الأفضل شاهنشاه ولكنه انهزم ، وقبض عليه . وقتل فى القاهرة سنة ٤٨٨ هـ ، غير أن الحسن الصباح نادى بأنهم « ما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم » ، وحول الدعوة فى بلاد المشرق إلى نزار ، وإلى أبنائه من بعده ، فخلق بعمله هذا ، فى تاريخ الإسماعيلية المشارقة ، دورا جديدا عرف بدور الستر (٤٨٨ — ٥٥٩ هـ) .

وليس من شك فى أن الحسن الصباح كان البطل الأول فى «دور الستر» هذا، وكان ينادى بإمامة نزار ثم إمامة أبنائه من بعده ، وينادى فى الوقت نفسه بأنه « حجة » لهؤلاء الأئمة ، ونهج نهجه خليفتاه : الكيابزرجميد (٥١٨ — ٥٣٢ هـ) ، وابنه محمد الأول (٥٣٢ — ٥٥٧ هـ) ، ولم يثر واحد

من هؤلاء الثلاثة على نزار وأبنائه. بل كانوا مثلا عليا فى حبهم والإخلاص لهم، كما كانوا مثلا عليا فى التقوى والأخلاق الطيبة، واستطاع هؤلاء أن يدعموا دولتهم، فأكثروا من إقامة القلاع فى جبال فارس وطبرستان وخراسان والشام، وأنشأوا «دور الدعوة» فى كافة أرجاء العالم الإسلامى الشرقى.

ولما ولى الحسن الثانى (٥٥٧ — ٥٦١ هـ) عرش النزارية، أحدث بينهم ثورة جديدة، لم يكن لهم بها عهد، ولكنهم كانوا يترقبونها، فادعى أنه هو الإمام المستور من سلالة نزار، وأتى لأتباعه بسلسلة نسب نراها واضحة فى كتابنا «أئمة النزارية أجداد أغاخان»، وفيها أثبت ارتباطه بالفاطميين.

ويجمع النزارية إجماعا كليا على أن الحسن الثانى من سلالة نزار، وبالأحرى من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم، عن طريق فاطمة الزهراء، زوجة على ابن أبى طالب، ولكن السنيين لا يوافقونهم على ذلك، ويرمونهم بأخش الاتهامات، ويهمنا هنا أن نقول: إن انتقال الأمر من الدعاة (٤٨٨ — ٥٥٩) إلى الأئمة، منذ سنة ٥٥٩ هـ، خلق دورا جديدا فى تاريخ النزارية، هو دور الظهور، واستمر رؤساء النزارية يتناوبون الرياسة على أنهم من الأئمة الظاهرين، منذ ذلك التاريخ حتى سنة ٦٥٥ هـ، حين قتل هولاكو خان ركن الدين خورشاه (٦٥٣ — ٦٥٥ هـ) آخر إمام من أئمة دولة النزارية.

وكان النزارية فى ذلك الدور يدعون لإمام ظاهر، ولكن موجة من

الإلحاد قد غمرهم ، فأطاحت بتلك السمعة الطيبة التى خلقها شيوخ الجبل الأوائل ، وبخاصة الحسن الصباح ، وكاد هذا يعجل بسقوط دولتهم ، لولا أن ادعى واحد من هؤلاء الأئمة، هو الحسن الثالث، (٦٠٧ - ٦١٨هـ) الدخول فى المذاهب السنية ، واعتناق المذهب الشافعى ، وأرسل أمه لتحج إلى مكة المكرمة ، وتبرأ من المذهب النزارى، ومن آبائه وأجداده، فكان ما فعله الحسن الثالث من عوامل الإبقاء على الدولة ، لذلك سموه « المسلم الجديد » .

غير أن دولة النزارية تعرضت لما تعرضت له جميع الدول الإسلامية فى القرن السابع الهجرى ، فطغى عليها جميعها هجوم المغول الخاطف الجارف، فسقطت دولة «خوارزم شاه» ، بعد أن تآمر العباسيون والنزارية أنفسهم عليها ، وتبعتها الدولة النزارية ، فسقطت فى سنة ٦٥٤ هـ ، كما كانت نهاية العباسيين على يد هولاكو هذا فى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . ولولا مهارة «المماليك البحرية» وانتصارهم على المغول فى «عين جالوت» (٦٥٨ هـ) لتحول العالم الإسلامى جميعه إلى دويلات تخضع للمغل. وبفضل انتصار المماليك فى «عين جالوت» استطاع الظاهر بيبرس أن ينتزع «قلاع الدعوة» بالشام ، ويضمها إلى ملكه الواسع هناك (١) .

غشى النزارية موجة من التخفى والتستر، بعد مذبحة التتار لهم فى سنة ٦٥٥ هـ . ويظهر أن أئمتهم اتخذوا من بلاد جنوبى فارس مستقرات دائمة

---

(١) انظر ما كتبته فى كتاب « إسماعيلية الشام من أقدم العصور حتى اليوم » خاصا بقلاع الدعوة فى الشام .

لهم ، حتى أننا نراهم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (الميلاديين) فى كرمان ، كما أنهم تصاهروا مع شاهات فارس ، ومن ثم نشأ إمامهم محمد حسين، فى مدينة «محلات»، جنوبى فارس، فسُمِّيَ «المحلاتى». وترجع أهمية هذا الرجل فى تاريخ النزارية إلى أمور: منها، أنه من سلالة جمعت بين الإمامة (عن طريق الانتساب إلى نزار) والملك (لأنه حفيد شاه فارس)، لذلك لم يكن بعيدا أن يسعى إلى الملك وزعامة العالم النزارى معا.

ومنها أنه اكتسب رضاء الانجليز فى بلاد الهند ، إذ أنه حين فر من بلاد فارس. اشترك مع الانجليز فى حملتهم فى بلاد السند وأفغانستان، فساعده الانجليز مساعدات فعالة ، تراها فى منحهم إياه لقب صاحب السمو ، ومنحهم إياه معاشا سنويا ضخما أصبح يتمتع به هو وأبناؤه من بعده ، وأهم من هذا كله أن المحاكم الانجليزية بالهند ، حكمت على أتباعه فى سنة ١٨٦٦م، بوجوب دفع الضرائب التى يطلبها منهم، باعتباره الرئيس الروحى عليهم ، فكان تبعا لذلك السيد المطاع بين النزارية ، وأضحى الأغاخانات منذ وطىء سمو محمد حسين أرض الهند فى سنة ١٨٤٣م ، يستقرون فى تلك البلاد ، وأصبحوا من ذلك الحين وهم صنائع الانجليز، ولهم الحق المطلق فى التمتع بأموال أتباعهم .

وقد ولى سمو أغاخان محمدا حسين ، ابنه سمو أغاخان على شاه ، فى سنة ١٨٨١ م ، ولم يتمتع برياسته الروحية والزمنية أكثر من أربعة أعوام ، ومات فى سنة ١٨٨٥ م . وكان مغرما بركوب الخيل ، والفروسية ، وكثرة الرحلات فى جميع أنحاء المعمورة ، وزياراته

الكثيرة لأتباعه فى آسيا وإفريقية مشهورة معروفة . وقد عينه البريطانيون عضوا فى مجلس الحكومة الأعلى فى بمباى . ومات وعمره أربع وخمسون سنة (فى سنة ١٨٨٥ م).

وقد ورث ابنه سمو أغاخان الحالى جميع هذه الصفات ، فولى الأمر، ولم يكن قد جاوز الثامنة من عمره ، وكان الوصى عليه رجل بريطانى . ولد سمو أغاخان الحالى فى سنة ١٨٧٧ م ، وتسمى محمد شاه ، وله شهرته الكبيرة فى النهضة الثقافية بالهند بل فى النهضة الإسلامية فى العالم .

ويلتف حوله كثير من أتباعه ، الذين يتسمون باسم الخوجات ، Khodjas أى الرؤساء الدينيون ، أو باسم الأغاخانية ، نسبة إليه ، وهم فى الحق النزارية الحديثون . وليس من شك فى أنهم لا يمثلون جميع الإسماعيلية اليوم . فهناك أشياع المستعلى، أخى نزار سابق الذكر ، الذين يحملون اسم «البهرة» ، وهؤلاء لا يقلون عددا عن النزارية ، أتباع أغاخان (الخوجات) ، ولذلك يخطىء من يقول : إن أغا خان زعيم الإسماعيلية قاطبة ، وإنما هو زعيم لطائفة منهم فقط . بعد هذا كله نستطيع أن نقول : إن أغاخان وأتباعه اليوم يدينون بوجودهم إلى الحسن الصباح ، أو بعبارة أخرى : إن هؤلاء جميعا من غرس يده .

وبعد فلعلنا نكون قد أعطينا صورة - نرجو أن تكون واضحة - عن تأسيس «الدولة النزارية» و«الدعوة الجديدة» على يد الحسن الصباح زعيم الإسماعيلية فى فارس .

قسم الملاحق

ملحق (١)

«البشارة بتسليم قلعة شاه دز [١]».

« بسم الله الرحمن الرحيم : وهو الوزير الأجل ، مجد الدين ، شرف الإسلام ، ظهير الدولة ، زعيم الملة ، بهاء الأمة ، فخر الوزراء ، أبو المعالى هبة الله بن محمد بن المطلب ، رضى أمير المؤمنين . أما بعد ،

أطال الله بقاء الوزير وألقابه ، وأدام تأييده وتمهيده ، وأحسن من عوائده مزيده . فان الله تعالى يقول ، وقوله الحق : « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (٢) » .

ولقد أتانا الله — وله الحمد — من هذا الفضل ما صرنا به أطول الملوك فى الإسلام باعا ، وأعزهم فى الذب عن حريمه أشياعا وأتباعا ، وأشدهم عند الحفيظة له بأسا ، وأظهرهم من درن الشبهة فيه لباسا ، وأقصدهم فى اختفاء الحق المبين أنحاء ، وأثقلهم على أعداء الله وأعداء الدين المنير وطاءة وإنحاء . فلا تتجه عزائمنا

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥٢ — ١٥٦ . أرسل السلطان محمد بن ملكشاه هذه الرسالة إلى وزير الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) ببغداد ، يبشره بسقوط هذه القلعة ، والقبض على ابن عطاش والتشفى من ممالئيه .

(٢) سورة المائدة : آية ٥٤ .

لهم فى ذلك « إلا حققنا الفيصل وطبقنا المفصل [(١)] » ، « وفرينا الفرى » ، و« اقتدحنا من الزناد الورى » ، وأعدنا الحق جذعا [ص ١٥٣] وأنف الباطل مجدعا ، نعمة من الله اختصنا بها من دون سائر الأنام ، وأحلّنا من التفرد بمزاياها فى الذروة والسنام .

فالحمد لله على ذلك حمدا يوازى قدر نعمه ، ويمترى المزيد من مواد كرمه . ثم الحمد لله على ما يسرنا له من إعزاز الدين ، ورفع عماده ، وقمع أضداده ، واستئصال شأفة الباطنية المناهضة لعباده ، الذين استركوا [(٢)] العقول الفاسدة ، فاستغووها بأباطيلهم ، واستغووها بأضاليلهم ، واتخذوا دين الله هزوءا ولعبا ، بما لفقوه من زخارف أقاويلهم ، سيما ما سنّى الله من فتح الفتوح ، وهيأ أسبابه من النصر الممنوح بأخذ قلعة « شاه دز » ، التى شمخ بها الجبل وبذخ ، وكان الباطل باض فيها وفرخ وكانت قذى فى عيون الممالك ، وسيما إلى التورط بالمسلمين فى المساوى والمهالك ، ومرصدا عليهم بالشرارة [(٣)] والنكارة ، حيثما ينحونه من المسالك .

وفيها ابن غطاش [(٤)] الذى طار عقله فى مدرج الضلال وطاش ، وكان يُرِى الناس نهج الهدى مضلة ، ويتخذ السفر المشحون بالأكاذيب مجلة ، ويستبيح دماء المسلمين هدرا ، ويستحل أموالهم غدرا ، فكم من دماء سفكت ! وحرم انتهكت ! وأموال استهلكت ! وترات [(٥)] تجرعتها النفوس فما استدركت ! ولو لم يكن منهم

---

(١) أمثلة تقال عند التوفيق التام فى الشىء .

(٢) أى استضعفوها .

(٣) أى أنها مصدر الشر والمنكر .

(٤) الزعيم النزارى الثانى ، وهو أحمد بن عبد الملك بن عطاش . مات مقتولا فى سنة ٥٠٠ ﻫ على يد السلطان محمد بن ملكشاه .

(٥) جمع ترة وهى القتلة التى لم يدرك رمها .

إلا ما كان عند حدثان أمرهم بأصفهان، من اقتناص الناس غيلة ، واستدارجهم خديعة ، وقتلهم إياهم بأنواع العقوبات قتلة شنيعة ، ثم فتكهم عودا على بدء بأعيان الحشم ، وخيار العلماء ، وإراقتهم ما لا يعد ولا يحصى من محرمات الدماء ، إلى غير ذلك من هنات يتعض الإسلام لها أى امتعاض . وما الله عن المسلم أن يتحيز لها براض، لكان حقا علينا أن نناضل عن حمى الدين ، ونركب الصعب والذلول فى مجاهدتها ولو إلى الصين .

وهذه القلعة كانت من أمهات القلاع ، التى انقطع اليها رءوس الباطنية كل الانقطاع ، فكانت تبثُّ الحبائل منها فى سائر الجهات والأقطار ، وترجع اليها نتائج الفساد رجوع الطير الى الأوكار . وهى فى العزة والمنعة مثل مناط (١) الشمس التى تنال منها حاسة البصر دون حاسة اللمس ، ترد الطرف كليلا ، وتعد العدد الدثر (٢) فى محاصرتها كليلا . وكأنها وهى أعلى شاهق ، نزلت على الجبل من حالق (٣) ، فهى بهذه الصفة مقابلة لبلدة «أصفهان» ، التى هى مقر الملك ، ودار الثواء ، وأولى البلاد بتطهيرها من اهتياج الفتن واختلاف الأهواء ، ونحن نقيم بها طول هذه المدة المديدة ، وندبر أمرها الى ما يصونه الرأى من الحيلة والمكيدة .

وأمامنا من المستخدمين وأصحاب الدواوين نفر تصغى إليهم أفئدتهم ، فيما كانوا عليه من مخالفة الدين ، يتوصلون بمكرهم إلى نقض ما يبرم ، وتأخير ما تقدم ، ويوهمون أنها من النصائح التى تقبل وتلزم، حتى تطاول دون ذلك الآن، وبان من القوم المعتقد . واتضح لنا من صائب التدبير ما يعتمد .

وكنا فى خلال هذه الأحوال ، لم نخل هذه القلعة من طائفة تهزهم حمية الدين

---

(١) كناية عن صعوبة الوصول إليها .

(٢) الدثر : الكثير .

(٣) الحالق : الجبل المنيف الذى لانبات فيه .

من الجنـد ، ينتهون من التضييق عليها إلى كل غاية من الجـد ، فيتوفرون على محاصرتهم ومصابرتهم ، ويتشمرون لمزاولتهم ومصاولتهم، ويقعدون لهم بكل مرصد، ويعدون كل متنزل ومصعد ، حتى انقطعت عنهم المواد ، وخانتهم الميرة والأزواد ، واضطروا الى أن نزل بعضهم على حكم الأمان، بعد الاستثمار والاستئذان ، فأمرنا بتخلية سربهم (١) ، وإيمان سربهم (٢) . وسلم الشطر من القلعة لخلوه من الفئة النازلة .

واعتصم ابن عطاش بقلة أخرى تسمى دالان، مع نخب أصحابه من المقاتلة. وهذه القلة هى أمنع المواضع من القلعة وأحصنها ، وأوعرها مسلكا وأحزنها (٣) ، فقد نقل اليها ما كان بقى لهم من الميرة وسائر ما يستظهر به من السلاح والذخيرة ، على أن يلبثوا بها أياما معدودة فينزلوا ، ويبذل لهم الأمان مثل ما بذل للأولين ، فيتحولوا كل ذلك بوساطة من قدمنا ذكرهم من المستخدمين فى الدواوين ، وفى باطن الأمر خلاف ما يتوهم من الإعلان ؛ وذلك أنهم قدروا أن ماسلم من القلعة يترك على عمارته ومكانته ، وما امتنع به من القلة لايقدر عليـه لمنعته وحصانته ، فهم يتوصلون بتمكنهم من ذلك الحيل إلى سرقة ماسلموه آنفا ببعض الحيل (٤)

هذا وقد كفوا مؤن من نزل من الأكلة ، وعندهم الـكفاف لمن بقى من العملة . ففطنا لما عمدوا ، وعليه اعتمدوا ، وأمرنا فى الحال بالقلعة المسلمة فنسفت نسفا ، وخسفت خسفا ، وصير سفلها علوا، كما كان علوها خلوا .

---

(١) أى باطلاق سراحهم . والسرب : الطريق والوجهة والصدر ،

(٢) السرب : القطيع من الظباء وغيرها ، كناية عن ضعفهم .

(٣) الحزن : الأرض الغليظة ـ جمعها حزون .

(٤) الحَيل : القوة ، أوالماء المستنقع فى بطن الوادى .

ثم انتقمنا من المستخدمين الغادرين بالملك والدين ، حتى ساقهم الحين[١] المتاح الى حين ، فلم يفلت منهم صاحب ولا مصحوب ، ان الشقاء على الأشقين مصبوب .

ووافق ذلك حلول الموعد لنزول باقى القوم من « دالان » ، فأبوا إلا المطل والليان ، فلما مضت أيام على ذلك أظهروا التمرد والعصيان ، فصاروا كما قال الله تعالى : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر ما فى قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عـــذاب عظيم[٢] » .

فعند ذلك اســـتخرنا بالله تجريد العزائم لهذا الجهاد الذى هوعندنا من أنفس العزائم ، ولا نخاف فيه لومة لائم . وأهبنا بمن حضرنا من العساكر المنصورة إلى الإحداق بالقلعة المذكورة، يوم الثلاثاء ثانى ذى الحجة[٣]، فنزلوا لفنائها محتشدين ، واصدق اللقاء متشمرين متجردين ، وجرت مناوشة عشية هـذا اليوم أثخنت عدة من أولئك القوم ، وبات المسلمون ليلتهم على أضم[٤] والملحدون لحما على وضم . فلما تنفس الصبح وغردت الديوك الصدح ، وطوى الليل رداءه ، ورفع البحر لواءه ، نصر الله الحق ، وأدال الدين ، وساء صباح المنذرين ، وغدت جيوش النصر يدا واحدة ، وكامة على التظافر والتظاهر مساعدة تسطو بالفئة المتحصنة بالقلعة سطوة الليث الهصور، وكأنهم طاروا بأجنحة الصقور على صم الصخور ، فلم يلبثوا قبل ذرور[٥] الشمس بقرنها ، وأخذها الناصع من لونها ، أن أخذوا القلعة عنوة

(١) الحَيْنُ والحِين : الحَيْن : الهلاك والمحنة ، والحِين . المدة والزمن .

(٢) سورة المائدة آية ٤٥

(٣) من سنة ٥٠٠ هـ.

(٤) [اظنها اطم] وهو الحصن أى أن جنوده كانوا محصنين

(٥) ذرور ، من ذرّ أى طلع ، والمعنى طلوع .

وقهرا ، وأجروا من ماء الباطنية الملحدة نهرا ، فلم يئل[1] منهم وائل ، ولا أخطأهم من السيوف البواتر وائل . وأمرنا فى الحال بهدمها ، والتعفية على ردمها ، فلم يبق منهم نافخ ضرمة[2] ، ولا أثر من نسمة ، ولا مدر[3] على أكمة .

وأسر ابن عطاش ، رأس الجالوت ، وولى الطاغوت ، الذى كان ممن قال الله تعالى فيه : «وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار» ، فجعلناه وولده المقرون به ، مثلة للنظارة ، وعبرة لأولى الأبصار . «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» .

هذا الفتح المبين ، والعزة التى تتلى ، لأنها من الدهر العين ، والنعمة التي تمت وعمت ، وأحنت بالنقمة على أعداء الله ورسوله وطمت ، وما ذاك إلا من بركات عقائدنا الناصعة فى موالاة الدولة العباسية ، ظاهر الله مجدها ، وما يلتزمه فى فرجتها من فضل المناصحة والمشايعة فيها ، نحن نسطو بالأعادى ، ونكفى من اعتراض النوائب كل العوادى ، ونسوس الدهماء من الحواضر والبوادى . وهذه البشرى التى يهنأ بها الإسلام ، وترفع بها من الإشادة بذكرها فى الخافقين الأعلام . أمرنا بنشرها فى الأقصى والأدنى ، لا سيما الدارة العزيزة [أى دار الخلافة فى بغداد] ظاهر الله مجدها ، من يبشر بمثلها ويهنأ .

وأنهينا بالأمير عز الدولة إلى إيصال هذه البشارة إلى الدايوان العزيز النبوى — أعلى الله جده — فندب من قبله من يقوم بهذه الخدمة ، ويعلمه ما نحن نصدره من الاعتراف بقدر هذه النعمة ؛ وهذا الأمير كان من المندوبين أولا وآخرا لمحاصرة

---

(١) وَأَلَ يَئِلُ من الشىء = طلب النجاة منه ، ووأل اليه : لجأ .

(٢) ضرمة : جمرة

(١) المدر = الطين الذى لا يخالطه رمل . والمعنى الانهاء التام عليهم .

هذه القلعة ، فأبلى فيها بلاء حسنا جميلا ، وأغنى غناء لم نجد له فيه عديلا . ولذلك اختصصناه بهذه المزية ، وآثرناه بإبلاغ هذه البشرى الهنية . والمعول تام على الاهتمام الوزيرى فى إلقائها إلى المقار المعظمة النبوية [الخلافة العباسية] ، ليعلم من صدق نهضتها بالخدمات وعندنا المسعاة فى إعزاز الدين من أوجب المهمات ، ما يزلفنا من شريف المراضى ويفرض لنا من المحامد والمآثر التامة على الأبد أكرم الأحاظى ، وأن يتقدم فى حق المبشر ما هو على الدولة — ثبتها الله — متعين ، حتى يعود ولما يستحسن من موقع هذه البشارة عليه أثر بين .

والوزير أولى من أغتنم هذه المكرمة ، فاعتنقها ، وتمكن من عصمة الرأى السديد ، فاعتلقها (١) ، واستحمد إلينا بما يتكلفه من جميل مساعيه ، ويتكلفه بالاهتزاز والاهتمام فيه من سائر ما يلاحظه من الأمور ويراعيه . إن شاء الله تعالى » .

وكتب بالأمر العالى شفاها سنة خمسمائة .

ملحق (٢)

تآمر نزارية الصباح على حليفهم رضوان صاحب حلب

يقول ابن الفرات (٢) :

« كان للملك رضوان كاتب ديلمى ، وكان يسكن بالقلعة ، وكانت داره قريبة من ذخيرة الحطب والمسجد الكبير ، الذى يعرف بالمقام . وكان له في داره مغارة ، وأنه عمل على أخذ القلعة . وصار إلى أصحاب أبى طاهر الصايغ الباطنى ونائبه ، وسأله أن يهيء له رجالا يصعدهم القامة لعله يملكها . فهيأ له نائب أبى طاهر الباطنى جماعة من الباطنيين . فكان يصعد إليه كل يوم رجلا ورجلين وأكثر فيرسل من يصعد

(١) اعتلقها : أحبها .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ١ ورقة ٥٨ — ٥٩

إليهم منهم إلى داره، ويدخله المغارة، ويقوم لهم [ج ١ ورقة ٥٩] بالطعام والشراب، إلى أن بلغ عدد الذين صعدوا إليه ثلثمائة رجل وستون رجلا ، وهو مستحفظ بالقلعة.

وكان له صديق من أهل سرمين ، وكان ذلك الصديق من الباطنية ، فجاء إلى أبي سعد ، وقال له : أريد أن أبيت عندك . وكان لأبي سعد « الإسباسلار »[١] دار بحلب ، فبات عنده ، فلما خلا معه ، قال له الباطني : قد وجب عليَّ نصحك ؛ فقال : وما ذاك يا أخي . ؟ فقال : أحب أن تكون أنت ومن لك بالقلعة في المدينة ، فقال : لأي شيء ؟ فقال : هذا الكاتب الديلمي هو من أصحابنا ، وقد حصل في القلعة ثلثمائة وستين رجلا ، وقال : جئنا إلى حلب في خمسمائة رجل . وفي هذه الليالي يقفز في القلعة ويأخذها . واستحلف « الإسباسلار » على كتمان ذلك .

فصار أبو سعد « الإسباسلار » إلى باب الملك رضوان ، وكان يوما صايفا ، ورضوان نايم . فقال للخادم : قل له : إن أباسعد « إسباسلار » ... يريد أن يجتمع بك الساعة . فخرج الخادم فقال : هو نائم ، لا أقدر عليه . فقال : ادخل عليه وعرفه حالي ، وأيقظه ولو كان مع زوجته ، وأخرجه ولو كان عريانا . فدخل الخادم إلى الملك رضوان ، وأيقظه ، وقال له مقالة أبي سعد «إسباسلار» .. وقال : لا بد له من لقائك ، فخرج الملك رضوان إليه ، فقص عليه القصة ، فمسك الملك رضوان بذيل أبي سعد « إسباسلار » ، وقال له : دبرني برأيك ! فقال له : أريد أن تقدمني على جميع من في القلعة ، وينادي مناديك أن جميع من بالقلعة يأتمرون بأمري ؛ فأمر الملك رضوان بذلك .

فنزل أبو سعد « إسباسلار » ، وأمرهم بالعرض في الميدان ، فما بلغ العصر، حتى تكامل في الميدان خمسمائة جندي بالسلاح ، فأنكر الكاتب ذلك ، وجاء إلى الملك رضوان ، وقال له : إن هذا الرجل ليس أهلا لما جمعت له ، فقال له الملك

---

(١) من أكبر رتب كبار القواد ورؤساء الجيوش .

رضوان : كنت وعدته بذلك قديما ، وهو خبير بالرجال . فغضب الكاتب ، ومضى إلى منزله ، فوضع على باب المغارة التي في داره حصيرا غطاها بها ، ونصب عليها تختا وجلس فوقه .

فلما كملت الرجال هجم الملك رضوان وأبو سعد « اسباسلار » على الكاتب ، فأخذه أبو سعد « إسباسلار » ونحره ، وقطع رأسه ، وشال التخت ، ورمى به إلى الذين في المغارة من الإسماعيلية الباطنية ، وناداهم أننا قد علمنا بما كان من هذا الكاتب ، وما فعل من إخفائكم ، فإن سلمتم أنفسكم وإلا أهلكناكم عن آخركم . فاضطربوا ، وعلت أصواتهم . ففزع الملك رضوان ، وأعطاهم أمانا على أنه كلما خرج منهم رجل يستلمه جنديان ، فيخرجانه من باب العراق إلى ظاهر البلد ، ويطلقان سراحه .

وسمع بذلك الذين كانوا في المدينة من الباطنية ، فتهاربوا عن آخرهم ، وأخذ من المغارة أسلحة كثيرة » .

ملحق (٣)

محاولة نزارية الصباح الاستيلاء على قلعة الشريف من صاحبها ايلغازى(١).

« خرج رسول أبي محمد ، رئيس الإسماعيلية بحلب ، إلى ماردين ، إلى عند الأمير نجم الدين إيلغازى ، ومعه هدية سنية ، وقود كثير . ومعه كتاب من أبي محمد . وكان بينه وبين إيلغازى مصادقة ، يقول له فيه : إننا ضيوفك ، وقد كثرت نقلتنا ، ونريد أن تمن علينا بإطلاق قلعة الشريف ، لنتخذها مسكنا وملاذا نأوى إليه .

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٢ ورقة ٣٩ ـ ٤٠ . وكان ذلك في سنة ٥١٤ هـ .

فقال الأمير إيلغازى للرسول من غير توقف ولا تؤدة : والله قد أمرت البارحة بهدمها ، ولو تقدم قدومك لسلمتها إليكم ، والتفت إلى كاتبه وقال : اكتب له كتابا بتسليم القلعة إليهم إن كانت على حالها ، وفهم الكاتب مراده ، فتباطأ بالرسول .

وأمر الأمير إيلغازى كاتبه أن يكتب على جناح طائر بهدم السور الذى بينها وبين حلب ، ويقصر سورها الخارجي، ويصيب جماعة من أهل الحبوس [السجون] الذين وجبت عليهم الديات ، ويشاع أنهم كمنوا فيها ، وأرادوا تسليمها إلى الفرنج ، وأن يصعد إليها جماعة من وجوه الحلبيين ببيوتهم وأهليهم ، وأن لا يؤخر ذلك . وكتب للرسول كتابا فى آخر النهار ، وأرسله ، فجاء فوجدها قد انهدمت ، وقد سكنها جماعة من وجوه الشيعة والسنة .

فأعاد الرسالة : « نحن نأخذها ونعمرها » . فقال لهم : هذا ثغر قريب من الفرنج ، وقد صعد إليه وجوه المدينة وأهل الدين ، ولا يمكننى مناصبتهم(١) ، فإنى أخاف أن يفسد حال البلد. ولو أنكم أتيتمونى فى السر ، ولا تظهرون ذلك، لكنت بلغتكم غرضكم » . ...

وجرى فى أيام أتابك زنكى كذلك ، وطلبها منه فاعتذر بأن أهل الدين قد سكنوها ، ولا يمكننى أن أجعل على نفسى شناعة . قال : لما أنفذ أبو محمد (٢) إلى إيلغازى يطلب قلعة الشريف ، شاع هذا الخبر فى حلب ، فاجتمع جماعة من الحلبيين وقالوا : إن حصلت هذه القلعة فى أيدى الإسماعيلية ملكوا حلب . والصواب أن

---

(١) معاداتهم .

(٢) كبيرالدعاة فى الشام ، وهوالذى تولى بعده راشد الدين سنان مقدم الدعوة فى الشام ، فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وكان له شأن يذكر مع الصليبيين ونور الدين ، وصلاح الدين نفسه .

نجتمع ونخرب السور الذى بينها وبين حلب ، ونسد الخندق ، ونجعلها من جملة البلد . فجمعهم ابن الخشاب [شحنة حلب] ، وخربها . وبهذا السبب قتلته الإسماعيلية » .

ملحق (٤)

« مبدأ التعليم عند الحسن الصباح ، على ما رواه الشهرستانى (١) »

يقول الشهرستانى فى الحسن الصباح : « ونحن ننقل ما كتبه بالعجمية إلى العربية ، ولا يعاب على الناقل . والموفق من اتبع الحق واجتنب الباطل . فنبدأ « بالفصول الأربعة » التى ابتدأ — الحسن — الدعوة بها وكتبها عجمية فعربتها » .

« قال (الحسن) للمفتى فى معرفة البارى تعالى أحد قولين : إما أن يقول : أعرف البارى تعالى بمجرد العقل والنظر ، من غير احتياج إلى تعليم معلم . وإما أن يقول : لا طريق إلى المعرفة مع العقل والنظر إلا بتعليم معلم صادق . قال (الحسن): ومن أفتى بالأول ، فليس له الإنكار على عقل غيره ونظره ، فانه متى أنكر فقد علم ، والإنكار تعليم ، ودليل على أن المنكر عليه يحتاج إلى غيره . قال (الحسن) : والقسمان ضروريان ، فإن الإنسان إذا أفتى بفتوى ، أو قال قولا ، فإما أن يقول من نفسه أو من غيره ، وكذلك [من] اعتقد اعتقادا ، فإما أن يعتقده من نفسه أو من غيره » . هذا هو الفصل الأول ، وهو كَسْرٌ على أصحاب الرأى والعقل .

وذكر [الحسن] فى الفصل الثانى أنه إذا ثبت الاحتياج إلى العلم ، أفيصلح كل معلم على الإطلاق ؟ أم لابد من معلم صادق ؟ قال : ومن قال : إنه يصلح كل معلم ما ساغ له الإنكار على معلم خصمه ، وإذا أنكر ، فقد سلم أنه لابد من معلم معتمد

(١) الملل والنحل (على هامش ابن حزم) : جـ ٢ ص ٢٩ـ٣١ .

صادق » . قيل : وهذا كسر على أصحاب الحديث .

وذكر [الحسن] فى الفصل الثالث أنه إذا ثبت الاحتياج إلى معلم صادق، أفلا بد من معرفة المعلم أولا والظفر به، أم جاز التعلم من كل معلم، من غير تعيين شخصه وتبيين صدقه ؟ والثانى رجوع إلى الأول . ومن لم يمكنه سلوك الطريق إلا بمقدم ورفيق ، فالرفيق ثم الطريق ، وهو كسر على الشيعة .

وذكر [الحسن] فى الفصل الرابع . أن الناس فرقتان : فرقة قالت : يحتاج فى معرفة البارى تعالى إلى معلم صادق ، ويجب تعيينه وتشخيصه أولا ، ثم التعلم منه ، وفرقة أخذت فى كل علم من معلم وغير معلم ، وقد تبين بالمقدمات السابقة أن الحق مع الفرقة الأولى ، فرأسهم يجب أن تكون رأس المحققين .

وإذا ثبت أن الباطل مع الفرقة الثانية فرؤساؤهم يجب أن يكونوا رؤساء المبطلين . قالوا : وهذه الطريقة التى عرفتنا المحق بالحق معرفة مجملة ، ثم تعرف بعد ذلك الحق بالمحق معرفة مفصلة ، حتى لا يلزم دوران المسائل ، وإنما عنى بالحق ههنا الاحتياج ، وبالمحق المحتاج اليه . وقال [الحسن] : بالاحتياج عرفنا الإمام ، وبالإمام عرفنا مقادير الاحتياج ، كما بالجواز عرفنا الوجوب ، أى واجب الوجود ، وبه عرفنا مقادير الجواز فى الجائزات .

ثم ذكر [الحسن] فصولا فى تقرير مذهبه .... منها فصل الحق والباطل ، والصغير والكبير ، يذكر [فيها] أن فى العالم حقا وباطلا . ثم يذكر أن علامة الحق هى الوحدة ، وعلامة الباطل هى الكثرة . وأن الوحدة مع التعليم، والكثرة مع الرأى ، والتعليم مع الجماعة ، والجماعة مع الإمام ، والرأى مع الفرق المختلفة ، وهى مع رؤسائهم . وجعل الحق والباطل ، والتشابه بينهما من وجه ، والتمايز بينهما من وجه التضاد فى الطرفين ، والترتب فى أحد الطرفين ، ميزانا يزن به جميع ما يتكلم فيه .

قال : وإنما أنعأت هذا الميزان من كلمة الشهادة وتركيبها من النفى والإثبات أو النفى والاستثناء . قال : فما هو مستحق النفى باطل ، وما هو مستحق الإثبات حق ، ووزن بذلك الخير والشر والصدق والكذب، وسائر المتضادات. ونكتته أن يرجع فى كل مقالة وكلمة إلى إثبات المعلم ، وأن التوحيد هو التوحيد والنبوة معا حتى يكون توحيداً ، وأن النبوة هى النبوة والإمامة معا حتى تكون نبوة . وهذا هو معنى كلامه .

وقد منع [الحسن] العوام عن الخوض فى العلوم، كذلك الخواص عن مطالعة الكتب المتقدمة ، إلا من عرف كيفية الحال من كل كتاب ، ودرجة الرجال فى كل علم . ولم يتعدّ بأصحابه فى الإلهيات عن قوله : إن إلهنا إله محمد ، وأنتم تقولون : إلهنا إله العقول ، أى ماهدى إليه عقل كل عاقل ، فان قيل لواحد منهم : ما تقول فى البارى تعالى ؟ وأنه هل واحد أم كثير ؟ عالم قادر أم لا ؟ لم يجب إلا بهذا القدر : « إن الهى إله محمد ، وهو الذى أرسل رسوله بالهدى . والرسول هو الهادى إليه »

يقول الشهرستانى: « وكم قد ناظرت القوم على المقدمات المذكورة ، فلم يتخطوا عن قولهم : أفنحتاج إليك ، أو نسمع هذا منك، أو نتعلم ذلك عنك ؟ وكم قد ساهلت القوم فى الاحتياج ، وقلت : اين المحتاج اليه ؟ وأينه [يعرف] فى الإلهيات ، وماذا يرسم فى المعقولات ؟ إذ المعلم لا يعنى لعينه وإنما يعنى ليعلم ، وقد سددتم باب العلم وفتحتم باب التسليم والتقيد ، وليس يرضى عاقل بأن يعتقد مذهبا على غير بصيرة ، وأن يسلك طريقا عن غير بينة . فكانت مبادى الكلام تحكيمات، وعواقبها تسليمات « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (١)

---

(١) سورة النساء ، آية ٦٤ .

ملحق ٥

مناظر بين الغزالى ، حجة الإسلام ، وأحد أتباع الحسن(١)

انظر الغزالى وهو يناقش أحد النزارية فى مبدأ « التعليم » ، فيرد عليه النزارى بقوله : « إن هذا المعلم الغائب ، وإن كنت لم أر منظره ، فقد سمعت خبره ، كالليث إن لم أره ، فقد رأيت أثره ، ولقد رأيت والدتى إلى أن ماتت ، ومولانا صاحب قلعة آلموت (٢) يثنيان عليه ثناء بالغا ، حتى قالا : إنه المطلع على كل ما يجرى فى العالم ، ولو على ألف فرسخ(٣) ، فأكذب والدتى وهى العجوز ، العفيفة السيرة ، أو مولانا وهو الإمام الحسن السيرة والسريرة ؟ كلا ! بل هما شاهدان صادقان . كيف ؟ وقد طابقهما على ذلك جميع رفقائى من أهل دامغان(٤) وأصفهان ، ولهم الأمر المطاع ، وفى حكمهم سكان القلاع . أفترى أنهم منخدعون وهم الأذكياء ؟ أو متنمسون(٥) وهم الأتقياء ؟ هيهات هيهات . ! دع عنك الغيبة ! فإن مولانا يطلع على ما يجرى بيننا من غير ريبة . إذ لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، فأخشى أن أتعرض لمقته بمجرد السماع والإصغاء ، فاطوطومار الهذيان .

---

(١) الغزالى : القسطاس المستقيم ، ص ٦٦ — ٦٨ .

(٢) المقصود هو الحسن الصباح . (٥١٨ هـ) .

(٣) الفرسخ : ثلاثة أميال أى نحو ثمانية كيلومترات .

(٤) دامغان : بلد كبير بين الرى وينسابور . وهو قصبة قومس — على ماسبق .

(٥) من نمس عليه الأمر تشبه عليه ، وتنمس عليه الأمر : تلبس والتبس عليه .

أهم مصادر الكتاب مرتبة حسب أحرف الهجاء

بالنسبة لأسماء مؤلفيها

ابن الأثير : (٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) ، على بن أحمد بن أبي الكرم
(١) « الكامل فى التاريخ » (طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ هـ) .
الأفغانى : السيد جمال الدين
(٢) « الرد على الدهرية »
ترجمة الإمام الشيخ محمد عبده (طبعة مصر سنة ١٣٤٤ هـ)
أوليرى دى لاسى : O'Leary : de Lacy
(٣) A Short History of the Fatimid Khaliphate (London, 1923)
ايفانوف : فلاديمير Ivanow : Valadimir
(٤) اين كتاب مستطاب عن حقيقت مذهب إسماعيل ، مسمى كلام بير Kalami Pîr يعنى هفت باب (بمباى سنة ١٩٣٤ م)
(٥) « در حقيقت مذهب إسماعيلية ، مسمى در حقيقت دين » (تأليف شهاب الدين شاه ، ونشر إيفانو ، سنة ١٩٣٣ م)
بارتولد : ف. Barthold
(٦) « تاريخ الحضارة فى الإسلام » . نشر حمزة طاهر (مصر سنة ١٩٤٢ م)
براون : إدوارد ، ج. Browne, Edward George
(٧) Literary History of Persia (3 volumes)
(٨) تاريخ طبرستان :
لابن سفنديار . ترجمة براون
برشم : ماكس فان Berchem : Max Van
(٩) «Epigraphie des Assassins de Syrie» (J.A. 1897)
البستانى :
(١٠) دائرة معارف البستانى (بيروت سنة ١٨٧٨)

البغدادى : (٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) . أبو منصـــور عبد القاهر بن طاهر
(١١) «الفرق بين الفرق» (القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م)

بلوشيه : ل. Blochet : L.
(١٢) Le Missianisme dans l'Heterodoxie Musulmane (Paris 1902 A. D.)

الفتح بن على بن محمد البنـدارى الأصفهانى (بعد سنة ٦٢٣ هـ)
(١٣) اختصر كتاب «تاريخ دولة آل سلجوق» لمؤلفه عماد الدين الأصفهانى . (مصر سنة ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م)

البيرونى (٤٤٠ هـ) أبو الريحان محمد بن أحمد .
(١٤) «الآثار الباقية عن القرون الخالية» (ليبزج سنة ١٩٢٣ م)

تيلور و. س. Taylor : W.C.
(١٥) The History of Mohammedanism & Its Sects (London,1839)

جوانفيل Joinville
(١٦) Histoire de St. Louis (Textes Originales par Natalis de Wailly (paris, 1885)

ابن الجوزى (٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) . أبو الفرج عبد الرحمن .
(١٧) «تلبيس إبليس ، أو نقد العلماء» (مصر سنة ١٣٤٠ هـ) .

(السبط) ابن الجوزى (٦٥٤ هـ = ١٢٥٧ م) أبو المظفر قيزوغلى.
(١٨) «مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان» مخطوط

جويار ستانلاس Guyard Stanislas
(١٩) Un Grand Maître des Assassins au Temps de Saladine (Paris, 1877)

حسن إبراهيم حسن (الدكتور)
(٢٠) الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص (مصر سنة ١٩٣٢)
(٢١) عبيد الله المهدى ، بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف

حسين الهمدانى (الدكتور)

(٢٢) Some Unknown Ismaili Authors & their Works (J. R. A. S. 1933)

الحمادى اليمانى : (محمد بن مالك بن أبى الفضائل)

(٢٣) «كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة» ، مصر ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م

ابن خلدون (٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م) عبد الرحمن بن على .

(٢٤) «العبر وديوان المبتدا والخبر» (مصر سنة ١٢٨٤ هـ)

دوزى. ر. ب. ا. Dozy : R.B.A.

(٢٥) Essai sur l'Hist. de l'Islamisme «1879»

دوسو : موراجيا D'Ohsson Mouradgea

(٢٦) Hist. des Mongholes (vol. 111, Paris 1832)

ديفريمرى م. س. Defremery : M. C.

(٢٧) Nouvelles Recherches sur les Ismaeleens ou Batiniens de Syrie (J.A. 1854, 1855)

(٢٨) Essai sur l'Hist. des Ismaeleens de la Perse

الذهبى (٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م) شمس الدين محمد بن احمد .

(٢٩) «تاريخ الإسلام» مخطوط . (المجلد الثالث) .

(٣٠) Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux.

سايكس (Sykes)

(٣١) The Hist. of Persia (1910)

السمرقندى (٥٥٠ هـ) أحمد بن عمرو بن على النظامى السمرقندى .

(٣٢) «كتاب جهار مقاله» (ليدن سنة ١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩ م)

سيد أمير على :

(٣٣) «تاريخ العرب والتمدن الإسلامى» (ترجمة رياض رأفت ـ مصر سنة ١٩٣٨ م)

الشاطبى (٧٩٠ هـ = ١٢٦٧ م) أبو إسحاق إبراهيم الغرناطى الشاطبى .
(٣٤) «الاعتصام» (مصر سنة ١٣٣١ هـ = ١٩١٣) ثلاثة أجزاء

الشهرستانى (٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم
(٣٥) «الملل والنحل» على هامش ابن حزم (مصر سنة ١٣٤٧ هـ

الشيرازى (٤٧٠ هـ = ١٠٧٧ م) المؤيد فى الدين هبة الله .
(٣٦) «السيرة المؤيدية» (مخطوط بمكتبة الجامعة) رقم ٢٦٢٠٥٦)

شيفر : شارل Schefer : Charle
(٣٧) Hist. de l'Asie Centrale (Paris 1876)

طه احمد شرف (الدكتور).
(٣٨) «الزندقة والزنادقة ، منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر العباسى الأول» (رسالة)
(٣٩) «الفاطميون وزعامة العالم الإسماعيلى» . (مخطوط)
(٤٠) «المشكلات الكبرى فى تاريخ الفاطميين» («)
(٤١) «أئمة النزارية أجداد أغاخان» («)
(٤٢) «إسماعيلية الشام من أقدم العصور حتى اليوم» («)

العينى : (٨٥٥ هـ) بدر الدين محمود .
(٤٣) «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» (مخطوط)

الغزالى (٥٠٥ هـ = ١١١١ م) أبو حامد محمد بن محمد الغزالى .
(٤٤) «المنقذ من الضلال ، أو الملل والنحل» (دمشق ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م)
(٤٥) «فضائح الباطنية أو المستظهري» (ليدن سنة ١٩١٦ م)
(٤٦) «القسطاس المستقيم» (دمشق سنة ١٣١٨ هـ = سنة ١٩٠٠ م)

ابن الفرات (٨٠٧ هـ = ١٤٠٤ م) محمد بن عبد الرحيم .
(٤٧) «تاريخ الدول والملوك» (مخطوط بدار الكتب)

القزوينى : حمد الله المستوفى .
(٤٨) «تاريخ كوزيده» (نشر وترجمة كانتين . باريس سنة ١٩٠٣ م)

ابن القلانسي (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزه .
(٤٩) « تاريخ ابن القلانسي المسمى ذيل تاريخ دمشق » (بيروت سنة ١٩٠٨)
القلقشندي : أبو العباس أحمد
(٥٠) «صبح الأعشى» (القاهرة سنة ٩١٧ م)
كراوس: پول Paul : Craus
(٥١) «رسائل فلسفية لأبي بكر بن زكريا الرازي» مصرسنة ١٩٣٩
لورنس لوكهارت Lorence Lockhart
(٥٢) Hasani Sabbah & the Assassins
(B. S. O. S. London: 1928-30)
ماركو - پولو Marco-Polo
(٥٣) The Travels of Marco-Palo (Tr. par Prof. Ricci)
مالكولم : ماجور جنرال Malcolm M. G.
(٥٤) The Hist. of Persia, vols 1-2
محمد كامل حسين (الدكتور)
(٥٥) «المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي» (رسالته للدكتوراه)
المقريزي (٨٤٥ هـ) تقي الدين احمد بن علي .
(٥٦) «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» مجلدان (بولاق سنة ١٢٧٠ هـ)
مكسيموس :
(٥٧) « تاريخ الحروب المقدسة » جزءان. (سنة ١٨٤٠ م)
ميخائيل : شاروبيم .
(٥٨) نشر كتاب « التاليد في مذهب أهل التوحيد » لحمزة بن علي .
ابن ميسر (٦٧٧ هـ = ١٢٧٨ م) : محمد بن علي بن يوسف بن جلب .
(٥٩) «أخبار مصر» (نشر هنري ماسيه – المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعاديات الشرقية) (القاهرة ١٩١٩ م)
مينانت : ب. Menant ; B.

(٦٠) Les Khodjas du Guzarate (R. M. M.) vol. 12

ناصرى خسرو [٤٨١ هـ = ١٠٨٨ م]

(٦١) «سفرنامة» (نشر وترجمة شارل شيفر • باريس سنة ١٨٨١ م)

نظام الملك (الوزير) ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م

(٦٢) «سياسة نامة» المجلد الثانى (باريس سنة ١٨٩٣ م)

«ابن منجب الصيرفى» : (٥٤٢ هـ = ١١٤٧) أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على

(٦٣) «الإشارة إلى من نال الوزارة» (القاهرة ١٩٢٤)

النويرى (٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م) أحمد بن عبد الوهاب (مخطوط ج ٢٣ ـ ٣١) .

(٦٤) «نهاية الأرب فى فنون الأدب»

همر : فون Von Hammer : Burgaastal

(٦٥) Hist. de l'Ordre desAssassins (Tr.par Hellert, 1833)

(٦٦) Von Hammer's Hist. of the Assassins (Arabia & Mahomet)

ابن واصل : جمال الدين الشافعى.

(٦٧) «مفرج الكروب في تاريخ بنى أيوب» (مخطوط)

يحيي الخشاب (دكتور)

(٦٨) «رحلة ناصرو خسرو» (رسالة)

محتويات الكتاب

صفحة

الباب الرابع

صراع دولة الحسن الصباح مع العالم السنى فى بلاد المشرق

الباب الخامس

جهود الحسن الصباح فى بلاد الشام ومصر (فى الشرق الأدنى)

قسم الملاحق